د. مصطفى عبد الغنى

نحن والغرب

فى القرن الحادى والعشرين



دار العالم العربي

نحن والغرب
فى القرن الحادى والعشرين



٢ شارع امتداد رمسيس (١) . مدينة نصر . القاهرة
تليفاكس: ٢٤٠٢٤٦١٢ - ٢٤٠٥١٤٩٨
e.mail: af_madkour@yahoo.com

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١١ م/ صفر ١٤٣٢ هـ
رقم الإيداع: ٢٠٨٩٣
الترقيم الدولي: ٤- ١٢- ٠- ٤٩٥ - ٩٧٧ - ٩٧٨

د. مصطفى عبد الغنى

نحن والغرب
فى القرن الحادى والعشرين

دار العالم العربى

بيانات الفهرسة المكتبية
(إعداد: إدارة الشئون الفنية بدار الكتب المصرية)

عبد الغنى، مصطفى.
نحن والغرب فى القرن الحادى والعشرين/
مصطفى عبد الغنى . .
ط ١ . . القاهرة: دار العالم العربى، ٢٠١١ .
٢٧٢ ص؛ ٢١ سم . . (أوراق السنين)
تدمك: ٤ - ١٢ - ٠ - ٤٩٥ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ . العالم العربى - العلاقات الخارجية -
العالم الغربى
٢ . العالم الغربى - العلاقات الخارجية -
العالم العربى
أ . العنوان
ديوى ٣٢٧,٠٩٥٦١٨٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

مقدمة	11
الخصوصية وعسكرة العولمة	15
المشهد العربى	16
المشهد القُطْرى	18
"هوجة العولمة".. على المسرح	21
مثقف العولمة.. والأجناس الأدبية	27
حوار الاستشراق.. أم حوار المناهج؟	33
حوار الاستشراق.. المدرسة الألمانية	39
حوار الاستشراق.. فى عَمَّان	44
الآخر.. مَن هو الآخر حقًّا؟!	50
عَوْد إلى الآخر.. مَن هو الآخر حقًّا؟	56
عن الاستشراق.. والترجمات المعاصرة	63
الاستشراق القديم والاستشراق الجديد	63
1 . تغاير المرجعية	64
2 . جناية المناهج	66

3 . غياب المعجم التاريخى 68
حوار عن "الاستشراق الجديد" 71
الاستشراق .. مشهد أخير 77
إسرائيل.. ويهود التاريخ 83
إسرائيل من «سليم حسن» إلى «المسيرى» 88
المسيح اليهودى.. بين السياسة والأسطورة 93
ما الذى يحدث فى القدس؟ 94
الحضارة والإرهاب.. رسائل غير عابرة 99
حضارة أم إرهاب؟ 105
حضارة أم إرهاب؟.. والمسيح اليهودى 110
الميثولوجى 112
الأصولية 114
أى حوار .. وأى حضارة؟ 116
أى حوار.. وأى حضارة ؟ 122
تغييب الجمهور عن الشاشة الزرقاء 133
الإعلام العربى والغربى 141
الهوة المعرفية 147
خطاب الغرب 153
بديهيات 159
أولاً : مسألة السامية 159
ثانيا: القناع اللاهوتى والعنصرية 165

الخطر والمضارع المستمر	171
الحاخام والسياسى.. العنف والإرهاب	177
قناع «العم سام».. والإصلاح	183
الإصلاح.. والفضائيات العربية	189
الفضائيات العربية والدور الغائب	193
المركزية الثقافية	201
المركزية الثقافية والفضائيات	211
الهوية الأمريكية.. والمستشرقون الجدد	219
الهوية الأمريكية.. والمستشرقون الجدد	224
عن المستشرقين الجدد	229
السامية.. تحسس رأسك	234
من أحلام 11 سبتمبر	238
الرقابة.. والشبكة الدولية	245
سيناريو الإصلاح والجائزة الكبرى	256
ويسألونك عن الإرهاب	261
نحن والغرب والتكنولوجيا: ما العمل؟	267

مقدمة

هذه أوراق أخرى من زيارات السنين..

الأوراق الأولى راحت ترصد أو تسجِّل، فى كلِّ مرَّة، زيارة لكلِّ قضية من القضايا التى كان صاحب هذه الأوراق يسعى إليها فى رحلته، أو فى العقد الأخير من القرن العشرين..

أما هذه الأوراق ـ التالية ـ فراحت ترصد فى كلِّ مرَّة زيارةً أخرى لكلِّ قضية من القضايا التى كان صاحب هذه الأوراق يسعى إليها فى القرن التالى، القرن الحادى والعشرين..

إنه رصْدٌ بشكلٍ مَّا للشرق العربى بين القرنين العشرين والحادى والعشرين..

وبشكل أدق، فإن هذه الكتابات راحت تصعد من نهايات القرن العشرين إلى بدايات القرن الحادى والعشرين، فهى ترصد عقدًا من الزمان فى مفترق الطرق، عبر كتابات منتظمة واعية راصدة لحركة الواقع الحاضر، والذى هو حصاد للماضى وتَشَوُّف للمستقبل، عبر خُطَى الماضى والحاضر فى حركة زمنية أقرب إلى "المضارع المستمر" الذى نعثر عليه فى غير الأفعال العربية..

وعلى هذا، فالفترة الزمنية لهذه الكتابات ترصد سنوات بداية قرن ونهاية قرن جديد، وتصعد فى حركة الفعل للدلالات الخيرة التى نشير إليها ولا

نتنبه للإعداد لها.. وعلى هذا النحو كان كاتب هذه السطور يكتب وينشر ويأمل أن يغير ما يكتبه أو ينشره، ويسعى ـ فى جميع الحالات ـ إلى أن تكون "الشهادة" على هذا "المضارع المستمر" بأزمنته المتباينة، والدلالات التى أصبحت أكثر حضورًا، خاصة فى علاقتنا بالغرب حيث نقف الآن، كما كنا فى نهايات القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر.. فترة مجىء «بونابرت» إلى مصر..

وهذا يعنى بشكلٍ مَّا الوصولَ إلى النتيجة التى أشرت إليها فى أغلب أعمالى، خاصة السيرة الذاتية والفكرية التى صدرت فى جزأين عن دار الهلال، فلا يمكن استيعاب هذه الخارطة دون مدّ خطوط الطول والعرض إلى كتاباتى كلها، خاصة المنشور منها على شكل دراسات وكتب، وقد زادت على الستين كتابًا ما بين نقد أدبى وإبداع وتاريخ وفكر وسيرة وأدب رحلات ومترجمات.. إلى غير ذلك.

وهو ما يسعى فى التمهل عند الحاضر (الذى كان ماضيا)، والماضى (الذى كان حاضرًا)، وثالوث الماضى والحاضر والمستقبل فيما يمكن أن نسميه هنا "المضارع المستمر" الذى نعيش فيه أو يعيش فينا..

وسوف نلاحظ هنا ـ أكثر ما نلاحظ ـ أن هذه الكتابات لا تصدر من جانب واحد، أو تُؤْثِر المنصة دون القاعة كما عوَّدتنا تجمعات المثقفين أو السياسيين (فى المقالات أو الندوات التى حضرناها)، ولكنها التزمت ـ أكثر ما التزمت ـ الهبوط إلى القاعة منذ البداية، أو أن الحوار بين المنصة والقاعة كان حوارًا ديمقراطيا واعيا، آثرت فيه حينًا أن أكون على المنصة، بيد أننى اخترت فيه دائمًا أن أستمع إلى الصَّوت العالى بين المنصة والقاعة، فإذا بنا نفكر (معًا) بصوت واحد..

وهو ما يفسر هنا الإشارة إلى بعض الندوات التى حضرت إليها، كما يبرر كيف أننى لم أكتفِ بهذا، وإنما تلقيت رسائل المستمعين والقارئين فى القاعة وخارجها ليحدث التفاعل بيننا (المنصة والقاعة) أو بين القلم والرجل العادى، فبدا الأمر أقرب إلى التفكير بصوت واحد بين الكاتب وقارئيه، وبين المنصة وحاضريها، مما أكد على أن "الرؤية" فى النهاية كانت تعبّر عن خطاب واحد يفسر هذه الحالة الصعبة التى عاشتها أمتنا العربية والإسلامية فى العقد الأول من القرن الحادى والعشرين..

وهو ما يحدد زمن نشر هذه الشهادات منذ العام الأخير فى القرن العشرين إلى الأعوام الأخيرة فى العقد الأول من القرن الحادى والعشرين.

لقد آثرت ألا أضع كل تاريخ تحت (الخطاب) المتتالى فى صحيفة الأهرام، وإنما آثرت أن أحدد هنا أن هذه المقالات (وهى أقرب إلى الدراسات الآنية المحايثة) نُشرت فى هذه الحقبة التى تمثل فى هذه السنوات الدالة المفزعة فى بدايات الألفية الثالثة..

وهو مايقترب بنا من حقيقة مهمة، هى أن ما كُتب هنا يمثل وعيا للحاضر يقترب من "الشهادة".. "الشهادة" على أقنعة هذا الزمن ورموزه، والمعاني المعادة بين العوربة والعولمة، والمعانى الدالة فى أقصى دلالاتها عند موقف المثقف العربى ورموزه التى تبدو بالشكل السلبى والإيجابى.. ومهما يكن، فقد آثرتُ وضع هذه الكتابات كتاريخ ـ لأننى متخصص فى التاريخ المعاصر ـ وكرؤية نقدية تنحو إلى النقد الأدبى بحكم دراساتى النقدية الطويلة وحصولى على جائزة الدولة فى النقد الأدبى، ثم لإيمانى بأن "عين الطائر" الواعية هى كل ما يجب الحرص عليه فى التعامل مع الأفق العربى خلال هذه الفترة المؤلمة المفزعة من تاريخنا المعاصر.

ويبقى أن نعيد ونكرر على أن هذه الأوراق تمثل جزءًا من كتاباتى المتوالية التى آثرتُ الإبقاء عليها هنا - كما هى - أسيرة الواقع والتاريخ الذى نعيش فيه جميعًا..

ولله الأمر من قبل ومن بعد

د. مصطفى عبد الغنى

الخصوصية.. وعسكرة العولمة

نستعيد الآن الرواية التى ترددت فى الصحف الغربية على أثر رحيل «عبد الناصر»، من أن سفنًا من الأسطول الأمريكى كانت فى طريقها إلى شرق البحر المتوسط للقيام ببعض المناورات العسكرية فى 28 من سبتمبر عام 1970، وما إن أعلن نبأ وفاة «جمال عبد الناصر» حتى صدرت التعليمات لها بالعودة، والسبب «أن الرجل الذى كنا نريد أن نُسْمِعَهُ أصوات مدافعنا.. قد مات!».

نذكر هذا بمناسبة مرور كل هذه السنوات منذ رحيل «عبد الناصر» فى 28 من سبتمبر سنة 1970، وهى الذكرى التى مرت علينا دون أن يتنبه لها أحد بالقدر الكافى، خاصة فى هذه الظروف التى نمر بها الآن..

وهى الظروف التى تحتاج إلى موقف عربى واحد (الاستراتيجية) و«جمال عبد الناصر» (الرمز) فى مواجهة الصلف الإسرائيلى الذى نراه فى الكلام الإسرائيلى الذى يتردد فى كل مكان، والفعل الإسرائيلى الذى يتحدد فى الاجتياح الذى بدأ فى مثل هذا اليوم إثر الانتفاضة الثانية فى 28 من سبتمبر أيضًا..

ومع ذلك، فإن ذكرى «عبد الناصر» ما زالت أمامنا وخلفنا، والمشاهد كثيرة!

الباحث والسياسى الأمريكى «روبرت جونسون» يردد للزميل «محمد عبد الهادى» أن إسرائيل كانت على استعداد لكى تعيد الحقوق، لكن الآن لا يوجد شيء يخيفها، فلا توجد قومية أو وحدة موقف عربى، ولا يوجد شبح «ناصر»، فلماذا تعيد إسرائيل الحقوق بسهولة، أو تشغل بالها بالعرب وهم على هذه الحالة التى هم عليها الآن؟!

وهذه عبارة تضيف إلى الموقف العربى الموحد دلالة ذكر شبح «عبد الناصر»، بما يشير إلى أمرين:

أحدهما: أن فكرة الوحدة العربية لا تُذكر الآن فى لحظة التجسيد إلا ويذكر معها «عبد الناصر».

ثم إن امتزاج هاتين الفكرتين، القومية العربية و«عبد الناصر» ـ وهذا هو الأمر الآخر ـ يعنى الوصول إلى معنى ثالث.. فالفكرة الشائعة فى الأدبيات الماركسية هنا أن لقاء الفكرتين ـ أىّ فكرتين ـ وإحداث العلاقة بينهما، ينتج فكرة ثالثة تكون قابلة أكثر للاستمرار.

معنى ذلك أننا فى هذه الفترة الصعبة من تاريخنا نحتاج إلى الوعى القومى العربى (لا الوعى القُطْرى وحده).. الوعى العربى بمعنى الوعى داخل كل قُطْر بما يؤدى إلى الوعى الجَمْعى الذى يشْعِر بخطورة ترك المصير العربى أمام الأجنحة المتصارعة المعادية لنا، فى حين أن الواقع يؤكد أن الجناح المتشدد، والذى يدعو إلى تدمير العراق، هو الذى يحمل أوراقًا أكثر.. حيث إن الوعى القُطْرى هنا يظل مرهونًا بما يمكن أن يقدمه فى غيبة الوعى العربى، ويجب أن نسرع هنا بالقول إن الوعى القطرى موجود، ولابد أن يكون موجودًا، بيد أن صحته تظل الشرط الذى تقوم من أجله القومية

العربية، ويقوم بالرمز إليها قائد مثل «عبد الناصر» الذى جسد الفكرة القومية.

لقد مرت ذكرى رحيل «عبد الناصر» دون أن يتنبه أحد إلى أن شبحه الذى غاب عنا ـ بالمعنى السابق ـ هو الذى نفتقده فى هذه الفترة المهمة من تاريخنا.. كان «عبد الناصر» حفيا بالوعى القُطْرى، وفى الوقت نفسه واعيا للوعى القومى.. ونقول هذا أيضًا حين نذكر أننا فى هذه الفترة المهمة من تاريخنا حيث نعيش عصر "العولمة الأمريكية"، لابد أن نتنبه فيه إلى الخصوصية القطرية العربية فى كل إقليم.. والأحرى أن نستخدم فى عصر العولمة مفهومًا أكثر دلالة فى التعبير الآن هو "الخصوصية الثقافية Specialite Cultural"، وهو المفهوم الذى يشترك فيه أفراد كل قطر عربى، حيث إن الأفراد هنا يتصفون بمثل هذه الصفة، سواء سيسيولوجيا أو أنثروبولوجيا، والمعنى الأخير هنا هو الذى يتردد فى المعاجم العالمية الآن من أن أفراد كل قُطْر تجمع بينهم عدة صفات يركِّز فيها على العقيدة واللغة والسياسة بما يقترب بها من سمات خاصة تقترب بها يطلق عليه فى علم الأنثربولوجيا بالثقافة الشخصية .Cultureand personality وتلاحظ موسوعة «لالاند» هنا أن المفهوم يمنح خاصية البنية الواحدة فى الإقليم أو فى نوعية أو خصوصية Specilictte محددة تغلب على أهله فى المجال الثقافى بما يجعلها تختلف عن غيرها.

وعلى هذا النحو، فإن أخطار القرن الحادى والعشرين ـ ونحن ما زلنا فى بدايته ـ تحمل خطر التعدد ولا تلغيه.. خطر التعدد حين تصبح الأقطار العربية بيادق تنفرط فى رقعة الشطرنج، وحين تصبح فكرة الوعى العربى ـ لا الجغرافى بالضرورة ـ سرابًا.. حيث يحشد الغرب لنا كل ما فى جعبته من فلول ماكرة من 'صراع الحضارات' و'نهاية التاريخ' والربط بين الدين

والإرهاب.. وما إلى ذلك مما يعوق حركة الوعى العربى فى انفراط العقد أو تشتت قطع البيادق فى وعى عربى واحد يمثله رمز مثل «جمال عبد الناصر».

بيد أن هذا المشهد ـ الخصوصية القُطْرية والخصوصية العربية ـ يحتاج إلى تعميق أكثر لهذا المشهد.

المشهد القُطْرى

إن المشهد القطرى يمكن أن يكون أكثر إيجابية حين يتحلى بالوعى أو الموقف العربى فى عصر العولمة.

ففى غيبة الوعى الثقافى العربى، يمكن أن نلاحظ أمام الخطر الذى يهددنا جميعًا الآن أن أقطارنا مهددة بالتجزئة والحرب الدينية والقضية الديمقراطية والخلافات الداخلية وعبث المستشرقين الجدد ـ وفى مقدمتهم «فريدمان» ـ بما يسهم فى التمزق الداخلى ويسهّل عملية الهيمنة الإمبريالية على هذا القُطْر أو ذاك.

وقد سبق أن أكدت قبل ذلك أن هذه الصفات التى تتمثل بالسلب يمكن أن تتمثل بالإيجاب حين يكون القُطْر واعيا بوجوده فى هذه الحقبة، وهنا يتدخل دور الدولة ويؤدى دورًا إيجابيا فى حالة التنبه إلى العديد من هذه الصفات والعمل لها، وهنا نستطيع أن نشير إلى الخصوصية الثقافية القُطْرية بشكل فاعل ما دامت الدولة تتنبه لإطار الفاعلية، غير أننا لا نكاد نخرج من هذا الإطار حتى يضيع تماسكها وتأثير العوامل الإيجابية.

ولدينا أمثلة كثيرة لذلك..

يقول «بول هيرست» فى كتابه "ما العولمة": إن دور الدولة القُطْرية يمكن أن يكون فاعلاً فى حدود الوعى بالدور الثقافى والإيديولوجى فى الداخل، ثم الوعى بأداء التعامل مع الخارج اقتصاديا وثقافيا أيضًا.

وهو ما يتأكد أكثر حين نعترف بوضوح أكثر أن وظيفة الدولة القومية باتت شبيهة بوظيفة البلديات داخل الدول.

وعلى الجانب الآخر، فإن التماسك فى القُطْر الواحد يمكن أن يمثل خطرًا آخر فى عصر العولمة، إذ يمكن أن تمثل الخصوصياتُ القُطْرية خصوصياتٍ تابعةً ما دامت قد انفصلت عن "التكتل" ـ أو "الاتحاد" ـ القومى لبقية الأقطار العربية.

فعلى الرغم من أن الإمبريالية تسعى لتفتيت القُطْر الواحد ليمكن التعامل معه، فإنه يمكن أن يصبح ـ على العكس ـ عاملاً إيجابيا يمكن التعامل معه والهيمنة عليه.

وعلى هذا النحو، فإن الخصوصيات القُطْرية يمكن أن تسهّل عملية التبعية حين تصبح الأَقْلَمَة (أى تفتيت القُطر الواحد إلى أقاليم) أقلمةً تابعةً وليست مناوئة بأية حال؛ لأن هذه الأخيرة لا يمكن إلا أن تكون فى تناقض مع العولمة. وبعبارة أخرى، فإن أى تطور داخل النظام الإقليمى ينطوى على زيادة تماسكه من أجل التصدى لهذا الجانب أو ذاك من جوانب العولمة ـ كما يلاحظ أكثر من مثقف ـ لن يكون بالتأكيد موضع ترحيب من مراكز الهيمنة أو النظام العالمى.

بَيدَ أن الأكثر إيلامًا هنا، أن عاصفة مانهاتن قد داهمت الأقطار العربية بشكل مفاجئ، فأصبحت البلاد العربية تعانى ضرورة الوحدة على مستوى فهم الخطر الذى يهدد قطرًا كالعراق، وفى الوقت نفسه تعانى الشعور بعدم توافق إيجابى على مستوى ضرورة الوحدة الفعلية فى مواجهة الخطر الذى يهددنا جميعًا.

ولم تفلح قسوة الأحداث فى تشكيل "موقف عربى" فاعل ـ بالفعل ـ إزاء الأخطار التى تهددنا ليل نهار إثر انتظار الموقف الجامح لدى الصقور فى الإدارة الأمريكية الآن.

إن أقصى ما نتحدث عنه الآن هو ضرورة الوحدة فى الرؤية من المصير الواحد فى عصر تعدد الرؤى، على حين أن ما ينقصنا أكثر - فضلاً عن الوعى الثقافى - هو الوعى بالموقف العربى الفاعل فى عصر التكتلات الاقتصادية والسياسية.

وعلى هذا، فإن تناولنا هنا قضية الوحدة الثقافية يعنى الوعى بالوحدة الثقافية فى عصر التكتلات الكبرى، بما يدفع إلى اتخاذ موقف واحد معزز بدوافع اقتصادية وسياسية وليست "كلامية"..

فالموقف القُطْرى وحده - مهما ارتبط بغيره بوحدة ثقافية - يظل موقفًا رومانسيا غير فاعل، وسيادة الدول القُطْرية وحدها - مهما تحدثنا عن استقلال اقتصادى أو تكنولوجى قُطْرى - يظل موقفًا ضعيفًا يمكن أن يفتقد الخصوصية الثقافية إن لم يلتفت إلى عصر المشكلات والأزمات الاقتصادية والاجتماعية التى تدفع الدول الكبرى الآن للتدخل فى مصائر هذا القُطْر أو ذاك باسم الإرهاب أو الدفاع عن المثالية البرجماتية فى وجه الخطر القادم.

هذا يعنى أن الوحدة الثقافية وحدها لا تأخذ استحقاقها من التزامها بمفرداتها الخاصة والخصوصية التى تدافع عنها، وإنما من التنبه إلى الشأن العربى - لا القُطْرى - فى عصر التكتلات.

ففى عصر عسكرة العولمة، لم يعُدْ يجْدِى أن نتحدث طويلاً عن الهوية الثقافية القُطْرية بمعزل عن الهوية القومية، كما لم يعُدْ يجدى التحدث مع الدول الكبرى بمنطق الحرص على الصداقة أو توجيه الحديث إلى الرأى العام أو المجتمع الدولى كما نفعل الآن..

بوضوح أكثر، لم يعُدْ أمامنا - فى ذكرى رحيل الرجل الذى أخاف الغرب - غير اتخاذ موقف عربى ليس ثقافيا وحسب، وإنما واعيا بحجم المصالح الغربية وحمق العنصرية المعاصرة.

"هوجة العولمة".. على المسرح!

لماذا لم أكتشف هذه الحقيقة مبكرًا؟

لا أعرف لماذا لم أكتشف هذه الحقيقة إلا قرب نهاية العرض، حين سمعتُ بوضوح عبارة "هوجة العولمة".. فالنص يعانى من كثير من ظواهر "العولمة" كما نراها فى فضاء الواقع العربى اليوم، فى حين يعتقد المُشاهِد التقليدى أننا أمام قضية قديمة هى قضية انتقاد للقهر الإنسانى. رحت أسال نفسى:

هل كان لابد أن أكتشف هذا كله فجأة حين تنطق الزوجة التعسة ـ وهى تدور بيدها فوق رأس الزوج ـ هذه العبارة: «رقيتك من "هوجة العولمة"».. وهل كان ذلك مقصودًا من المؤلف؟ وهل كان ذلك متعمَّدًا من المخرج؟

رحت أستعيد أحداث النص بسرعة. كنت أعتقد أن النص يتعامل مع قضية الواقع المصرى الأبدية، وهى قضية "القهر الاجتماعى" فى مجتمع مركزى.

إننا أمام رجل (لا يهم اسمه، فلِمَ يذكر اسمه؟) وامرأة (لم يذكر اسمها هى أيضًا؟) يعانيان من القهر الداخلى، وتبعًا للرموز التى نجدها فى عنوان العرض "العمة والعصا" للكاتب «رجب سليم» والمخرج المتميز «سيد طليب».. فنحن أمام هستيرية درامية تتحدث عن هذا القهر الذى يعانيه الإنسان المصرى طيلة حياته منذ يولد من "الأب المقدس" وعنفه داخل الأسرة، إلى المدرس أو الناظر وعدوانيته داخل المدرسة، أو إرهاب مسئول الحى ولفظه إياه، أو التهديد المباشر والحاد لمن يتصدى للعمل الطلابى "داخل الجامعة"، أو البطالة بعد التخرج، أو القول الصريح فى الندوة ـ أية ندوة ـ حين يجرؤ أن يقول ما يعتقده.. إلخ، حتى نصل إلى "الفتوة" الذى يواجه الإنسان المصرى فى أى اتجاه يحاول أن يبحث فيه عن حقوقه. إن

رموز هذا النص موجودة فى هذا الحوار الطويل داخل النص بين رجل وامرأة هما فى الواقع تجسيد لإنسان واحد هو الإنسان المصرى داخل المجتمع.

إننا طيلة هذه الظواهر لم نغادر مقعد المشاهد الذى يرى نفسه مُهانًا فى أكثر من مكان ـ حتى فى بيته ـ من قُوَى تتغير وجوهها وتتبدل رموزها ويظل القهر هو العامل المشترك بينها جميعًا.

أقول: لم أعرف إلا بغتةً أننا أمام هذا "الفتوة" الجديد الذى يريد أن يصبح ـ هو وحده، وبأية وسيلة ـ الفتوة الجديد! كيف اكتشفت فجأةً هذه الحقيقة؟

عدتُ لأتامل أكثر هذا النص وخارجه..

عدتُ لأنطلق إلى البدهيات التى نحياها جميعًا حتى أصبحت هى الواقع الذى نعيش فيه ونعتقده كهذه الشخصية، فكلنا شخصيات فى هذا العالم الجديد الذى نعيشه فى نهاية الألفية الثانية..

عدت لأكتشف أن البدهيات مقصودة لذاتها، وأعرف يقينًا مما يحدث حولنا عبر الصورة المتدفقة، وعبر الاقتصاد المرتدى رداء الرفاهية، وعبر "الكَنْتكَة" و"الجَكْسَنَة" ـ نسبةً إلى «الكنتاكى» و«مايكل جاكسون» فى تعبير «د. حامد عمار» أخيرًا ـ وعبر أشياء كثيرة تمضى فلا نحس بها، أن لدينا شخصيات تعانى على المستوى الفردى وليسوا أبطالاً أو نبلاء.. ويمضى فى هذا كله وتصب فيه عناصر العرض وشخصياته، فنحن لسنا أمام بطل درامى كما نعرف فى كلاسيكيات المسرح الإغريقى، وليس هناك واقع يحطم أمامنا الجدار الرابع كما حاول أن يفعل «بريخت» وأضرابه، كما أننا لسنا أمام هذه النصوص والفصول التى تُعرض فى "برودواى" فتقترب من المهزلة حينًا ومن الفارس الهائم حينًا آخر، إننا ـ وهو ما نكتشفه عبر الكوميديا

السوداء - أمام عرض مسرحى يقترب من عالم «كافكا»، حيث يحاكَم الإنسان لذنب لا يعرف ما هو، ويقع فى "قلعة" صماء لا يعرف أبوابها، ويعيش كابوسًا ثقيلاً لا يعرف فيه الذنب الذى جناه بقدر ما يعرف ويحس بوطأة هذا الكابوس ووحشيته.

ولنقترب أكثر من شخصياتنا..

منذ البداية، نحن أمام رجل وامرأة هنا فى الواقع.. وجهان لكائن واحد مُهَمَّش فى واقع يدفع بالرجل فى لحظة يأس إلى محاولة الانتحار. إنه يتأهب - برضاه التام - للخلاص من حياته، ومن المرأة - منذ البداية أيضًا - التى تتأهب لتشهد هذا الخلاص.. خلاصهما! وفى فترة الحيرة قبل الخلاص، تنفرط حبات الكلام ليتخلق حوار ثقيل، فإذا بنا أمام هذه المأساة. إن القهر لديهما يحاصَر بقُوَّى واحدة على المسرح رغم تعدد وجوه القهر (التى تأتى عبر الريكوردر)، وحيث تمضى الأحداث لنكتشف عبر المعاناة المستمر أننا لسنا أمام مأساة خاصة، أو حالة فردية، وإنما هو الرمز الذى يدل على الواقع.

ورويدًا رويدًا نكتشف أننا نخرج فجأة من قضية القهر الفردى إلى القهر الجمعى، وأننا لسنا إزاء القهر الداخلى الذى يتمثل فى الأب أو المدرس أو رجل الأمن، وإنما القضية أبعد من هذا.. إننا نقف أمام هذا القهر الذى يتمثل فى سادة العالم الجدد، أو بتعبير أدق: أمام سيد العالم الجديد.

إننا نكتشف - فجأة - عند لحظة انبثاق الوعى ما تخفيه هوجة العولمة.. العولمة كما نعرفها الآن فى الأدبيات السياسية التى نقرؤها ونسمع عنها فى كل مكان. ولا نريد أن نعيد ما قيل ويقال بشكل مستمر من مُنَظِّرى العولمة من أمثال «بريزنسكى» أو «هنتنجتون» أو «فوكوياما» وغيرهم، فما زال ما قالوه يتردد حتى الآن بوعى ودون وعى، ولا نريد أن نتحدث طويلاً عن

الاختلال الاقتصادى القائم بين الدول الكبرى ودول العالم الثالث، ولا نريد التركيز على آلية السوق التى لا تهتم بوهم "حقوق الإنسان" الذى يتردد كثيرًا، كما لا نريد أن نعيد الحديث عن عولمة الاقتصاد الرأسمالى العالمى، وهو ما يشترك فيه اليمين واليسار فى الغرب الآن. إن كل من يحاول التنظير للرأسمالية فى أوْج توحشها الآن يجسد حقيقة يسعى إليها الجميع الآن هناك فى ضرورة أن تؤدى الولايات المتحدة دورًا مهمًّا فى نشر الفهم الغربى لحقوق الإنسان من خلال الدبلوماسية والمساعدات، وحتى من خلال العمل العسكرى إذا لزم الأمر، وهو ما وجدنا له العديد من الأمثلة فى عالمنا التعس هذا، سواء بآليات العولمة التى نعرفها منذ الحرب العالمية الثانية حتى اليوم، أو بالشركات متعددة الجنسيات واتفاقية التجارة العالمية وصندوق النقد الدولى.. إلخ. نحن أمام هذا الرجل الذى يتحدث عنه باحث فرنسى فيقول ـ حين يذكر الخرافة السميثية (نسبة إلى «سميث») ـ مَن ذا الذى يؤمّن وجبة العاطل عن العمل، والمشرَّد والمهمَّش اجتماعيا؟.. فإذا ما خاطب العاطلُ عن العمل حبَّ الذات لدى الناس، فإن هذا المسكين سيعرض عليهم غسل سياراتهم مقابل قطعة نقد لن تؤمِّن له على الأرجح معاشه ولا معاش أسرته، إذا هو ارتكب هفوة وكَوَّن عائلة.. هل سيكون حظه أفضل لو توجه إلى مشاعر الأخوة الإنسانية لديهم (وهذا شىء غير أكيد ألبتة)؟.. فى الحالة الأولى ـ كما فى الحالة الأخرى ـ سيصبح واحدًا من الذين يتقاضون الحد الأدنى للأجور للاندماج فى مجتمع يفتقدون فيه أية شرعية اجتماعية، كما يفتقرون تمامًا إلى التمتع بحقوقهم فيه.. وسوف يجد ـ ولابد أنه واجد لديهم ـ من الوقاحة ما يؤكد على أن هؤلاء العاطلين عن العمل قد فعلوا ذلك طوعًا.. إلى غير ذلك.

فإذا خرجنا من التفصيل إلى الإيجاز، لعُدْنَا إلى المظاهر التى نجدها حولنا

جميعًا دون أن نسعى إليها، وهو ما يجعلنى أتذكر كيف تذكرت فجأة أننا أمام عنف العولمة، فى حين أن القهر الاجتماعى متمثلاً فى "البلطجى" أو "الفتوة" كان هو الخطاب الرئيسى الذى تسلل إلى!.. ربما ـ حاولتُ الإجابة ـ سَعَى المؤلف فى التعمية حين راح يربط بين عنف الأب وعنف البلطجى.. عنف المحلى وعنف الدولى.. عنف العالمى وعنف العولمة.

«يفتح الباب على سهوة:

ـ أبويا؟.. مين؟.. والدى؟.. آه!.. كان أول قلم سبّب ألم.. والحكمة كانت العِمَّة والعصايا.. عِمّة أبويا وعصايته هُمّا اللى ربونى وعلمونى المشى جنب الحيط عشان أصون قفاى.. فضلت أصون قفاى لحد ما بقى البلطجى يعدّى كل يوم يعمل لى صيانة على قفاى..».

هل هى حيلة حاول بها المخرج تجسيد هذا الواقع الشرس الجديد؟ أم قَصَدَ به الاثنين: عنف الأب وعنف العولمة معًا؟

إن من يحاول رصد الواقع الجديد الآن يصل إلى إجابة لهذا كله. إن السياسة الجديدة المعاصرة تمضى فى اتجاهين يلتقيان فى طريق واحد، الاتجاه الأول: أن هذه القوة الجديدة الآن تسعى لتأكيد أنها القوة الكبرى التى لا يجب أن تقف فى وجهها قُوّى أصغر أبدًا.. إنها تتخطى مجلس الأمن والمجتمع الدولى وكل التقاليد العالمية الآن لتصل إلى ما تريد، وهى تملك من وسائل القوة ما تسعى به لتأكيد قوتها "الرئيسية". إن سياسة السيد الجديد هى سياسة هذا "البلطجى"، وهى سياسة تسعى لرفض أية قوة تحاول أن تقف أمامها ندًّا لند، ومن هنا فهى تحاول بأدواتها وآلياتها أن تُضعف الحكومات الأخرى فى الدول الكثيرة حولها، ومن هنا فإن هذه الحكومة أو تلك فى هذا العالم، إما أن تكون تابعة لها وإما أن تكون هدفًا لها، ولا نريد هنا أن نكرر ما سبق أن قلناه أو ما نعرفه: إنها لا تستخدم فى هذا

الاقتصادَ وحدَهُ أو السياسة وحدها، وإنما الثقافة أيضًا.. إنها تحاول بهذه الثقافة أن تستكمل دائرة النفوذ، وهو ما يجعلنا نسمع كثيرًا فى الحقبة الأخيرة ـ بعد سقوط سور برلين ـ عن مهزلة "حقوق الإنسان" و"حق الأقليات" وما إلى ذلك مما يسهم فى تسييد الثقافة الغربية لتأكيد هذه القوة.

إن ما تسعى إليه العولمة الجديدة عبر هذا "الريكوردر" ـ الذى يعلو من آن لآخر ليهدد الرجل ـ هو محاولة أن تسود ثقافة العم «سام». وليس من المصادفة فى شىء أن يزيد الآن تيار الإعلام المُوَجَّه والأفلام الباهرة والأغانى ـ أو الموسيقا ـ الهابطة، وإشغالنا بظواهر لم نكن لنعرفها قبل التسعينيات، كمستشفيات الاستثمار والأحياء المرفهة!.. ولنستمع إلى المرأة وهى تَرْقِى زوجَها ببخور وتعاويذ ذاتية، فتقول ويدها تدور حول رأسه:

«رقيتك من الأغانى الهابطة ومن شر الناس المِلاَبْطَة..

ورقيتك واسترقيتك من الدروس الخصوصية اللى الحصة فيها بَقَتْ بمِية.

رقيتك من المجنونة الحمرا اللى يوم بخمسة جنيه ويوم بجنيه.

رقيتك من قانون الإسكان الجديد اللى يومين وتطلع بَرَّه.

رقيتك من مَستشفيات الاستثمار، تدخلها زَىّ الحصان وتخرج منها على حمار.

رقيتك من "دريم لاند" ومن حى الأشجار والسكرية والبستان والرحاب.

رقيتك من هوجة العولمة.. يا خوفى عليك من الخصخصة.

رقيتك من "كرانشى" ولَـمَّا يهِفَّكْ مزاجِكَ خَلِّيكْ "شِيبْسَاوِى" على طول.

رقيتك واسترقيتك من القلم.. ولا يحكّم فينا مَن ظلم.. انْسَى القلم».

وهنا تصل "هوجة" العولمة إلى منتهاها دون أن نشعر!

إن كل هذه الظواهر تبدو من النظرة الأولى ظواهر عادية، إذ نجد الكثيرين يستمعون إلى موسيقا واحدة، ويسعون إلى مطاعم وإعلانات باهرة وأفلام ماكرة، ويصعدون إلى مركبة واحدة (التيتانيك) حالمين ببهجة الطريق دون أن يعُوا نهاية الرحلة، فى حين لا ينظر أحد تحت أقدامه ليرى الضحايا، ولا ينظر أحد إلى بعيد ليرى ما سوف تؤدى إليه هوجة "العولمة". إن النهاية تُصنع هنا ـ فى هذا النص الدرامى ـ حين تتكون اليقظة بين محاولة الانتحار الأولى ونجاح المحاولة فى المرة الأخيرة، حيث ينجح المخرج فى تجسيد تيار الوعى أو اللاوعى داخل العرض وخارجه.

إنها "هوجة العولمة" داخل العرض وخارجه.. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

مثقف العولمة.. والأجناس الأدبية

كدت أعود إلى قضايا أخرى تأخذ بخُنَّاقِنا جميعًا، لولا أنه قد فُرضت علينا قضية أكثر خطورة، وهى قضية العولمة وعلاقاتها الثقافية والاجتماعية، وعلاقتها بالأجناس الأدبية بوجه خاص.

ويزيد من خطورة القضية، أن كل مَن تناول قضية العولمة ـ كما سنشير ـ لم يتنبه إلى أن الإنسان لا يستطيع مطلقًا أن يكتشف واقعه اليومى ووعيه الاجتماعى إلا عبر لغة إيديولوجية و"لغة شعرية" وإبداعية.

وزاد من تحمسنا لطرح القضية هنا، أننا نقيم اليوم ندوة بـ "الأهرام الدولى" تحاول الاقتراب من العولمة التى هى الحداثة وقد تطورت عبر أشكال معرفية وأدبية ضمن أشكال أخرى، ويشارك فيها عدد كبير من ثقاة العلماء والمثقفين.

ولنرجئ قضية الترجمة إلى قضية البحث عن العلاقة بين العولمة والأجناس الأدبية، وكلاهما ـ العولمة والأدب ـ من أهم القضايا التى لا يخلو منها بحث فلسفى أو اجتماعى فى الغرب اليوم، وهى من أهم القضايا التى تشكّل وجدان الإنسان بمعزل عن المعرفية الرأسمالية فى مستوياتها الأعلى والأشرس.

ولنتمهل أكثر عند هذه القضية قبل أن نصل إلى ما تثيره من تساؤلات.

(1)

لقد فرضت القضية نفسها لأنها ـ رغم طرحها النظرى فى الغرب طويلاً عبر مفاهيم الحداثة وما بعد الحداثة والتفكيكية.. وما إلى ذلك ـ مازالت تنام عندنا فى أدراج العزلة وعدم إدراك ما يحدث حولنا فى العالم المعاصر، وهو ما يعود بنا ثانيةً إلى العولمة والأجناس الأدبية.

أما العولمة، فقد زادت ندواتها ومداخلاتها حتى وصلت الآن إلى أكثر من ثلاثين ألف ندوة ومؤتمر ومداخلة.. إلخ، حسب إحصاء أحد المكاتب اليابانية فى فرنسا، ومن هنا فقد عرفنا الكثير من التعريفات والمداخل لهذا المفهوم.. "العولمة".

وربما كان آخر تعريف لها ما أورده «محمود أمين العالم» فى العدد الأخير من مجلة "قضايا فكرية" ـ عدد أكتوبر 1999 ـ حين قال إن مصطلح العولمة فى عصرنا الراهن هو تعبير عن ظاهرة تاريخية موضوعية.. تمثلت بدايةً فى ثقافة ـ بالمعنى الأنثروبولوجى ـ تخلقت وتشكلت من رحم الأنساق الإقطاعية فى أوروبا فى القرن السادس عشر، وهذه الثقافة تتسم بنمط إنتاجى هو نمط الإنتاج الرأسمالى الذى أخذ يمتد ويتوسع ويسُود حتى أصبح ليس مجرد حضارة غربية ـ كما يقال ـ بل حضارة عصرنا الراهن، وإن اختلف مستواها من مجتمع إلى آخر. إنها اليوم حضارة رأسمالية عالمية تعد

امتدادًا تاريخيا متطورًا ومتجاوزًا لمختلف الثقافات والحضارات الإنسانية السابقة، والتى لا تزال معالمها وآثارها باقية حية داخل نمطها الإنتاجى الرأسمالى الجديد.. ولهذا يتنوع هذا النمط الإنتاجى الرأسمالى بدوره بتنوع الثقافات التى يحتويها ويسيطر عليها، دون أن يلغيها تمامًا رغم سعيه إلى ذلك.. إلى غير ذلك من الطرح الذى يطرحه الأستاذ «العالم» فى أكثر من موضع فى كتاباته الأخيرة.

وهو ما يوافق عليه البعض حين يرى أن الفكر الكامن وراء العولمة هو الفكر البراجماتى النفعى الإلهائى.. ولكن يزاحمه الآن، ويقف خلفه فى وعى العقول الغربية المفكرة، المذهب "ما بعد الحداثى" الذى يتضمن - من بين ما يتضمن - البُعْد التفكيكى التدميرى.

أما الأجناس الأدبية، فمعروف أن الجنس الأدبى هو النوع الذى يعرف به الأثر الأدبى (كالمسرحية والرواية والشعر.. إلخ)، وتطوُّر هذا المفهوم فى الغرب معروفٌ منذ القرن الثامن عشر حين تَمَيَّزَ كل نوع عن غيره بِقواعده وسماته، وما لحق بهذا من تطور حين حاول ذلك الناقد الفرنسى «برونتير Brunetiere»، ثم ما ارتبط بهذا كله فى القرن العشرين من إعادة الفصل بين هذه الأجناس، أو الوصل بينها فى جماعات ومفاهيم كثيرة.

وكما أن مفاهيم العولمة المتغايرة لا تجعلنا نتمسك بتفسير شكلى بعينه، كذلك فإن التطور الأدبى يجعلنا لا نتمسك بشكل معين تنتهى إليه الأجناس الأدبية، خاصة فى عالمنا الثالث حين تضعنا الثنائية بين العولمة والأجناس الأدبية بشكل مباشر - نحن المحسوبين على دول الجنوب المتخلف - فى خلفية المشهد الفكرى المعاصر فى علاقته بالمجتمع خاصةً. إذن دعونا نرجئ الخلاف حول المفاهيم إلى العلاقة بينهما.

إننا أمام قضايا كثيرة يثيرها هذا الطرح، خاصة فى نهاية التسعينيات من القرن الفائت.

نحن أمام قضايا خلافية كثيرة، وتعريفات ونظريات من مثل: قضية الحداثة، وصدمة الثقافة الجديدة، و"ما بعد الحداثة"، و"الهرمنيوطيقا"، وخطاب الـ "ما بعد"، وثنائية الزمن.. وما إلى ذلك مما يطرحه فلاسفة الغرب الآن من عناصر الحكاية والزمن واللغة (انظر فى هذا: دراسة مهمة لـ «منى طلبة» بعنوان: "مفهوم الحكاية ما بين «ليوتار» و«ريكو»: وجهتا نظر لما بعد الحداثة" ـ مجلة "قضايا فكرية").

والعولمة هنا ترتبط بالحداثة التى تكاد تكون تعبيرًا إيديولوجيا عن هذه المرحلة من العولمة الرأسمالية، وهى معركة تتوقف عند الأجناس الأدبية ومجالات النقد الأدبى والاجتماعى والفنى والمعمارى والسياسى والاقتصادى. ويلاحظ أكثر من مثقف عربى هنا أن الدفاع عن الحداثة والعقلانية والعلمانية والتاريخية فى عصرنا ليس رِدَّة إلى البدايات الأولى لنشأة الرأسمالية، وإنما يتضمن نقدًا للعولمة الرأسمالية وجهدًا فكريا لتجاوزها. على أن الدفاع عما بعد الحداثة يكاد يعد رِدَّة فكرية إلى ما قبل الحداثة، وهو ما يحتاج إلى مناقشات طويلة.

على أن قضية العولمة وعلاقتها بالأجناس الأدبية تقترب بنا من قضايا كثيرة، منها:

ـ الترجمة ـ الصورة ـ التناص ـ اللغة ـ النقد ـ السير الذاتية ـ تداعيات النهضة ـ وما يسمى بـ "الحساسية الجديدة".

وقبل أن أستطرد أكثر، أحب أن أسجل ملاحظة مهمة قد تفيدنا فى هذا السياق، وهى أننا إذا حاولنا رصد العولمة وتأثيرها فى الأدب عندنا، يمكن أن نرصدها منذ الثمانينيات وليس ـ كما هو شائع ـ منذ بدايات التسعينيات؛

ففى هذا العقد ـ الثمانينيات ـ كان من السهل للمدقِّق فى حركة الأدب العربى أن يلحظ إعادة صياغة مراحل الإمبريالية فى طور يتعدى نشأة الرأسمالية الغربية إلى نمط رأسمالى متطور من التوسع إلى الاحتكار إلى التركيز فى أشكال رأسمالية جديدة لا تجاوز شكل الاحتكارات الكبرى داخل عدة إرهاصات تغريبية بدت فى الثمانينيات فى شكلها المتنامى، وتصاعدت إلى أقصى ذروة لها منذ انهيار الاتحاد السوفييتى وسقوط سور برلين وقصف بغداد.. إلخ.

ويجب الإسراع هنا بالقول: إن الإبداع العربى ـ وإنْ شهد بعض الاستثناءات فى الثمانينيات ـ ما لبث أن شهد تجليات أبعد فى أجناسها فى الوطن العربى؛ ففى الرواية المصرية ـ على سبيل المثال ـ عرفنا روايتى «صنع الله إبراهيم»: "ذات" و"شرف"، وهو ما وجدناه بشكلٍ مًّا فى المسرح وتجاريبه التى خُصصت لها مواسم كثيرة ومهرجانات متكررة فى مصر، ثم فى الشِّعْر الذى وجد له فى مصر منذ الثمانينيات إرهاصات ومحاولات وتجليات كثيرة لا يمكن أن نعدم فيها بعض التأثرات بالصور الحداثية فى عصر العولمة، وهو ما يقترب بنا ـ كما سنرى ـ من ظواهر التأثر بالعولمة وبداياتها.

بيد أننا نرجئ هذا كله حتى تتضح الصورة أكثر حالَ التمهل أكثر عند العلاقة بين الاثنين: العولمة، والأنواع الأدبية.. وهى علاقة لا تخرج عن التأثير فى المجال الاجتماعى.. أكثر مجالات العولمة تأثيرًا وفعالية فى نهاية الألفية الثانية. ولنحاول الوصول إلى فهم أكثر وضوحًا عبر تساؤلات تطرح نفسها بعنف فى هذا الصدد. فَلْنَرَ هذه الأسئلة قبل أن نفرغ إلى ما تثيره مرة أخرى. وبعيدًا عن الإسهاب، نكتفى هنا بالأسئلة التى تُخْتَتَم بها ورقة العمل التى بين أيدى السادة المدعوين الآن، وهى أسئلة ـ فيما نعتقد ـ تمثل نصف الإجابات لو أُحسنت صياغتها.. من ذلك:

ـ هل استوعب الأدب العربى التغييرات المعاصرة من الحداثة وما بعد الحداثة وما إلى ذلك من المفاهيم؟

ـ وهل أدى الدخول فى عصر العولمة إلى بروز أجناس أدبية وهبوط أخرى تلبيةً للمخططات التى يحتاجها عصر العولمة؟

الإجابة بهذا الشَّرْط تحتم علينا أن نعود إلى ظواهره فى الحَكْى والمسرح ولغة الشعر وطرائقه الجديدة.

أما عدم الإجابة فيشير إلى أننا ما زلنا نعيش فى النمط المعرفى الحكائى (الأسطورى) القديم، أو على أحسن تقدير: نمط عصر الحكاية، الذى يطلق عليه فى عصر الحداثة "النمط المعرفى ـ الميتا حكائى".

ثم نبدأ بإجابة يعقبها سؤال آخر..

الإجابة هى أن بعض الأعمال ـ وهى نادرة عندنا ـ اتجهت إلى هذا النمط المعرفى "ما بعد الحداثى" وعملت فيه، فكيف ـ هنا يجىء السؤال ـ كيف انعكس هذا الأدب فى نهاية الألفية الثانية؟

ـ هل يعى العقل "الأدبى" العربى ما تسعى إليه المجتمعات الغربية ـ "ما بعد الحداثية" ـ اليوم من امتصاص لعقول وأموال مجتمعاتنا "الحكائية" لحساب المجتمعات "العلمية" فى الغرب؟

ربما تمثلت العقول فضلاً عن العقول العلمية العقول الأدبية هناك وما أكثرها ـ والأموال حين تصل العولمة ـ فى تصور الحداثة ـ إلى أنها تطور عال من الرأسمالية الاحتكارية.

ـ إلى متى يظل الجنوب ـ وعالمنا الثالث فيه ـ فى حالة تأرجح بين التراث والحداثة وما بعد الحداثة فى أحسن الأحوال؟

وبعد.. فهذه جملة من التساؤلات التى تحتاج إلى إجابات كثيرة وواعية ننتظر أن يصل إليها مثقفونا، ونحسب أننا واجدون لديهم الكثير.

حوار الاستشراق.. أم حوار المناهج؟

أولاً

رغم مضى قرون طويلة على البدايات الأولى للاستشراق، فإن مجرد إعادته إلى الأذهان، وإنْ يكن على شكل "حوار"، فإنه يثير فينا أسئلة كثيرة وعميقة قد تصعب الإجابة عليها.. خاصة أن كل مَن يرصد بدايات الاستشراق يلحظ هذا الشك، وذلك التشويه، الذى يتصاعد مع الوقت ليوسَم به عدد كبير من المستشرقين.

فعلى الرغم من أن الاستشراق فى بدايته كان يمثل حركة ذات صبغة علمية وأهداف دينية، وبرغم أن عددًا من المستشرقين سَعَوْا إلى الناحية العلمية، فإن التوجه العلمى ما لبث أن أظهر اهتمامًا مريبًا يتعلق مرة بالسياسة ومرة بالدين ومرات بأهداف تنتمى إلى سياسات الدول الأوروبية فى فترة تكوُّن الرأسمالية الغربية وتطورها فيما بعد.

ويزيد من هذه الأسئلة المريبة، خاصةً فى المجال الدينى، ما لوحظ من أن العربية دُرست أول ما دُرست فى أديرة الرهبان، وكان القرآن الكريم أول عمل توفروا عليه، وما لبث تاريخ الاستشراق أن أشار إلى مزيد من الأسئلة المريبة.

ونحب أن نسارع بالقول: إن عددًا من المستشرقين كانت لهم أدوار إيجابية، لكننا فى الوقت نفسه لم نَنْسَ بعدُ أن الحكومات الرأسمالية سعت إلى استقطاب أصحاب هذا النشاط، وعديد من المراجع تشير ـ على سبيل المثال ـ إلى أن «أنتونى إيدن» ـ وهو مَن هو ـ كان لا يتخذ قرارًا سياسيا يتعلق ببلادنا إلا بعد أن يجمع عددًا من المستشرقين الإنجليز فى جلسة خاصة ويستمع إليهم، وهو ما يحدث بشكلٍ مَّا لدى العديد من المسئولين

الأوروبيين اليوم قبل اتخاذ قرار جديد، خاصة بعد أن ترسخت أقسام الشرق فى وزارات الخارجية، وبعد أن تعمقت أدوارهم فى دوائر مخابراتية، وبعد أن تبلورت الأمور أكثر إلى علم اسمه "الاستشراق الجديد" يلقى بجهده ـ فى الغالب ـ فى أوراق صاحب القرار السياسى!

هذه مقدمة جَهدْنا ألا نكون مغالين فيها، قبل أن نصل إلى الكتاب الذى صدر أخيرًا لـ «أحمد الشيخ» بعنوان "حوار الاستشراق".

والملاحظة التى يستطيع القارئ الفرار منها بعد قراءة الكتاب، أن الكاتب لم يكن متشددًا ضد المستشرقين، كما هو شائع فى ثقافتنا، بل جاءت بعض حواراته أقرب إلى الدفاع عن المستشرقين، كما التمس "الحوارَ" وسيلةً هادئةً وواعيةً للتعرف على رموز الاستشراق الذى بين أيدينا من أمثال «جاك بيرك» و«مكسيم رودنسون» و«روجيه أرنالديز» و«أندريه ميكيل» و«دومينيك شوفاليه»، مرورًا بـ «فرانسوا بورجا» و«أوليفييه كاريه» و«بيير تييه»، وصولاً إلى أحدث تيار فى هذا الصدد من تيار الاستشراق الجديد، ومنهم مَن عرفتُهُ بشكل شخصى فى القاهرة كت «ريشارد جاكمو» و«آلان روسيون» والصديق «لوك باربليسكو».. وغيرهم.

ورغم هذا كله، فإن الكتاب يضعنا عبر "حواراته" الواعية أمام أسئلة عديدة لا نستطيع الفرار منها. ولنتمهل أمام بعض هذه التساؤلات..

(2)

إن أول شخصية يعرض لها الحوار، شخصية المستشرق الفرنسى المعروف «جاك بيرك».

وبزغم أن الدائرة التى ركز عليها «أحمد الشيخ» امتدت إلى مساحات

بعيدة فى "عالم الاستشراق" عند «بيرك»، فإن قضية ترجمة معانى القرآن فرضت نفسها فرضًا.

لقد أثارت غضب الكثيرين فى بداية التسعينيات حين صدرت لأول مرة، واتخذ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى مصر موقفًا حادًّا منها، وهو ما يضع ظلالاً من الشك على هذه الترجمة، مَهْمَا يكن دفاع «جاك بيرك» عن ترجمته.

لقد طرح المُحَاوِر أسئلة تتعلق بترجمة معانى القرآن، وحاول «جاك بيرك» أن يجيب عنها..

بَيدَ أن الإجابة لم تصل فى توفيقها إلى درجة طرح الأسئلة التى كانت تعبّر عن غضب عدد كبير من المثقفين المصريين فى ذلك الوقت.

إن ترجمة المستشرق الفرنسى ـ مَهْمَا يكن دفاعه أو دفاع غيره ـ ليست بريئة أبدًا، وإنما هو سوء فهم ملتبس بحسن النية، ونستطيع أن نفسر ذلك بأن لـ «جاك بيرك» "مرجعية" تُغَاير المرجعية العربية الإسلامية، كما أن منهجه "الفيلولوجى" والاجتماعى والتاريخى.. إلخ لا يحُولُ دون زرع الشك فى ترجمة المعانى. وفى أحسن الأحوال، نستطيع أن نقلل من النقد الموجه إلى «جاك بيرك»، خاصةً أن المرجعية المحايدة ـ بالتبعية ـ تذكر لنا أن المراجع التاريخية تذكر أن أول ترجمة للقرآن الكريم باللغات الأوروبية كانت باللاتينية، وقد تمت بإيعاز وإشراف رئيس دير كلونى بجنوب فرنسا، الراهب «بطرس».. وتُرجمت على يد الراهب «روبرت»، وراهب ألمانى آخر يدعى «هرمان» ـ كما تذكر المصادر فى هذا الصدد.

وتتداعى الأسئلة:

ـ برغم دفاع «جاك بيرك»، هل كانت هذه الترجمة ـ بالفعل ـ تخلو من سوء نية؟

ولأن «أحمد الشيخ» لم يكن محاورًا من طرف واحد، أوْ محاورًا تقليديا، فإنه كان يملك الأسئلة العميقة التىَ تحمل استفهامًا يقترب من الإجابات.

بَيدَ أن هذا يعود ليطرح أسئلة أخرى تظل معلقة. انظر على سبيل المثال حين يسأل «جاك بيرك» فيقول:

ـ ألا تعتقد أن استخدام مناهج العلوم الاجتماعية المعاصرة قد يكون المسئول عن سوء الفهم السائد فى الدراسات الاستشراقية؟

ويكمل السؤال بسؤال آخر مباشرة:

ـ وهل تعتقدون أن مناهج العلوم الاجتماعية المعاصرة يمكن تطبيقها على كل المجتمعات، وكل الثقافات المختلفة، بنفس الدرجة التى تطبَّق بها فى مجتمع غربى؟ بمعنى آخر: عندما ندرس النص القرآنى من خلال الألسنية كما يفعل «محمد أركون» ـ على سبيل المثال ـ هل يؤدى ذلك لفهم حقيقى وأعمق لجوهر هذا النص، أم يؤدى إلى النقيض من ذلك؟

وتغادر الأسئلةُ الكثيرةُ دائرةَ ترجمة المقدَّس لتعود إليها فى عديد من المحاور التى يتوقف عندها ـ وبها ـ المحاور.. ويظل محور الشك أهم محاور الموقف من المستشرقين.

(3)

إننا حين نصل إلى مستشرق آخر مثل «روجيه أرنالديز» الذى غلبت على أعماله السمة الدينية [وعلى سبيل المثال: "القرآن دليل قراءة" (1983)، و"جوانب من الفكر الإسلامى" (1987)]، نجد المحاور يطوى هذه الأسئلة ويضمِرُها قبل أن يتوجه إليه. إن دائرة الحيرة دائمًا تُدْخِلُنا فى رحابها. نقرأ:

ـ كيف ينْظَر إلى النقد المتصاعد، من اتجاهات شتى، ضد المستشرقين ونياتهم وإنتاجهم؟

ثم:

ـ لكن مسألة المناهج العلمية تثير حفيظة البعض، خاصةً عندما تُستخدم بطريقة لا تؤدى إلى فهم دقيق لمغزى النص القرآنى. ألا تعتقد أنه ـ فى مثل هذه الحالة ـ لابد من استخدام مناهج وطرق معالجة تنبع من ثقافة النص، أو ـ على الأقل ـ تكون متوائمة مع مقوماته الرئيسية؟

وحين يستطرد فى الإجابة، يكون علينا أن نعيد صياغة إجابته فى سؤال جديد:

ـ الألسنيات المعاصرة هى ما يهمنا، وكذلك المناهج الهرمنيوطيقية والنفسية والاجتماعية والتاريخية فى صورها المعاصرة، والتى تفضى عند تطبيقها ـ بوصفها مناهج علمية عابرة للقارات والثقافات ـ إلى سوء فهم، وكأنه لا فرق بين باحث فرنسى وآخر عربى فى موضوعات تتعلق بتاريخ ثقافات ونصوصٍ مؤسِّسة لهذه الثقافات التى تتقابل وتتفارق وتتصادم فى أحيان كثيرة؟

وحين نصل إلى «أندريه ميكيل»، يكون السؤال قد تبلور إلى سؤال آخر ـ فيما يشبه الإجابة المتضمنة ـ من أن هناك محاولات مكمِّلة لبعضها، خاصةً فى مجال المنهج. ونعود إلى سؤال يطرح نفسه على هذا النحو:

ـ مع الإقرار بهذا، فهناك الاستخدام السياسى لهذه الأبحاث.. و.. بعض هذه الأبحاث ليست مؤسسةً بصورة علمية دقيقة، وتفوح منها أحيانًا روائح عداء صريحة ليست لها صلة بالعلم أو الموضوعية!

ويكون على «ميكيل» أن يعترف بأن الاستخدام السياسى ظاهرة موجودة ولا يمكن تجاهلها. «لكن... »، ويستطرد فى الإجابة التى نوشك أن نرى فيها جانبًا لا يخلو من شك صريح، وهو ما لم يخْفِهِ المستشرقون

أنفسهم، مضيفين ـ ولهم حق فى ذلك ـ «لماذا لا نجد من بينكم ـ أنتم العرب ـ من يحاول القيام بهذه الجهود؟».

وحين نصل إلى «جان بول شارنيه» ـ وهو مستشرق آخر يرفض كبقية زملائه أن يطلق عليه لفظة مستشرق ـ نجده يجيب عن سؤال المناهج إجابة تحمل سمة التساؤل المريح. إن المُحاوِر يسأله:

ـ هل تعتقد أن تطبيق المناهج الحديثة قد يحمل بذورًا للتشويه أيضًا، فيما يتعلق بالثقافات غير الغربية؟

نجد المستشرق الذى عاش فى الجزائر فترات طويلة، ويكتب كتابات إسلامية غزيرة، يرى أن الغربيين لم يفكروا ـ على حد قوله ـ فى قضايا المناهج الحديثة، ويضيف:

ـ هذا هو النقد الأساسى الذى يمكن أن أطرحه فى هذه اللحظة، و..

ويكون علينا أن نمر على «شارنيه» و«شوفاليه» و«بورجا» و«لاكوست» وغيرهم، حتى نصل إلى مؤرخ فرنسى آخر ـ وهو «جاك توبى» ـ حيث تتكاثر لديه الأسئلة التى تتحول إلى إجابات، ولا تلبث أن تتحول إلى أسئلة أخرى تشبه الإجابات حين يستفيض فى استخدام المناهج، وما يمكن أن تؤدى إليه من شك وتشويه حين لا تُستخدم الاستخدام المتوائم والمتوافق مع المادة التاريخية والدينية التى بين أيدينا.

لم يكن علينا أن نترك "حواز الاستشراق" قبل أن نعاود قراءة مقدمة «أحمد الشيخ» الذى يقول فى وضوح شديد:

ـ إن السمة البارزة لأجيال هذا الاستشراق الجديد هى نزوعهم نحو مناهج العلوم الإنسانية الحديثة، ومحاولة تطبيقها فى دراسة نصوص وظواهر وتاريخ المجتمعات العربية والإسلامية.

وينتهى الحوار.. ولا تنتهى الأسئلة المعلقة.

ثانيًا

ما زالت القضية تثير ردود أفعال كثيرة..

فعَقِبَ عرض قضية استخدام المستشرقين للمناهج العلمية ومحاولة تطبيقها فى دراسة نصوص وظواهر وتاريخ المجتمعات الإسلامية (ونحن نقرأ كتاب «أحمد الشيخ» حول "حوار الاستشراق")، جاءتنا ردود أفعال كثيرة بين مُعارِض ومُعاضِد.. وما لفت نظرى أكثر، أن المعارض أو المعاضد يتناول القضية فى شيء من الحدة، وبطريقة الأحكام القاطعة، فإما أن المستشرقين متحاملون وعملاء لدوائر مخابراتية، وإما أنهم نبلاء علماء يستخدمون المنهج العلمى ويميلون إلينا.

وفى الحالتين احترت كثيرًا، إذ كيف أتعامل مع قضية طرفا النقيض فيها لا يتعامل أىٌّ منهما بحَيدَة، خاصةً إذا تعلق الأمر بتراثنا ونصوصنا المقدسة؟ ولم يطُلْ تَحَيرى، فهو هو ما يحدث اليوم كلما عرضنا لخلاف بسيط فى أية قضية.

على أننى قد وجدتُ ضالتى فى رسالة واحدة، كُتب فى نهايتها ـ بتواضع شديد ـ اسم «د. مصطفى ماهر»، فشيخ المترجمين عن الألمان كان واعيا أشد الوعى بالقضية (المرجعيات والاستخدام العلمى للمنهج)، فراح يعرض لنا هذا كله بشكل جعلنا نتمهل عنده أكثر من غيره.

وأكثر ما لوحظ فى رسالة الأستاذ الدكتور «مصطفى ماهر» أنه عاد إلى تاريخنا، مشدِّدًا منذ البداية على أن التعامل أولاً مع النصوص الدينية، ثم ـ بعد ذلك ـ مع النصوص اللغوية والأدبية على المستوى الدقيق معرفيا وعلميا ومنهجيا، بدأ فى عالمنا الإسلامى مبكرًا، ولم ينتظر إلى أن يأتى

اليـوم الذى تنشأ فيه الجامعات لتتخذ صورة المؤسسة البحثية التعليمية المتخصصة. وإذا كنا بحـق نفخـر بأن جامعـة الأزهر سبقت الجامعات الأوروبية بقرون عديدة، فلا ينبغى أن نغفل عن الجامعات الأولى صاحبة الفكر والمنهج.

ورغم أن «د. مصطفى ماهر» قد أسهب طويلاً فى التدليل على سبقنا إلى هذه المناهج التى تُستخدم، فإنه ما لبث أن عاد إلى الحاضر مركِّزًا على المدرسة الألمانية (حيث الخبرة والدراسة كما يردد)، مشيرًا ـ فى إطار المناهج أيضًا ـ إلى جذور التخطيط الذى شمل الدعاية الدينية المُغْرِضَة التى استهدفت الإسلام وانعكست على الموقف السلبى من الترجمات الزائفة لمعانى القرآن، وما لبث أن عاد إلى مدرسة أخرى معاصرة اتسمت بالبحث العلمى والحيدة.

ولْنُشِرْ إلى بعض ما جاء فى رسالته قبل أن نتمهل عند قضية المناهج التى كانت محورنا الأساسى منذ البداية.

ـ نقرأ من رسالته النص التالى الذى أرسل به إلينا، يقول:

«إلى...

على الرغم من أن الاستشراق تطور كثيرًا فى القرن الثامن عشر، وانفصل ـ على الأقل اسميا ـ عن العمل التبشيرى، إلا أن المستشرقين كانوا كثيرًا ما يدخلون الاستشراق الإسلامى من باب اللاهوت المسيحى أو اللغة العبرية وثقافتها، بل إننا فى القرن الثامن عشر نجد مستشرقًا محبًّا للثقافات العربية والتركية والفارسية ـ مثل «يوزف فون هامر بورجشتال» ـ لا يستطيع أن يمنع لسانه عن البذاءة عند الحديث عن نبينا الكريم ﷺ.

ولا يمكننا أن نترك القرن التاسع عشر دون أن نذكر «فريدريش روكرت» الذى تكتب عنه حاليًا تلميذتى الموهوبة رسالة ماجستير تشمل

فيها تفصيلاً منهاجه فى ترجمة مقامات «الحريرى». لهذا الشاعر المترجم الفذ ترجمة للقرآن الكريم تتسم بسمات أسلوبية رائعة، تجعل لها قيمة كبيرة من ناحية الاهتمام بالشكل الذى ربما طغى على الاهتمام الممكن بالمعنى، ولكنها لفتت نظر القارئ الألمانى على نحوٍ مًا إلى جماليات الأسلوب القرآنى الذى يعجز البشر عن الإحاطة به والتعبير عنه بلغة غير اللسان العربى المبين.

ويكشف عالِم الاستشراق الموضوعى «رودى باريت» فى كتابه "الدراسات العربية والإسلامية فى الجامعات الألمانية"، الذى ترجمْتُهُ فى عام 1967، عن تواطؤ بعض المستشرقين مع النازية. كما نقرأ فى دراساتٍ ترجمْتُها ونشرْتُها فى كتاب كبير هو "ألمانيا والعالم العربى" (بيروت، 1974) عن توجهات مَشُوبَة بشوائب سياسية لم يَخْلُ منها الاستشراق فى عصر المد الاستعمارى.. والتاريخ يقوم على وثائق وشواهد وتحليلات لا يمكن تغييرها، فما حدث لا سبيل إلى جَعْله لم يحدث، ولا معنى لتجاهله. ومن البديهى أن التراكمات التاريخية القديمة التى يرفضها علماء الحاضر تمثل مشكلة تتطلب معالجة متوازنة.

ويلزِمُنَا واجب الإنصاف بألاَّ نُصْدِرَ أحكامًا عامةً شاملةً جامعةً لا تُفَرِّق بين الصالح والطالح، كما يلزمنا بأن نُقِرَّ عن خبرة ودراسة بأن الاستشراق فى ألمانيا، وفى أوروبا الغربية التى أعرفها (ومعرفتى محدودة بالاستشراق خارج دائرة أوروبا الغربية مثل روسيا والولايات المتحدة الأمريكية) يحترم فى عصرنا هذا حدود الالتزام العلمى، وجهود المستشرقين فى نشر الطبعات المحقَّقة، وفى تأكيد عالمية الثقافة العربية الإسلامية، وفى تنبيهنا إلى جوانب تَخْفَى علينا، وفى تطبيق أساليب العلوم الحديثة، جهود تستحق الاحترام.

ونحن لدينا ـ أو ينبغى أن تكون لدينا ـ القدرة على الرد، وقَرْع الحُجَّة بالحُجَّة، وأن نَلْزَمَ جانب الحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتى هى

أحسن. وكتاب «العقاد» "حقائق الإسلام وأباطيل خصومه" مَثَل من أمثلة كثيرة على الرد على ما لا نَرْضَى عنه. ويمكن أن أذكر فى هذا الصدد ترجمتى لمعانى القرآن الكريم إلى الألمانية اعتمادًا على "المنتخب من التفاسير"، وهى التى نشرَتْها وزارة الأوقاف والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية مع مقدمة بقلم شيخ الأزهر، صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور «محمد سيد طنطاوى»، ومقدمة أخرى بقلم وزير الأوقاف الأستاذ الدكتور «محمود حمدى زقزوق»، قُـدمت إلى السـيد رئيـس الجمـهورية فـى الاحتفال بليلة القـدر فـى عام 1420 هـ/ 1999 م.

وعلينا أن نلاحظ أن هناك فرقًا أساسيا فى تعاملى مع القرآن الكريم، وهو تعامل المسلم المؤمن مع نصٍّ هو الصدق الذى لا ريب فيه.. نص له الحرمة كل الحرمة.. ولكنَّ غير المسلم لا يتخذ من النص هذا الموقف، وأقول "غير المسلم" لأن المستشرقين منهم المسلمون ومنهم غير المسلمين.

والناظر إلى ما تخرجه المطابع فى العالم فى تخصصات الإسلاميات، وفى ترجمات معانى القرآن الكريم، سيلاحظ اهتمامًا متعاظمًا يدل على أن كثيرًا من المثقفين فى العالم ممن لا يدِينُونَ بالإسلام يعتبرون الإسلام جزءًا من ثقافتهم العالمية الإنسانية، يقرءون ما يكتب عنه إذا كانوا من القراء المنفتحين على العالم والثقافة الإنسانية، ويكتبون عنه إذا كان لديهم ما يكتبونه، ومنهم من يحبون ثقافتنا أشد الحب، ومنهم من هم دون ذلك.

وقد كسب الحوار بين الأديان أرضًا، وأصبح أنصاره يتزايدون، وأصبح من المتصوَّر والمأمول ـ وقد بلغت بنا الثقافة الألفية السابعة بحساب حضارة مصر، والألفية الثالثة بحساب ميلاد المسيح.. عليه وعلى نبينا وعلى أنبياء الله جميعًا أزكى السلام ـ أن يتقارب الناس وأن يتعارفوا على خير ما يكون التعارف.

وهذه ترجمة «ماكس هيننج» للقرآن الكريم تخلو فى طبعتها الجديدة (لدى دار النشر "ريكلام" فى شتوتجارت) من مقدمتها القديمة القبيحة، وتتحلى بمقدمة كريمة كتبتها المستشرقة «آن مارى شيمل» المعروفة بحبها الشديد للإسلام وثقافاته، واشتغالها المتعمق بالتصوف. ولهذه الترجمة طبعة أخرى لدى دار النشر "ريكلام" فى لايبتسيج، ما زالت تحتفظ بالعديد من الملحوظات السخيفة. وهذه هى ترجمة «عادل خورى» ـ المستشرق الألمانى، اللبنانى الأصل ـ للقرآن يشترك معه فيها علنًا زميل مسلم هو «محمد سالم عبد الله» (الطبعة الثانية، 1992). والثقاة ممن ترجموا القرآن الكريم من المستشرقين ـ من أمثال «رودى بارت» ـ رجعوا إلى المراجع الإسلامية ما استطاعوا إلى ذلك من سبيل، واستشاروا مَن استشاروا من علماء المسلمين. ولم يعُدْ من المتصوَّر أن تخرج ترجمة للقرآن تقوم على سوء النية.

ويقينى أن ترجمات معانى القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية ستتعدد، وستشهد ازدهارًا محمودًا، كما تتعدد وتزدهر تفاسير القرآن الكريم

د. مصطفى ماهر»

وتنتهى رسالة «د. مصطفى ماهر»، ويبقى المعنى الأخير قائمًا، قابلاً للجدل.. فمع أننا نرى معه أن من غير المتصوَّر أن تخرج ترجمة لمعانى القرآن الكريم تقوم على سوء النية، فإننا نعرف أن هناك ترجمات يوجد فيها سوء النية كثيرًا، أشار إلى بعضها «جاك بيرك» نفسه حين ذكر أن هناك ترجمتين أخيرتين غير دقيقتين ـ أو نزيهتين ـ مثل ترجمة الإسرائيلى «أندريه شوراكى» و«رينيه خوام»، ثم هناك ما كتبه «كلود جبليو» تحت مادة "قرآن" فى الموسوعة العالمية، وما كتبه آخرون فى الموسوعة البريطانية، وما تمتلئ به مجلات الاستشراق من هجوم على الإسلام ونبيه الكريم (وهو ما قاله «بيرك» فى حديثه للصديق «سعيد اللاوندى» بالأهرام فى حينه).

ومع أن سوء النية قائم، فإن سوء القصد الملتبس بحسن النية يظل قائمًا أيضًا، فهناك مَن لا نستطيع أن نتهمه بسوء النية صراحةً دون تمهُّل، مثل «جاك بيرك» نفسه فى ترجمته لمعانى القرآن الكريم فى بداية التسعينيات. وهنا تقفز لدينا ثانية قضية المناهج، فنحن نجزم بحسن النية عند «جاك بيرك»، لكننا لا نستطيع أن نغفل فى هذا الصدد، أن هذا المترجم المعاصر قد وقع فى إسار قواعد علم الفيلولوجيا مثلاً فى ترجمته، فى حين أن لغة القرآن الكريم يحكمها منطق آخر يسميه «محمد أركون» "منطق الإيمان"، ويقصد به التوفيق أو التعديل.. وما إلى ذلك مما لا يستطيع أن تنجو منه ترجمة «جاك بيرك».. وفى الوقت نفسه، لا نستطيع أن نتهمه بسوء النية وحَسْب، ولا نعتقد أن المدرسة الألمانية المعاصرة تختلف عن العديد من المدارس فى أوروبا الغربية.

وهذا ما يعيد إلينا ـ أو يعيدنا ثانيةً ـ إلى هذا الخلاف بين المفسِّر القديم والمفسِّر الفيلولوجى الحديث على سبيل المثال.

إنها قضية المناهج.. لا تزال معلقة..

والقضية ما زالت تثير ردود أفعال كثيرة!

حوار الاستشراق.. فى عَمَّان

ثالثًا

كدت أستكمل ما سبق أن بدأناه هنا عن "حوار المستشرقين" وما أثاره من ردود أفعال، لولا أننى اكتشفت ـ إبان مشاركتى فى مؤتمر عَمّان بالأردن الذى عُقد فى الجامعة ـ أن هناك نمطًا آخر مختلفًا، وإن يكن فى الشكل فقط، عن المستشرق الغربى كما عرفناه بوجهه السلبى (من قَبِيل التكرار أن نذكر أن هناك مستشرقًا غربيا آخر له وجه إيجابى) هو ما عثرنا عليه فى هذا المؤتمر.

المؤتمر أقيم بالجامعة الأردنية تحت عنوان "العلاقات العربية الأمريكية ـ نحو مستقبل مشرق"، وشارك فيه عدد كبير من الباحثين العرب والأمريكيين، وتولت جهات أمريكية ـ إلى جانب جهات عربية كثيرة ـ تمويله، مثل السفارة الأمريكية، ومكتب «فولبرايت»، فضلاً عن جامعة "بريجهام يونج"، وأشرف على تنظيمه باجتهاد شديد منذ اليوم الأول «سامى خصاونة».

كان أكثر ما لفت نظرى فيه، صورةُ الباحث العربى الذى يتحول رويدًا رويدًا ـ فى مثل هذا المؤتمر وخارجه ـ إلى نمط جديد من المثقفين الذين أصبحوا ينتمون إلى فكر الآخر فى عديد من السمات التى تَـرُوج فى عصر "العولمة"، فالمصطلح هنا "المستشرق العربى" جديد تمامًا فى طرحه، لكنه ليس جديدًا فى تطوره وتطويره عبر السنوات الأخيرة ـ خاصة من التسعينيات ـ حيث أصبحنا أمام مثل هذا المثقف الذى ينتمى إلى وجهة نظر الغرب، ويغرق فى قضايا تُلْقِى فى تيار الآخر (والآخر هنا هو الأمريكى) بما يلفت النظر بشدة.

وعلى الرغم من أن هذا المؤتمر قد توفرت له سُبُل النجاح فى القيام والاستمرار، فإنه كان من السهل أن نلحظ فيه تبلور هذا النمط الجديد من المثقفين الذين أصبحوا ينتمون إلى العالم العربى ـ بالأصل أو باللسان ـ وإن انتموا إلى الآخَر باللغة أو طريقة التفكير..

إذن، لدينا الآن ذلك النمط الجديد ـ "المستشرقون العرب" ـ وهو نمط لمصطلح سَعَينا لنحته لأول مرة، ونسعى بالتبعية الآن للاقتراب منه أكثر حين نحاول الإجابة عن هذا السؤال: ما هى سمات المستشرق العربى؟

فلنحاول الاقتراب منه أكثر.

(2)

إن أكثر سمات "المستشرق العربى" هو عدم اهتمامه بالعربية، وكان أكثر ما يلفت النظر فى جلسات المؤتمر ـ بدءًا من المنصة، ووصولاً إلى القاعة، ومرورًا بعديد من الشخصيات العربية ـ أن اللغة الإنجليزية بلكنتها الأمريكية كانت هى السائدة فى كثير من الأحيان..

وافتقاد العربية هنا أول ما يعكس هذا الواقع الجديد!

وعبورًا فوق تعريفات كثيرة للهوية، فإن العربية تمثل قيمة التعبير أو الوعى أو الثقافة، أو ـ حتى ـ طبيعة المجتمع العربى. ورغم أن اللغة العربية تمثل شكل "أفقنا الوحيد للتفكير"، فإنها فى الوقت نفسه تتكشف لنا كحدود وإحالة لبُعْد آخر غيرها، على اعتبار أن هناك مختلفًا لا بد من الاعتراف به، وفى الوقت نفسه الوعى به.

إن الوعى بالآخر هو فى الوقت نفسه وعى بالذات.

والوعى باللغة يعنى أن تظل هى الحاملة للهوية، حيث تقوم بوظيفة أساسية فى تكوين النظام الاجتماعى، على اعتبار أن كل نظام اجتماعى ينتج أشكالاً ثقافية تتجلى فى التمثلات والعادات والمؤسسات، وفى طبيعة العلاقات الاجتماعية، إلى غير ذلك.. وهو ما يعود بنا إلى حال العربية فى المؤتمر.

منذ الجلسة الأولى ـ وقد كنت أحد الباحثين المشاركين ـ لاحظت أن كل من يلْقِى ورقته كان يلقيها بالإنجليزية، فدهشت!.. وبعد فترة وجيزة، مِلْتُ إلى سمو الأميرة «د. وجدان على»، وكانت رئيسة الجلسة، وأشرتُ قائلاً: «ألا يمكن لباحث عربى فى وطن عربى أن يلقى بحثه بالعربية؟»، فأسرعت تقول لى همسًا: «يمكن ذلك»، محولةً نظرها إلى الباحثين الذين

كانوا يتأهبون للتعامل مع القاعة، ليدور الحديث بين القاعة والمنصة فى أغلبه بالإنجليزية، أو إذا شئنا: بالأمريكية الخالصة.

كانت بعض التساؤلات تَصْدُر من هنا أو هناك بالعربية، وإنْ كانت قليلة..

ومع أننا لا نستطيع أن نلوم الأمريكيين من المثقفين أو السياسيين لأنهم يتحدثون لغتهم فى مؤتمر يبحث فى العلاقات العربية الأمريكية، فإن اللوم، كل اللوم، كان لا بد أن يوجَّه إلى العرب الذين كانوا يأتون من شتى الأقطار العربية ـ أو حتى الغربية ـ ليتحدثوا فى بلد عربى بلغة غير عربية!

وما أزعجنى أكثر، أنه فى إحدى جلسات اليوم الأول كان رئيس الجلسة عربيا ـ «د. منذر المصرى» ـ ومع ذلك فقد أدار الجلسة كلها باللغة الإنجليزية، ولم ينطق حرفًا عربيا واحدًا، سواء فى تقديم باحثيه، أو فى الحوار مع القاعة بعد ذلك.

وإذا كانت الإنجليزية بلكنة أمريكية هى اللغة التى تَسُود المؤتمر، فقد كان من الطبيعى أن نلاحظ أن الأمريكيين بأمريكيتهم الهادئة، كانوا قليلى الكلام، وتعليقهم عابرًا، وحين يضطر بعضهم إلى الإطالة فى بعض الأبحاث ـ كما رأينا فى الجلسة الثامنة من اليوم الأول ـ كانوا يتحدثون عن ضرورة تغيير النمط التفاهمى بين الشعوب، ولوحظ ترديد مقولة أن الإسلام السياسى يتصاعد ووراءه حالة الفقر واليأس والغضب الأصولى، وهى كلها مقولات رددها البعض فى الكونجرس الأمريكى أو بعض المراكز الأمريكية الأخرى، وهو ما دعا البعض إلى أن يرد ـ من القاعة ـ بأن غضب الإسلاميين إنما يعود لسياسة أمريكا فى المنطقة، وأن أمريكا تكيل

بمكيالين، وتتعامل معنا ـ نحن العرب ـ بشكل يغاير ما تتعامل به مع إسرائيل.

إن اللغة التى دارت بها جلسات المؤتمر لم تعكس تهديد الهوية فقط، بل والرعب من أن تتحول العربية إلى لغة أشبه ما تكون باللاتينية المنقرضة.. كما انعكست هذه المشكلة ـ بالتالى ـ على القضايا التى أثيرت فى المؤتمر، وهى قضايا كانت تدور كلها حول هذه العلاقة فى مؤتمر كان عنوانه الثانى "نحو مستقبل مشرق". لقدَ تحولت قضايا الأمة العربية فى كثير من الأحيان إلى تهويمات ووعود ليست لها علاقة بهذا المستقبل المنشود..

وهو ما تنبهتُ إليه وأنا أجلس إلى رئيس اللجنة التحضيرية للمؤتمر.

(3)

حين سألت المسئول الأول عن المؤتمر:

ـ أليس من الغريب أن تدور الأبحاث والمناقشات بالإنجليزية ونحن فى بلد "عربى"؟

فأجاب بالحرف وهو يحدّق فى (المسجِّل) أمامه:

ـ نحن لم نتدخل شخصيا فى هذا المجال، فقد أعلنّا منذ البداية أن لغة المؤتمر ستكون لغتين: اللغة العربية، ثم اللغة الإنجليزية.. وأرسلنا هذا كتابةً إلى البلاد العربية والولايات المتحدة الأمريكية، وأعطينا الحرية للشخص فى أن يتكلم بالعربية أو الإنجليزية.. ووفرنا المترجمين الأَكْفَاء.. ووفرنا لهم كوادر..

ويسْهِب هذا المسئول فى تبريرات كثيرة لتأكيد ما لا يحتاج لتأكيد، إذ يرى أن استخدام "اللغتين" لن يضْعِف من هويتنا، ولن يأتى على حساب لغتنا

القومية، بل يؤمّل العكس، فنحن بحاجة لأن نعمل على أن تكون لغتنا أكثر تطورًا واستيعابًا لمعارف العصر.

ويغْجَب المرء من مثل هذا الكلام!.. إن استخدام أكثر من لغة فى لجنة أو اجتماع سياسى تقريرى يكون أجدَى لتأكيد نسبة التفاهم وزيادتها، أما أن يكون استخدام اللغتين (ويقصد بها هنا استخدام لغة أخرى غير اللغة القومية) لا يفسد وعينا وكيفية تفكيرنا فى حضارة "الآخر"، فإن هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا بأية حال.

والأكثر من هذا، أننا لو صَدَّقْنا مثل هذا الكلام، لتوقفنا أمام حقيقة أخرى تأكدت لنا عبر المؤتمر الذى لا يتحدث فيه الباحثون إلا لغة واحدة ـ هى الإنجليزية ـ ولا يدخل فى حوار القاعة والمنصة إلا عامل واحد هو عامل اللغة الأجنبية التى تضيف إلى الفكر الغربى بُعْدًا يؤكد سعْى الولايات المتحدة إلى أن تكون الإنجليزية هى اللغة الأولى، فتُضاف إلى لغة التفكير (الإنجليزية) لغة الهيمنة (الإنجليزية أيضًا)، وهو ما يترجم لنا فى نهاية السياق أن غَلَبَة لغة المؤتمر هى ـ بالتالى ـ غَلَبَة لغة الدولة التى تكيل بمكيالين وتتعامل بطريقتين، وهو ما قيل أيضًا فى هذا المؤتمر من البعض، وإنْ كان قد قيل مرةً أو مرتين، وبصوت خافت!

ومع ذلك، فإننى ما كدت أنتهى من سماع تبرير المسئول عن المؤتمر بشأن لغة هذا المؤتمر العربية والإنجليزية كما أسلفنا، حتى هبطتُ إلى الجلسة قبل الأخيرة لأسمع العكس تمامًا، فما رُدد آنفًا لم يكن صحيحًا!.. لقد وقف أحد الباحثين ـ «فواز جرجس» ـ ليتحدث فى موضوعه عن نظرة الأمريكان إلى العرب، فقال ـ أول ما قال ـ هذه العبارة:

ـ «لقد قيل لى إن لغة الدراسة هى اللغة الإنجليزية فقط، ولذلك كتبتُ دراستى هذه بالإنجليزية، فأعتذر لكم عن أنى قد كتبتها بالإنجليزية التى سأقرؤها بها»!

ما معنى ذلك ؟

معناه أنه قد أُرسلت إلى الباحثين ـ كما شهد هذا الباحث، فاعتذر ـ أن لغة المؤتمر هى الإنجليزية.

ومعناه أن النية كانت أن تُستخدم فى المؤتمر ـ الذى يبحث فيه عن العلاقات المشرقة مع الأمريكيين ـ لغتهم.. اللغة الانجليزية.. ومعناه أن اللغة العربية (لغة الهوية) ليست هى ما يهم هنا، المهم أن يقام مؤتمر ليشارك فيه الأمريكان: الباحثون والسفراء السابقون والحاليون وبعض الباحثين من جامعة "بريجهام يونج".. وغيرهم، ويتكلم فيه أبناء العم «سام»، ويستمعون إلى أنفسهم، أو إلى لغتهم، بما يريدون أن يستمعوا إليه من المستشرقين العرب..

لم يكن المطلوب هنا إجراء حوار مع "الباحثين العرب"، وإنما إجراء حوار مع "المستشرقين العرب"!

الآخر.. من هو الآخر حقًّا؟!

رابعًا

فى هذا المؤتمر الضخم الذى أشرنا إليه هنا ـ مؤتمر عمان ـ ورغم أن العنوان يبدو محايدًا إلى حد كبير (العلاقات الأمريكية)، فإن الطرف الآخر (الأمريكى) كان هو المحور الرئيسى الذى فرض نفسه على كل أوراق المؤتمر.

ورغم أن العلاقة مع الآخر ـ هذا الآخر ـ بدا أنها تمتد إلى كل مساحات ما دار، سواء من المنصة أو بين المنصة والقاعة، فإن الجلسة الثانية (وقد كنتُ أتشرف برئاستها) استحوذت تمامًا على هذا المحور، خاصة أن مجالها الرئيسى كان يركز على الصور الذهنية المتبادلة، فقد كُتب بوضوح أكثر أن عنوان هذه الجلسة هو "الآنا والآخر".

ولأن "الأنا" كان يشعر بغَبْن شديد لما أصبحنا فيه نحن العرب، فإن الأنظار وهى تُلْقِى اللوم على الذات، كانت تُلْقِى اللوم الأكبر ـ فيما بدا مؤكدًا ـ على "الآخر".. فى حين بدا هذا الدور الأخير مؤكدًا.

حين بدأتُ فى تقديم الأبحاث، لاحظتُ عناوين مختلفة فى الكلمات ومتفقة فى المعنى على هذا النحو: نظرة الأمريكان إلى العرب ـ صورة العربى فى الكرتون الأمريكى ـ صورة الأمريكى فى الرواية العربية.. إلخ. بدا أن صورة "الآخر" كانت تهيمن بحكم الواقع الذى نعيش فيه جميعًا على هذا "الآخر" الذى نسعى فيه هنا لرصد العلاقات "العربية ـ الأمريكية" للوصول ـ كما سنرى ـ إلى مستقبل مشرق.

كان صوت رئيس الجامعة منذ فترة وجيزة يشير إلى تصورات العرب وانطباعاتهم عن الأمريكيين.. وحين فتحنا باب النقاش، لاحظت التركيز على الدور السلبى الذى يؤديه الطرف الآخر، سواء بعدم الانتباه إلى الطرف الأول، أو بسبب اتِّباعه سياسة الكَيل بمكيالين، والانحياز إلى طرف دون طرف، كما رأينا فى الصراع العربى الإسرائيلى.. إلى غير ذلك. كان علىَّ أن أتنبه إلى شىء بدا لى مهمًا، هو أن "الآخر الأمريكى" هنا، كان هو الإنجليزى أو الفرنسى.. إلى آخر من استعمروا بلادنا فى الماضى.. وعلى هذا النحو، كنت فى حاجة لتأكيد إشارتين مهمتين ظهرتا بداهةً لى، لكننى آثرتُ الدَّقَّ عليهما ليحفرا فى الأذهان العربية معنى "الآخر" الذى ليس هو أمريكيا بالضرورة، وإنما هو غربى بأية صورة مغايرة، فالهدف يظل واحدًا، وهو الهيمنة فى الماضى باسم الرأسمالية الغربية التى بدأت محاولاتها الدءوب المستمرة منذ القرن الخامس عشر مع اكتشاف رأس الرجاء الصالح وبدايات التكوينات الجديدة فى "اقتصاد السوق" الأوروبى المعتاد الذى كان يتخذ شكل الاستعمار التقليدى قبل أن يتحول مع أزمات القرن

العشرين ـ عقب حرب الخليج الثانية ـ إلى تكوينات فى "اقتصاد السوق" الجديد الذى عرفناه باسم "العولمة" وآلياتها وتداعياتها الآن.

وجدت نفسى أمام حقيقة بدهية لكن لم يلتفت إليها ـ فى توهمى ـ بالقدر الكافى.

رحت أتمهل أكثر عند هذه البدهية، وحاولتُ رصدها عبر إشارتين.

(2)

كان علىّ إذن أن أنبّه إلى شىء بدا لى مهمًّا، وهو أن الأمريكى (الحالى) والإنجليزى أو الفرنسى (الذى كان).. كليهما يمكن أن يطلق عليه "الآخر".

ورحت أصيغ فكرة "الآخر" عبر التاريخ لأعبر بها إلى الحاضر.

إن "الآخَر الأمريكى" ليس معروفًا اليوم فقط، وإنما هو معروف منذ بدأت الولايات المتحدة تنظر إلى خارج حدودها. ودون أن نجهد فى البحث عن نقطة معينة، فإن التاريخ يقول لنا إن حركات التبشير الأمريكية بدأت فى صعيد مصر فى ستينيات القرن التاسع عشر.. بدأت حركات تبشيرية حثيثة لتحويل المصريين من مذهب دينى هو مذهب البلاد (الأرثوذكسية) إلى مذهب آخر مغاير هو مذهب المبشرين الأمريكيين (البروتستانتية).

لقد جاءت أهم إرسالية بروتستانتية من أمريكا، وكان الهدف واحدًا ومحددًا، هو ـ كما لاحظ «د. وليم سليمان» فى كتابه "الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية" ـ القضاء على الكنيسة القبطية وضم أبنائها إلى كنيسة بروتستانتية جديدة. كما حاول الأمريكيون ـ من خلال الإرسالية الإنجيلية ـ التوغل فى صعيد مصر ومحاولة السيطرة فكريا على أهل البلاد الأصليين، وتحويلهم فى الظاهر إلى البروتستانتية، وفى الباطن الاستيلاء على

العقل المصرى الأرثوذكسى القبطى العريق، إلى درجة أن التاريخ يقول لنا ـ من هذه الفترة المبكرة من القرن التاسع عشر ـ إن هؤلاء كانوا يسعون، بتنظيم وشراسة، إلى إنشاء المدارس الخاصة بهم لاستقطاب أبناء البلاد إليها بهدف واحد، هو نشر البروتستانتية فى صعيد مصر.

يذكر «طارق البشرى» فى كتابه عن "المسلمين والأقباط"، أن الإرساليات الأمريكية عملت على أن تنشئ المدارس الدينية فى القاهرة والإسكندرية وأسيوط. وركزت نشاطها فى أسيوط لتخلق منها قاعدة للنزاع الطائفى وتنشر فيها البروتستانتية بين الأقباط، وقد بدأ وصول المبشرين الأمريكيين فى عام 1854، حيث حضروا إلى مصر ومعهم عدد من الشوام يستعينون بهم فى الاتصال بالمصريين ومعرفتهم، فأنشئوا أول مدرسة لهم عام 1855، ودرس بها 11014 تلميذًا. وكانت كلما تكونت جالية بروتستانتية من المصريين فى منطقة، سلم المبشرون الراية إليها لينشئوا غيرها فى مكان آخر.

ويلاحظ المبشر الأمريكى «أندرو واطسن» ـ وهو يدرس هذه الحركات ويرصد غزارتها ـ سياسة التسرب المستمرة التى حمل لواءها المبشرون الأمريكيون فى القرن التاسع عشر.

هذا هو "الآخر الأمريكى" الذى نشير إليه هنا ـ أيها السادة ـ ونحن فى مؤتمر نتحدث فيه عن العلاقات مع هذا "الآخر الأمريكى"، ونحن نرصد هذا عبر صور كثيرة.. ولكن، ألا تلاحظون معى أن الآخر ليس هو الأمريكى فقط؟

سألت وأجبت.

الآخر يمكن أن يكون أى طرف آخر يحاول النَّيل من مَقْدِرَاتِنا العربية.. فإذا تصورنا أن دور الولايات المتحدة الأمريكية (الآخر) تراجع لسببٍ مَّا،

فإن دورًا آخر ـ وليكن الإنجليزى، أو حتى الألمانى ـ يمكن أن يطل برأسه من جديد، ويعود بسرعة إلى هذه المنطقة العربية ليصبح هو "الآخر"!

والعَوْد إلى التاريخ هنا ـ مرة ثانية ـ يؤكد لنا مثل هذا التصور.

وغنيٌّ عن الذكر أن نقول هنا إن ما فعله المبشرون الأمريكان هو ما فعله المبشرون الإنجليز، فبينما كان المبشر الأول يسعى إلى الإنجيلية، فإن الآخر بدا ساعيا إلى نشر الكاثوليكية بديلاً عن مذهب أهل البلاد، إلى درجة أن "الفرنسيسكان" كانوا يمسكون بالأطفال ويرسلونهم إلى روما لتعلّم الكاثوليكية، لولا أن مسيحيى مصر الأرثوذكس قاوموا هذه الحركة إلى حد أن استولوا على كنائس "الفرنسيسكان" وطردوهم منها.

ما معنى ذلك؟ معناه أن الآخَر هنا أمريكيٌّ، أو إنجليزيٌّ، أو فرنسيٌّ (وفيما بعد ـ فى بلاد عربية أخرى ـ كان إيطاليا وإسبانيا إلخ).. كان أيٌّ منهم يمثل دور "الآخر" وليس الأمريكى فقط.

إن المؤرخ الذى يرصد حالة التعليم فى مصر فى ذلك الوقت من النصف الثانى من القرن التاسع عشر، يلاحظ ـ وبالأرقام ـ كيف لجأ هؤلاء المبشرون إلى وسيلة لجذب الفقراء من تلاميذ الأقباط، ولم تركز الإرساليات نشاطها فى القاهرة والإسكندريةّ فقط، وإنما توغلت فى ريف الدلتا والصعيد جنوبَ مصر بشكل خاص.

لقد بلغ عدد تلاميذ هذه المدارس فى عام 1876 نحوًا من 12247 تلميذًا، منهم 6419 تلميذًا (أى حوالى 52 ٪) بالمدارس الأجنبية، وأكثر هؤلاء الآخرين من الأقباط.

وكان الأجانب هذه المرة هم الإنجليز ـ وليس الأمريكان بالضرورة ـ فقد كانت أخطر إرساليتين توجهتا إلى صعيد مصر فى القرن التاسع عشر إحداهما إنجليزية والأخرى أمريكية.

وحين نخرج من التاريخ الى الرواية، فإن "الآخر" هنا يظل قائمًا، وإن تغيرت أشكاله!

كان "الآخر" فى النصوص الماضية ـ وهو ما رصده هنا بحث «د. نجم عبد الله كاظم» من جامعة "مؤتة" بالأردن ـ يتمثل فى نصوص عديدة، منها: "قنديل أم هاشم" لـ «يحيى حقى»، و"عصفور من الشرق" لـ «توفيق الحكيم»، و"موسم الهجرة إلى الشمال" لـ «الطيب صالح»، و"الحى اللاتينى" لـ «سهيل إدريس»، و"شتاء البحر اليابس" لـ «وليد إخلاصى»، و"السفينة" لـ «جبرا إبراهيم جبرا»، و"المرتجية المؤجل" لـ «غائب طعمة فرمان»، و"الشاهد والزنجى" لـ «عيسى مهدى الصقر»، و"الثلج الأسود" لـ «محمد أزروقة»، و"ليلة فى قطار" لـ «عيسى الناعورى»، و"يوميات على سعيد" لـ «عدنان رءوف»، و"تشرق غربًا" لـ «ليلى الأطرش»، و"عزف فى مكان صاخب" لـ «على حنون».. وغيرهم.

ورغم أن الباحث هنا يسعى لرصد هذا "الآخر" ـ وإنْ يكن الغربى ـ فى العراق وبلاد الشام أكثر، فإن رصد "الآخر" ـ وإن يكن الأمريكى ـ فى الوطن العربى كان هو ما حاولتُهُ فى عنوان البحث الذى تقدمت به عن "صورة الأمريكى فى الرواية العربية".

ورغم أننى سردتُ عددًا كبيرًا لصورة هذا الأمريكى (وهو موضوع سأعود إليه فيما بعد فى روايات كثير من الروائيين العرب)، فمن المؤكد هنا أن "الآخر" يجب ألا يكون الأمريكى وحده، وإنما يمكن أن يكون أى كائن غربى آخر يأخذ سمة الرأسمالية الغربية التقليدية (كما كنا نعرف الغرب الأوروبى التقليدى) أو هذا الذى يأخذ سمة الرأسمالية الأمريكية الشرسة (كما نعرف الآن فى عصر العولمة).

المهم ـ أيها السادة ـ أن صورة "الآخر" لا تقتصر على الغربى الأمريكى

فقط، فقد كان هنا "آخر" غير أمريكى ذات يوم، ومن الممكن أن يعود فى حالة توارى الغرب الأمريكى الآن.. لأى سبب!

(3)

لم تكد تنتهى الجلسة، وتعقيبى الذى طال، حتى وجدتُ نفسى ـ خارج الجلسة ـ أمام شخص لم أره قبل ذلك، أو يُخَيل إلىَّ أننى لم أَرَهُ قَطّ. وجدته يقترب منى، ويقول بحميمية:

ـ سمعنا، وعرفنا، أن "الآخر" ليس هو الأمريكى وحده (فقد يكون إنجليزيا أو فرنسيا)، ولكن على رِسْلِكَ يا سيدى.. ألا ترى أن هذا "الآخر" يمكن أن يكون بيننا هنا؟..

ألا يمكن أن يكون "الآخر" هو من ينْبُتُ فينا ويكون ضدنا نحن؟ انظر إلى حال الوطن العربى اليوم.. ألا ترى "الآخر" حقًّا؟

اختفى محدِّثى، أو الطيف الذى كان أمامى، لا أعرف كيف!.. وعدت من عَمَّان لأكتب هذه السطور.. وما زلت أستعيد الأسئلة وأسأل من جديد..

عَوْد إلى الآخر.. مَن هو الآخر حقًّا؟

خامسًا

أكثر من رسالة وتعقيب على مقالة كنت قد نشرتُها تحت هذا العنوان.. ورغم أن بعض هذه الكتابات تتباين بين مؤيد ومعارض، فإن تعاملنا معها هنا يأتى من منطلق العلاقة الحميمة بين الكاتب والقارئ.. ولأننا جميعًا أبناء وطن واحد رغم تعدد الانتماءات، فإن هذه العلاقة الحميمة هى التى تَسُود منطق الحوار (وهذه بديهية)، ثم لأننا ـ وهذه بديهية أخرى تمضى فى

السياق نفسه ـ لا نستطيع أن ننفى الدور الوطنى عن الطوائف المسيحية ذات المرجعية الغربية بسبب انتمائها الدينى أو الطائفى اليوم. وهل يستطيع أحد ـ مثلاً ـ أن يشكك فى وطنية أىٍّ من الطوائف غير الأرثوذكسية فى مصر اليوم؟!

نصل بعد ذلك إلى أهم هذه التعقيبات، ونختار منها اثنين؛ لأنهما يلخصان فى إيجاز كثيرًا مما جاءنا، ولن نعرض ما ضَمَّنَّاه مقالتنا السابقة، اللهم إلا من خلال هذه الردود والتعقيبات.

(2)

جاء إلينا من رسالة طويلة لـ «عادل الكاشف»، وهو قاضٍ وكاتب:

«... أرجو أن تفسحوا صدركم لتنويهى ـ بصفة خاصة ـ بمقالكم.. حيث ألقيتم الضوء على الإرساليات التبشيرية والإنجيلية منذ القرن التاسع عشر، وذكَّرنى مقالكم هذا بمقال للكاتب اللبنانى «محمد السماك» حول صدور قانون فى روسيا الاتحادية بمنع البعثات التبشيرية الإنجيلية فى عهد الرئيس «يلتسين».. وبالرغم من محاولته، مُنِع صدور القانون!.. وما أشار إليه مقالكم عن دور الفتنة الطائفية فى صعيد مصر ـ بصفة خاصة ـ لا يشير إلى ذلك "الآخر" الأجنبى، لكنه "الآخر" بيننا و...»..

وتسهب الرسالة الطويلة حول هذا "الآخر" فى الخارج أو الداخل، متوقفةً عند أمثلة كثيرة..

ونكتفى منها بذلك لنتمهل أكثر عند رسالة أخرى جاءتنا من الإسكندرية، وتحمل اسم المهندس «نسيم صمويل توفيق» (وهو 'شيخ

بالكنيسة الإنجيلية بحى سيدى بِشْر[1] كما كتب تحت توقيعه).. ونحاول هنا توضيح ما قاله المهندس «نسيم» تعليقًا على ما كتبناه سابقًا..

فبعد سوء الفهم ـ الذى وقع من قِبَل شيخنا ـ لقولنا إن أهم إرسالية بروتستانتية جاءت من أمريكا، وأن هدفها كان القضاء على الكنيسة القبطية وضم أبنائها إلى كنيسة بروتستانتية جديدة..

وبعد أن يرفض استشهادنا برأى أحد الكتّاب الأقباط ـ على حد قوله..

وبعد أن يجتزئ ما يراه صالحًا لفكرته، يقول (ونحن ننقل هنا رسالته بالحرف الواحد):

> **«... أما أخطر ما جاء فى المقال، فهى رؤية الكاتب غير المنصفة بالمرة لدور البروتستانت فى التعليم. ولا يكفى الاستناد مرة أخرى إلى رأى أحد الكُتّاب ليحصر هدف الإرساليات من نشر المدارس فى أمرين محددين، أولهما نشر البروتستانتية فى صعيد مصر، وثانيهما إيجاد قاعدة للنزاع الطائفى (هكذا!)..».**

وبعد أن يجتزئ عبارات من "تقرير الحالة الدينية" ويضعها فى غير سياقها، يضيف وكأنه يرد على الاستنكار الذى أثاره:

> **«لقد كانت جهود المبشرين فى التعليم تهدف إلى التنوير.. ولكننا فى الوقت نفسه لا ننكر أن الإرساليات اتخذت من التعليم ـ أحيانًا ـ إحدى وسائل نشر المذهب الإنجيلى. وهذا الأسلوب فى نشر الفكر والمذهب ليس جديدًا؛ فكثيرًا ما استخدمت الفِرَق الإسلامية ذات الأسلوب لنشر دعوتها المذهبية على قدر علمى، ومثالاً واحدًا لهذا يمكننا أن نراه فى الأزهر الشريف؛ فقد نشأ أساسًا لنشر المذهب الشيعى... »..**

ولا يلبث أن يعود مرة أخرى ليؤكد أن ما يقوله هنا هو اجتزاء من التقرير السابق الإشارة إليه.

و..

«لقد جاء المرسلون البروتستانت (الإنجيليون) لمصر بهدف نشر المذهب الإنجيلى.. نعم، ولكن ليس بهدف القضاء على المذهب القبطى. جاءوا لتنوير العقل وليس للاستيلاء عليه؛ فالفكر الإنجيلى أساسه حرية الفرد وإعلاء شأنه وإعطاء قيمة عظيمة لعلاقة الفرد المباشرة بالله تعالى».

وتنتهى أهم الأفكار المحورية فى هذه الرسائل، ولا ينتهى ما تثيره، وهو ـ للأسف ـ مما سبق أن أشرنا إليه!

(3)

المعروف أنه فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر، خضعت المنطقة العربية للسيطرة الإمبريالية التى لم يكن ليخْفَى عليها ـ أى هذه السيطرة الغربية ـ أن ثمة روحًا وطنية مقاوِمَةً قائمة، ومن هنا فإن مصادر هذه الفترة تشير إلى أن هذه القوى لم تتردد فى فعل أى شىء لإحكام سيطرتها الاستعمارية كعقيدة خالصة (من هذه المصادر: منسى يوحنا: "تاريخ الكنيسة القبطية" ـ وجيه كوثرانى: "الاتجاهات الاجتماعية والسياسية" ـ أنور عبد الملك: "نهضة مصر" ـ اللورد كرومر فى كتابه المعروف " Earl of Modern Egypt" ـ كلوت بك: "لمحة عامة إلى مصر")، وهو ما يبدو معه نشاط فرنسا التى قامت بإرسال الإرساليات الكاثوليكية، ثم الولايات المتحدة التى قامت بعمل تبشيرى بنشر المذهب الإنجيلى (البروتستانتية).

وتعطى مصادر التاريخ فى ذلك الوقت صفحات كثيرة لبريطانيا، وهى الفترة التى شهدت أعلى صور الهجوم على الكنيسة الوطنية القبطية، فقد كان العصرُ عصرَ هيمنة السيطرة الإمبريالية وليس التبشير البرىء. ولنتوقف عند عنصر واحد من عناصر هذه الهيمنة الإنجيلية/ الأمريكية منذ فترة مبكرة، وهو عنصر التعليم.

ففى هذا الوقت، استطاع سفير الولايات المتحدة الحصول من السلطان العثمانى على فرمان يقضى باعتبار الإنجيليين طائفة قائمة بذاتها، ثم ـ بعد ذلك مباشرة ـ جاء دور التعليم (نذكر ثانيةً أننا كنا فى عصر الإمبريالية).. حيث يذكر التاريخ المكتوب أنه قد انتشرت مدارس الإرساليات الأمريكية فى المدن والقرى. وكان الإشراف على المدارس والتفتيش عليها أمريكيا، أى للكنيسة الإنجيلية، ومن خلال التعليم استطاع الإنجيليون بالفعل تحويل عدد كبير من القبط الأرثوذكس إلى المذهب الإنجيلى.

تقول المصادر الأجنبية هنا (وليس أحد الأقباط كما يقول الشيخ): إن المرسَلين الأمريكيين كانوا ينْعُون على الكنيسة القبطية الأرثوذكسية انحراف عقيدتها وممارساتها القبطية عن جادَّة الدين القويم، وفى النهاية ـ كما يقول أحد شاهدى العيان «Charl Robert Waston» ـ أعلن الإنجيليون أن عملهم فى صفوف القبط إنما هو مدخلهم إلى صفوف الأكثرية المسلمة من السكان (!!).

ولعل دارس هذه الفترة يلحظ أن رد الفعل العنيف جاء من جانب أقباط مصر، حتى إننا فى مجال التعليم نلاحظ جهود البطريرك «كيرلس الرابع» (أبى الإصلاح) الذى تولى بين عامى 1854 و1861، وقال إنه لا مفر من إنشاء مدارس قبطية أهلية وطنية إذا أريد إبطال قوة الإغراء التى تشكلها مدارس الإرساليات الأجنبية لأبناء القبط، وهو ما قام به بالفعل..

ويقول «أبو سيف يوسف» هنا: إن أحد الدوافع لتشكيل مدارس الأحد ـ فيما بعد ـ كان مواجهة مسعى الكنيسة الإنجيلية إلى استقطاب الشباب الأرثوذكسي إلى مدارسها.

هل يقول أحد بعد ذلك إن الإنجيليين كانوا يريدون بناء المدارس (المثالية) فقط، أم إنها كانت ذريعة للتبشير؟.. هل كان الهدفُ التعليمَ بالفعل؟.. إن الشيخ البروتستانتي كاتب الرسالة السالفة لا ينكر في نهاية رسالته أن الإرساليات اتخذت التعليم ـ أحيانًا ـ كإحدى رسائل المذهب الإنجيلي، وضرب مثالاً قياسيا ليس له مكان من التوضيح حين ربط بين الأزهر ونشر المذهب الشيعي، فالمثالان لا يتطابقان، حتى وإن اقتبس عبارات من غير سياقها.

هل كان الإنجيليون في القرن الماضي حقًّا يأتون بهدف "التنوير"، أو على أقل تقدير: التنوير فقط؟.. ومع تسليمنا بما يحمله المذهب الإنجيلي في بلاده من قِيم، منها حرية الفرد وإعطائه قيمة.. إلخ، فإن ذلك يمكن تصديقه في بلاد العم «سام» في القرن التاسع عشر، وليس في بداية الألفية الثالثة!

وهل كنا نستطيع ـ حتى ـ أن نَغْفل عن حقيقة أنهم لم يتوقفوا عند الأقباط دون التسلل لإخوانهم في الوطن المسلمين (وهل كانوا يستهدفون عقيدة دون عقيدة؟).

وماذا نفعل في التناقضات التي وقع فيها شيخنا البروتستانتي، فبينما لا ينكر حدوث بعض التجاوزات من جانب الإنجيليين في مصر تجاه الكنيسة القبطية، كذلك يؤكد حدوث بعض التجاوزات من الكنيسة القبطية؟ (وهل كانت تستطيع الكنيسة القبطية أن تقف مكتوفة الأيدي تجاه هذا التبشير المشبوه باسم التعليم ـ أو التنوير ـ وما إلى ذلك؟).. الإجابات معروفة كلها.

فلنضرب صفحًا عن هذا كله فى نهاية القرن التاسع عشر ونكمل المسيرة الإنجيلية الآن.. ولْنَعُدْ إلى بداية القرن الحادى والعشرين.. الفترة التى كانت العولمة تستخدم خلالها ـ بين آليات كثيرة لها ـ القوانين سيئة السمعة التى يصدرها المُشَرِّع الأمريكى، مثل قانون الحريات الدينية الدولية الخاصة بالأديان.. وما إلى ذلك مما نعرفه الآن.

إن مشروع القانون الأمريكى الذى تستخدمه الولايات المتحدة الآن يحذّر ـ كما نجد فى دراسة لـ «هانى لبيب» عن "العولمة والقضايا الدينية" ـ من أن أى شخص ينتهك العقوبات المفروضة على الدول التى تمارس الاضطهاد الدينى، يعَرِّض نفسه لفرض عقوبات متشددة طبقًا لقانون "تحريم التجارة مع الأعداء"، وسوف يتم تطبيق العقوبة بعد 90 يومًا من إصدار تقرير اضطهاد الأديان.

ومن هنا، يمكن تصوّر الخطر الذى يحيق بنا فى حالة تنفيذ هذه العقوبات فى كثير من المخاطر، ومنها هذا الوضع الذى يصل بنا إلى مأزق جديد، وهو الولاء للمرجعيات الدينية الغربية للطوائف غير الأرثوذكسية، ومدى تطابق هذا الولاء مع المصالح الوطنية بوجه عام، والمصالح السياسية بوجه خاص، وعدم حسم الطوائف غير الأرثوذكسية فى مصر مسألة مرجعيتها الدينية، بدايةً من العدوان الثلاثى على مصر حتى ضياع القدس!

بقى أن نتساءل مع الشيخ البروتستانتى: كيف يربط البعض بضمير مستريح جدًّا بين الحركات الاستعمارية الغربية والإرساليات التى جاءت من الغرب، ونظروا إليها نظرة متشككة قد يكون لها ـ على حد تعبيره ـ مبررها آنَ ذاكَ؟.. نقول هذا إذا كان للاعتراف بالنظرة المتشككة مبررها عنده، فكيف لنا أن نسلّم له بهذه القراءة البريئة؟!

ونكرر هنا أنه لا يستطيع أحد أن يشَكِّك فى ولاء ووطنية الكنائس الإنجيلية فى مصر.

وتذكرتُ مَن اقترب منى فى عَمّان ـ بعد أن تحدثتُ طويلاً عن "الآخر" ـ ليقول لى بحميمية: «سمعنا وعرفنا أن "الآخر" ليس هو الأمريكى وحده.. ولكن، على رِسْلِكَ يا سيدى، ألا ترى أن هذا "الآخر" يمكن أن يكون بيننا.. الآن؟».

عن الاستشراق.. والترجمات المعاصرة

سادسًا: الاستشراق القديم والاستشراق الجديد

"الاستشراق القديم" هو الاستشراق التقليدى الذى نعرفه جميعًا، والذى يكاد يلخصه عنوان التعبير التقليدى "افتراءات ـ أو أكاذيب ـ المستشرقين"، وهو تعبير أكثر ورودًا على الألسنة؛ لِمَا كان يسعى إليه المستشرق القديم للنَّيل من الشرق دينيا وسياسيا باسم العلم والتراث، وهو ما كانت تطلبه السلطة الغربية من مستشرقيها. ويلاحظ «د. مصطفى ماهر» ـ فى رسالة أرسل بها إلينا ـ أنه على الرغم من أن الاستشراق قد تطور كثيرًا فى القرن 18، وانفصل ـ على الأقل اسميا ـ عن العمل التبشيرى، فإن المستشرقين كانوا كثيرًا ما يدخلون الاستشراق الإسلامى من باب اللاهوت المسيحى أو اللغة العبرية وثقافتها.. إلخ، مع وضع حيز فى الاعتبار ـ وإنْ يكن ضئيلاً ـ لبعض المستشرقين هنا من الإيجابيين، بَيدَ أن الصفة العامة تظل سلبية فى هذا الصدد.

فإذا وصلنا إلى "الاستشراق الجديد"، فسوف نجد دائرته تكبر وتتسع من أجل التعرف أكثر على الشرق وتوثيق ما يصل إليه، وهذا نفسه "مَطْلَب" الاستشراق القديم، فوسائل الاستشراق الجديد ليست إلا

استمرارًا لما سبق، وإن يكن بوسائل جديدة وضخامة أكبر، ولم نعدم فى الاستشراق الجديد ــ خاصة فى جانب الترجمات المعاصرة ــ استبدال المناهج وإعادة توزيع المواقع والمعطيات المعاصرة.

ولكى لا تتفرق بنا السُّبُل، اسمحوا لى (وهذا قابل للنقض) أن نتوقف عند الترجمات، فسوف نتمهل ـ تحديدًا ـ عند مثال واحد، هو ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات المعاصرة.. وبشكل خاص عند آخر ترجمة أثارت الكثير من الجدل للقرآن الكريم، ونقصد بها ترجمة المستشرق «جاك بيرك». وعبورًا فوق مرحلتى القراءة والنص عند «جاك بيرك»، فإن ترجمة معانى القرآن هنا تمثل "حالة" يلتبس فيها حُسْن النية بسوء القصد، غير أن التحليل الأخير ـ فى رأينا ـ يصل بنا إلى عدة عناصر نالت كثيرًا من مصداقية «جاك بيرك»، خاصةً على الضفة العربية من المتوسط.

وسوف نشير إلى هذا عبر عدة ملاحظات، يمكن التمهل فيها عند غياب الوعى، وتغاير المرجعيات، وسوء الاستخدام المعجمى، وتباين القناعات.. إلى غير ذلك. غير أن سوء النية يصبح رمزًا استعاريا صريحًا، وهو ما سوف نتمهل عنده أكثر.

1 ـ تغاير المرجعية

إن «جاك بيرك» أمام "النص" القرآنى، وأمام تفاسير تراثية عديدة، وأمام "قداسة" القرآن وشروط تفسيره، حاول أن يكون موضوعيا.. بيد أنه، فى الوقت نفسه، لم يستطع أن ينفى مشاعره أو يلغى "مرجعيته" التى تكونت منها ذاته.. لم يستطع أن يغير المرجعية الفكرية والتاريخية لمستشرق غربى.. وهذا يعنى أن "القراءة" هنا لم تكن بريئة تمامًا، وإنْ أكَّد صاحبها أنها كذلك، وإنما هى ــ على الرغم منه ــ تتجه إلى آفاق بعيدة تُلْقَى فيها تفسيرات متباينة. ولأن القراءة تقترن ـ دائمًا ـ بهذه المرجعية الذاتية، فإنها

تتجه ـ وإن ادّعت الحَيدَة أو الإفادة من الغير ـ إلى "التفسير" الذى يتمى إلى "القراءة" ولا يخرج عنها بأية حال، وقد كان يمكن لـ «جاك بيرك» هنا ـ كغيره من المترجمين ـ أن يكتفى بمحاولة التعرف على المعانى، وأن ينقلها ـ دون ادعاء كبير ـ بالتعرّف على اللغة لحقبة بعيدة، أو دراسة النحو والبيان أكثر من غيرهما، دون أن يحوّل هذا إلى تعبير يطل برأسه من آن إلى آخر فى المتن أو الهامش ليضفى تفسيرات كثيرة لا ترتبط كثيرًا بالنص، وربما لتعديه فى تفسيرات خاصة.

و«جاك بيرك» نفسه لا ينفى صعوبة فهم النص، ويعى صعوبة التَّوَاؤُم مع مرجعيته، كما أنه يبدى تواضعًا شديدًا فى بعض الأحيان لفهم بعض الأخطاء التى وقع فيها، بل إنه لم يتردد أكثر من مرة عن قول إنه يأخذ بالتفسير الدينى Exeyese، وكثيرًا ما صرح بأنه "كاثوليكى"، بما يشير إلى أن المرجعية الخاصة للمترجم هنا إنما ترتبط ــ إلى حد كبير ــ بالمرجعية المهيمنة على وعيه. و«جاك بيرك» نفسه لم يتجاهل مغايرة هذه المرجعية التى يعمل من خلالها لمرجعية النص الذى يعمل به، فقد اعترف بصعوبة دراسة تطور الفكر الإلهى من خلال الوحى الذى هبط على النبى، مضيفًا أنه من الناحية العلمية، تصعب دراسة تطور الأفكار الفلسفية والقرآن الكريم بعد أربعة عشر قرنًا من الزمان، وفى هذا الصدد أذكّركم بأننا اليوم نجهل الترتيب الحقيقى لأفكار «باسكال Penses-Pascalles» مع العلم بأن تاريخ كتابتها ليس ببعيد؛ فهو ثلاثة قرون فقط!

ويزيد من فارق المرجعية ـ أو ينتج عنه ـ صعوبة الاقتراب من النص. وكما لاحظ البعض، فإنه إذا كان صعبًا على أى إنسان أن يفهم كتابًا فى غير لغته التى لا يعرف عنها شيئًا سوى مراجعة تراجمه ومعانيه، فالأمر مع القرآن الكريم يكون قصاراه تدبّر القرآن بعقل المترجم وتفهّمه وتفكيره فى

كل شيء يتعلق به، وهو ما أدركه «جاك بيرك» بالفعل وحاول تلاشيه، إما بالسماع إلى الأخطاء التى نجمت عنه، وإما بالأخذ عن بعضها.

وقد حاول البعض الدفاع عن «جاك بيرك» فى هذا الوقت، فذهب إلى أن أخطاءه ـ أو جهله بعضَ المعانى ـ إنما يحسب للإسلام لأنه يصلح لكل زمان ومكان، وأن الفهم والتفسير ـ وإنْ يكن خطأً ـ فهو لا يتعارض مع الرسالة.. غير أن هذا لا يصبح صحيحًا عند جهله بالعديد من المعانى، والذى يعنى اختلاف المرجعية فى المقام الأول، أو سعيا محمودًا للاجتهاد بأية حال. الأكثر من هذا أن «جاك بيرك» ـ لغياب المرجعية ـ جاوز أحيانًا حُسْن القصد إلى سوء القصد فى محاولاته "تغريب" العديد من ألفاظ القرآن الكريم، وهو ما يمكن أن يوافق عليه بعض نقاده.. بل إن محاضراته، التى أسرع إليها بعد أن واجه هجومًا عنيفًا، تزخر بالعديد من هذه الأخطاء التى نراها "ضعفًا فى المرجعية" ويراها غيرنا "سوءًا فى القصد".

ومع هذا، فإن تغاير المرجعية وحدها كان كافيا ليقع فى العديد من هذه الأخطاء الأخرى.

2 ـ جناية المناهج

إن مراجعة «جاك بيرك» هنا تشير إلى أنه ـــ مثل عدد من المستشرقين ـ رغم استخدامه عددًا من المناهج الغربية الجديدة على النص، فإنه يحمل رواسب تاريخية واجتماعية، خاصةً فى التفسير، أكثر من محاولة صارمة فى المنهج.

لقد ردد كثيرًا ـ خاصةً عَقِبَ صدور الطبعة الأولى من ترجمته معانى القرآن الكريم ـ أنه يعتمد على البحوث اللغوية الجديدة التى يطلَق عليها "البلاغة الجديدة" و"السيميوتيك" و"السيميونتيك".. كما ردد فى مرات

كثيرة أخرى أنه حاول أن يتلمس علم المنطق والرموز والعلامات والصوتيات، ثم إنه استعان - كما يردد - بنتائج البحوث اللغوية الجديدة.. إلى غير ذلك. غير أن التمهل أكثر عند هذه المناهج وغيرها، يرينا أنه لم يستطع أن يبْرَأ من خطإ التفسير.

نحن - على سبيل المثال - أمام خطإٍ فى رؤية اللفظة، فالمنهج الفيلولوجى - مثلاً - معناه أنه يجب أن ندرس كل كلمة تأتى فى الوثيقة "القرآن"، أى البحث عن الألفاظ فى معناها الجارى فى زمانها، أو - بمعنى آخر - العودة لفهم ألفاظ القرآن الكريم ومعانيها فى زمن نزول القرآن، وأسباب التنزيل، وما إلى ذلك. وكما يلاحَظ، فإن استخدام الألفاظ هنا لا يراعى دلالة الزمن الذى أُنزلت فيه!..

وهذا لا نجده فى قضية درس أو تحليل نقدى، وإنما ينسحب على قضية دينية مقدسة لا وقت فيها للتأمل.

ولا يمكن أن نشير إلى هذا فنَصِفَهُ بالاجتهاد، وإن حثنا القرآن على الاجتهاد أو التفسير، إذ إن الاجتهاد والتفسير هنا له شروطه، وهى شروط ليست قائمة هنا فى النص المترجم..

وهذا لا يعنى عدم وعيه بمناهج العلوم الاجتماعية المعاصرة التى يوليها اهتمامًا كبيرًا، وإنما كثيرًا ما يعود إلى هذا وغيره بشكل لا يصلح بالقَطْع لنص مقدس مثل القرآن الكريم ومجتمعه فى هذا الزمن البعيد.

الأكثر من هذا أننا نستطيع أن نقول إن بعض هذه المناهج التى تستخدم هنا يمكن أن تضع بين أيدينا بعض التفسيرات، لكنها - بالقطع - لا تعطينا التفسيرات "النموذجية" لنص مقدس. إن القراءة المقبولة بالشكل المنهجى هنا لا بد أن تكون لها عدة شروط محددة، والغريب أنه حين يذكر ترتيل القرآن الكريم فى كتاباته النظرية أو محاضراته، فإنه يستخدم العديد من

المناهج أو الطبقات من المعانى، ولا يلبث أن يعود ليعترف فى أكثر من موضع بأمرين اثنين:

ـ أن هذه الطبقات من المعانى تمثل صعوبة عند نقل النص القرآنى إلى اللغة الفرنسية، ناهيك عن أن اللغة الفرنسية ليست غنية بالمفردات مثل اللغة العربية، وإنْ كانت غنية بالتراكيب اللغوية.

ـ أنه قد غاب على الكثيرين أنه استخدم هذه المناهج لتأكيد الرسالة المحمدية لا لدحضها فى الوقت نفسه، وهو ما يتغارض مع ما حدث بالفعل!

وقد يكون من المهم أن نذكر هنا ما يذهب إليه «محمد أركون» مما يسوقه من دلالة على صعوبة ترجمة معانى القرآن اليوم؛ لأن المترجم المعاصر مقيد بقواعد علم الفيلولوجيا، لكنه يختلف فى ذلك عن المفسر القديم الذى يعتمد على ما يمكن أن نسميه "منطق الإيمان"، ويقصد به التوفيق والتعديل، مفترضًا تكريس الإيمان فى قلوب الناس، وكذلك لإبراز إعجاز القرآن.. لكنه لا يعتنى بتاريخ المعجم العربى للبحث عن السياق الاجتماعى والثقافى والاجتماعى الذى يعتمد عليه الخطاب القرآنى.

ونحن نوافق «أركون»؛ فلا بد للمؤرخ من العَوْد إلى هذا السياق حتى يهتدى إلى المعانى الأصيلة لجميع ألفاظ القرآن، وهو ما ينتقل بنا ـ مؤقتًا ـ إلى غياب المعجم العربى، أو غياب المعجم التاريخى..

3 ـ غياب المعجم التاريخى

رغم أننا أشرنا فيما سبق إلى أهمية المعجم التاريخى، فإننا نضيف هنا، أن كثيرا من مترجمى معانى القرآن لم يحترموا هذا المعجم الخاص بالخطاب القرآنى، وكذلك المعنى المعجمى فى زمن الوحى.. نقصد أن يراعوا شروط

العَوْد للقاموس والملابسات التى تحيط بتطور اللفظة وسياقها، وهذا المعنى المعجمى هو الذى يتردد فى كتب البيان العربى على أنه معنى الكلمة المفردة ذات الأصل الاشتقاقى والصيغة، وهو معنى يمكن تفصيله الآن أكثر مع ترجمة «جاك بيرك». إن الخطاب القرآنى مقيد بقواعد معينة.. قواعد المعجم العربى فى القرنين السادس والسابع.. فإذا وضعنا فى الاعتبار أن القرآن الكريم ينتمى إلى مرحلة من المراحل التاريخية التى مرت عليها اللغة العربية، فليس بوسعنا ــ حتى لو كنا نحسن اللغة العربية اليوم ــ أن نهتدى إلى المعانى الأصلية للقرآن، إلا إذا أحطنا إحاطةً دقيقةً وشاملةً بالمعجم التاريخى فى زمن الترتيل.

والملاحَظ أن «جاك بيرك» كان يعود من آن إلى آخر ـ للبحث عن معنى إحدى ألفاظ القرآن الكريم ـ إلى مثل هذه القواميس أو المعاجم، فينقل عنها دون التنبه إلى تغير السياق الزمنى، ومن ثم التغاير فى الفهم، فضلاً عن أن القاموس لا يعطى المعانى النصية، بل مجرد دلالة الألفاظ. كما أنه لم يعد معتمدًا على فهمه لمفردات المعجم اللغوى العربى دون دراية كافية. الأكثر من هذا أن ترجمته كانت تشير من آن إلى آخر ـ خاصة فى الهوامش ـ إلى أن هذه الكلمة لها معنى كذا لدى المعجميين العرب، والعجيب أنه ردد هذا بكثرة فى محاضراته التالية فى دفاعه عن نفسه (إعادة قراءة القرآن)، إذ يلاحَظ أنه فى المحاضرة الثانية عن الزمن فى القرآن لم يكن يكتفى بالعَوْد إلى مقولته إن أصل هذه الكلمة الفقهى كذا (بحسب المعجميين)، وإنما جاوز هذا إلى العودة إلى عديد من المصطلحات الغربية نفسها، كأن يستدل بعبارة أو لفظة من «هيجل» ــ فى المحاضرة نفسها ــ فيخلط بين المعنى الزمنى والمعنى الغربى، فيجمع بين تباين المرجعيات والألفاظ فى آن واحد.

وكثيرًا ما كان يخلط هذه الأزمان بأزمان أخرى، وهو ما كنا نجده حين

يستشهد بقرائن توراتية وإنجيلية، بل ويونانية قديمة، فضلاً ـ كما أشرنا ـ عن ترديد إشارات ومجتزءات عن التاريخ الغربى المعاصر لنا.

إن غياب المعجم التاريخى، واختلاط الزمن العربى بالغربى فى التفسير، حال بين «بيرك» وبين التصويب الذى كان يدعو إليه دائمًا.

ويشير «عبده العروى» إلى هذا حين يسميه "غياب إرادة استكشاف المفهوم القاموسى"؛ فمع أن «بيرك» كان يعود لمثل هذه القواميس، متسلحًا بالمنهج الفيلولوجى، وإنْ يكن السياق الفيلولوجى ينتمى إلى الزمان الذى يعيش فيه، فإن مرور آلاف السنين على وضع الألفاظ فى مَظَانِّها أو دلالاتها يحُول دون الوصول إلى المعنى المراد.

إننا أمام هُوَّة زمنية بعيدة تحُول دون الوصول إلى تفسير صائب عبر القراءة، خاصةً إذا كان المترجم لا يتنبه بالقدر الكافى ـ ربما لتغاير المرجعية اللفظية ـ إلى اختلاف دلالة الألفاظ؛ فالمعروف أن المعانى تتولد عن تناسق الألفاظ فيما بينها، وهو ما يشير فى التحليل الأخير إلى أن غياب المعجم التاريخى يمكن أن يضاف إلى غياب المعجم اللغوى فى آن واحد، فتنجم الأخطاء التى هى ـ بالضرورة ـ نتاج حُسْن قصد، وإنِ الْتَبَسَ بسوء نية غير مبيتة.

* * *

وهذا ما يعود بنا ثانيةً إلى موضوع قضية الندوة لنعيد طرح عدة تساؤلات، منها:

ـ أليس "الاستشراق الجديد" محاولةً ـ كسَلَفه ـ للنَّيل من واقعنا ومَقْدِرَاتِنا وتاريخنا؟.. ثم ـ مع تعدد المناهج وتَغَايرها ـ أليست محاولة تغيير هذه المناهج لدى الغرب هى محاولة لإعادة النظر للشرق عبر أساليب جديدة وأفكار قديمة؟

ثم، ألا يدخل فى إطار "الاستشراق الجديد" العديد من مراكز الثقافة الغربية فى عواصمنا العربية ومعاهدنا ومراكزنا العلمية باسم الاستشراق؟.. وهل لدى أىٍّ منا ـ بعد ذلك ـ اقتناعٌ، أىُّ اقتناع، لقول إننا نعرف مستشرقين جددًا أكثر إنصافًا وموضوعية من سابقيهم؟

وأذكر ثانيةً أن هذا لا يلغى الاستثناء، لكنه يؤكد القاعدة...

وأذكر أخيرًا أن ما طُرح هنا يمثل مُفْتَتَحًا لندوة أقامتها صحيفة "الأهرام الدولى".

حوار عن "الاستشراق الجديد"

سابعًا

عُقدت الندوة فى صحيفة "الأهرام الدولى"، وحضرها عدد كبير من المعنيين بالعلاقة بيننا وبين الآخر. أما "الاستشراق الجديد" فهو موضوع هذه الندوة التى أثارت ـــ أول ما أثارت ـــ قضايا على جانب كبير من الأهمية والخطورة لغياب المفهوم، وتعدد وجهات النظر، وقبل هذا وبعده: ألوان الحوار التى تدور دائمًا بين المثقفين، فتُعَدِّد حولنا الآراء وتعدِّد حولنا الاختلافات بما لا يصل معه المرء إلى رؤية واضحة قريبة من الإفهام.. فما هو مفهوم الاستشراق؟.. وما هى ردود أفعال مثقفينا حوله؟

إن مفهوم "الاستشراق الجديد" قد أشرنا إليه من قبلُ عَرَضًا، وإنْ كنا هنا نتأنّى أكثر عنده قبل أن نجاوزه، فقد أسهبنا الحديث حول هذا المفهوم حين فرَّقنا بين "الاستشراق التقليدى" و"الاستشراق الجديد"، فأشرنا إلى الاستشراق القديم، حتى إذا ما وصلنا إلى "الاستشراق الجديد" وجدنا دائرته تتسع وتكبر من أجل التعرف أكثر على الشرق فى هذا السياق عبر كاتبيه من الغربيين المعاصرين، وهو نفسه ما كان مطلب "الاستشراق

القديم"، فوسائل "الاستشراق الجديد" ليست غير استمرارية لما سبق، وإن كان بوسائل جديدة وضخامة أكبر.

ولم نعدم خارج الندوة مَن يفسر لنا الموقف كله، فهناك اليوم ـ حسب «إدوارد سعيد» فى نهاية كتابه "الاستشراق" ـ عدد كبير من الباحثين الأفراد العاملين فى فروع كثيرة؛ كالتاريخ والدين والحضارة وعلم الاجتماع وعلم الإنسان، حيث تمتلك أعمالهم قيمة كبيرة، بَيدَ أن المشكلة تظل فى مكان آخر حين يطْغَى التراث الثقافى للاستشراق على الباحث الذى لا يكون يقظًا دائمًا، ولا يكون بحثه الفردى ـ كباحث ـ مستعدًّا دائمًا ليرى جيدًا، بعيدًا عن آفة المهنة. ومن هنا، فإن الاحتمال الأقوى أنه يتم إنتاج العمل المهم ـ أو الشائق ـ من باحثين يكون ولاؤهم مقتصرًا على فرع من فروع المعرفة محددًا فكريا، لاَ إلى حقل كالاستشراق محدد إما بالشريعة وإما بالإمبريالية أو الجغرافيا.

معنى هذا أن المستشرق الجديد يمكن أن ينتمى إلى فرع من فروع الاستشراق القديم الذى تغلب عليه حركة الكنيسة الغربية والتبشير، أو ظلال الاستعمار أو مركزية الغرب.. وما إلى ذلك مما لا يسْلَم منه المستشرق التقليدى.

وهنا، نحاول أن نلفت النظر إلى المستشرق الجديد الذى يخرج عن تقاليد القرون السابقة، محاولاً أن يَخْتَطَّ تقاليدَ جديدةً بعيدًا عن تقاليد الاستشراق الكلاسيكى وبِنْياتِهِ الإيديولوجية.. أو حتى المعرفية.

كان السؤال المحورى يطرح هكذا: أليس للاستشراق الجديد محاولة ـ كسلفه ـ للنَّيل من واقعنا ومَقْدِرَاتِنا..إلخ؟

كان علىَّ أن أتوقف عند صور المستشرقين الجدد..

إنهم ـ كما رددتُ ـ ما زالوا يتمثلون فى موظفيه بوزارات الخارجية

الأجنبية وموظفين آخرين بيننا، ثم موظفين فى عصر الشركات متعددة الجنسيات، أو بشكل أدق: «خبراء»!.. ثم إنهم - يا سادة - موجودون بعد استبدال الزى القديم بأزياء عصرية فى العديد من مراكز البحوث الأجنبية، يتكلمون لغتنا، ويتحدثون عن المناطق العشوائية بالقدر الذى يتحدثون فيه عن منطقة "الشرق الأوسط" ومشكلاتها، و.. وتباينت الحوارات الطويلة التى شارك فيها عدد كبير من مثقفينا: الدكاترة «محمد خليفة حسن»، و«سمية عفيفى»، و«نادية متولى بشير»، و«مصطفى العيسوى».. وغيرهم

ولنتمهل عند بعض المَشَاهِد هنا.. ولخطورة ما جاء فيها، فسوف نحاول أن نلتزم - ما وَسِعَنا - بالكلمات.. بالنص.. وكذلك بالتعبير أيضًا.

المشهد الأول

منذ البداية، راح «د. مصطفى ماهر» يدعو إلى إعادة فتح هذا الملف لأنه يرتبط ارتباطًا شديدًا بحياتنا، ولأنه يتجدد بما يطرأ عليه من مستجدات، وهو ما دفعه للاستطراد طويلاً حول تاريخ الاستشراق، ليصل إلى تطوره فى شكل جديد خلال الحقبة الأخيرة. وفى حين ذَكَر أمثلة للترجمات السيئة التى تعرَّض لنصوصها الغربية التى نشرها فى كتاب "ألمانيا والعالم العربى" (بيروت، 1974) وبها توجهات مَشُوبَة بشوائب سياسة لم يَخْلُ منها الاستشراق فى عهد المد الاستعمارى، عاد تركيزه الكبير إلى التنبيه على دورنا الذى يلزِمُنا بألاَّ نُصْدِرَ أحكامًا عامة شاملة جامعة لا تفرّق بين الصالح والطالح.

وكانت أهمية تعليق «د. ماهر» تمثل الاحتفاء به كعميد للمترجمين عن الألمانية، وذلك لأن ترجمته "منتخب القرآن الكريم" إلى الألمانية تندفع بنا للتمهل عند هذه الترجمة لأهميتها فى هذا السياق.

وعلى العكس من وسطية «د. ماهر»، راحت «د. زينب عبد العزيز» تعصف بكل الترجمات التى ترجمها الغرب، فهى تتبع خطًّا واحدًا ـ مع اختلاف المناهج ـ إذ تركّز على إنكار الرسالة ـ إنكار النبوة ـ وأن القرآنَ بشريٌّ ابتدعه الرسول ﷺ، فقد بدأت هذه الترجمات بالتجريح الشديد، وكان هَمُّها إثبات عدم تنزيله من لَدُن الله عز وجل. ثم راحت تُعَدِّد أخطاء «جاك بيرك» فى ترجمته معانى القرآن الكريم، مستعرضةً رأى لجنة مَجْمَع البحوث الإسلامية ـ التابع للأزهر ـ فى نقد أخطاء «جاك بيرك». وبعد ذلك أمعنت «د. زينب» فى الغضب، وقد بدا هذا أكثر جلاءً فى مطالبتها بأن تتدخل الدولة، وصاحت متهِمةً بأن هناك "مؤامرة"، ثم قامت لترحل فى شكل عاصف!

وعلى عكس حدة أستاذة اللغة الفرنسية، جاء صوت عالِم كبير وصاحب سمعة عالمية بشكل أكثر هدوءًا، مستعرضًا مفهوم "الاستشراق الجديد" فى إطار عالمى، ومشددًا على ضرورة أن يأتى الاهتمام بتراثنا وهويتنا من الداخل، ليس من أجل الآخرين، وإنما ـ على حد قوله ـ من أجل المصالح والمستقبل، والتركيز من مرحلة إلى أخرى على اللغة: كتب النحو، والمعاجم، والدراسات اللغوية، والبحوث الحضارية، وبحوث التراث الثقافى.. فهناك أعمال للترجمة، وأعمال الترجمة كانت لها توجهات معينة ارتبطت بالتوجه العام فى المنطقة التى توجَّه إليها الترجمة أو الكتاب المترجَم.

ومن هنا أنفق «د. حجازى» أغلب حديثه فى التركيز على الجامعات، ضاربًا أمثلة عديدة من تاريخنا على دور المثقف وأهميته فى تعميق واقعنا بشكل صحيح قبل أن ننظر إليه بشكل خاطئ يأتى به الغرب إلينا، وأنه ينبغى الإفادة من الإيجابيات والأخطاء حتى نتجاوزها؛ فترجمة النصوص من أصعب الأشياء. بَيدَ أن صوت «د. حجازى» ومنطقه لم ينفع فى إعادة

الهدوء إلى القاعة حين جاء دور أستاذ الفلسفة «د. مجدى عبد الحافظ» الذى آثَرَ أن يغرّد خارج هذا التيار منذ البداية وأن يأخذ دور صاحب السؤال الذى يحمل إجابته، فقال:

ـ «إن "الاستشراق الجديد" ـ كما عرفتُ الآن ـ بدأ يركز حديثه على الترجمات المقدسة. إذًا فلا بد أن نقول إن القرآن الكريم لا يشكّل نسبة كبيرة جدًّا من الترجمات، وإنما هى نسبة ضئيلة مما يتَرْجَم بالفعل، غير أن الحساسية المفرطة تطرح نفسها حين نتحدث عن القرآن الكريم.

لكن الحقيقة تدفعنى إلى أن أطرح تساؤلات عديدة تتوالى على النحو التالى:

لماذا نترجِم نحن أو الآخرون؟.. هذا سؤال.

ثم.. هل نترجِم من أجل أن نستقطب الغرب أو نجعله يتحول إلى الإسلام؟

ثم.. إذا كان الغرب يترجِم، فهل يترجِم من أجل أن يسىء إلينا ويشوّه صورة الإسلام؟»..

ثم جاءت على الفور إجابات السائل بشكلٍ أكثر وضوحًا، فقال:

ـ «ليست هناك إجابات صحيحة لهذا كله، وأنا أختلف مع مَن طالَبَ بأن تتدخل الدولة لتتصدى للاختراق».

وراح يؤكد أن هذا التعبير الأخير غير مريح، فكيف يمكن للدولة فى هذا العالم الذى يتشكل أن تتصدى للاختراق بأية وسيلة، وبأية أساليب؟.. إننا نفكر ـ إذًا ـ بعقلية الستينيات!

لقد أصبحت السماوات فى بداية هذه الألفية مفتوحة أمام كل هذه الهوائيات، وأصبح هناك الإنترنت الذى يستطيع الإنسان خلاله الدخول فى

حوارات متعددة، وبالتالى فإن المسألة ليست بهذا القَدْر الضيق الذى نراه الآن.

إننا فى عصر العولمة ـ كما حاول أن يعبّر «د. عبد الحافظ» ـ ومن ثم فإن محاولة حصار كل هذه الأمواج والهوائيات التى تأتينا من كل اتجاه صعبة على المستوى الرسمى.. ثم إن حقيقة هذه المؤامرة التى ننسبها لغيرنا ـ كما سمعنا ـ ليست حقيقة.. إننا نفهم الأمر وكأن العالم يتشكل منذ البداية لنسج مؤامرة ضد الإسلام، والإسلام ـ بوضوح ـ ليس هدفًا للغرب، وإنما هى محاولة من "الآخر" للبحث عن المصالح الاقتصادية.

إنه الاقتصاد.. إنها المصالح الاجتماعية أولاً وأخيرًا!

كان الأستاذ هنا يعود للرأى الذى كرره عبر هذا المشهد الطويل..

والرأى الذى تَرَدَّدَ يتَحدد بوضوح فى أن الدين يستخدم كقناع لإخفاء المصالح الاقتصادية الحقيقية التى تتستر غالبًا خلف القضايا التى تثار!..

وهنا بدأ يتضح ما يريد أن يقول.

إن هناك ترجمات تخفى أشياء، وهناك ترجمات أكثر وضوحًا.. ولا نريد أن نُحَمِّل الأشياء أكثر من طاقتها!..

وهناك أشياء نريد أن نفهمها نحن بطريقتنا وكما نريد، ثم هناك أشياء لا نريد أن نفعلها نحن كمُبَادِرِين قبل أن يفعلها الآخرون!.. ثم إننا نتعامل مع التاريخ بشكل تجزيئى، فنأخذ منه ما نريد ونترك ما لا نريد.

وهناك شخص ـ تمنيت أن يكون بيننا الآن ـ قَدَّم قراءة حقيقية لـ «جاك بيرك»، وهو «د. محمود العزب».. (هنا قامت «د. زينب عبد العزيز» فى غضب وذهبت)!

هذا الشخص قدم قراءة لمحاولة «جاك بيرك» انتقده فيها، واستفاد منه

«جاك بيرك» فى الطبعة الثانية لترجمته معانىَ النص القرآنى، مستفيدًا من العديد مما قدمه «العزب»، غير أن ترجمة «جاك بيرك» تحتاج إلى موقف آخر. ثم إننا يجب أن نُخْضِع "الهرمنيوطيقا" و"السيميونيطيقا" وكل المناهج ـ مثل مناهج الألسنية الحديثة مثلاً ـ على اللغة، هل نظل نمجد اللغة ونعيش فى تخلفنا الثقافى بحجة عدم مس العربية؟.. إذًا فكيف نتقدم؟.. ونحن ـ على سبيل المثال ـ ما زلنا نرى بيننا من الغربيين مَن يعملون فى المراكز الثقافية وينجزون لنا ترجمات حديثة جيدة .. وهنا، كان لا بد أن نعيد ما سبقَ أن رددته فى بداية الندوة. يبدو أننى لابد أن ألفت نظر الدكتور إلى الدور المريب لبعض هذه المراكز الثقافية الأجنبية.. أليس هذا من صنف "الاستشراق الجديد"؟.. بَيدَ أننى ما كدت أنهى السؤال، حتى علت أصواتٌ أخرى عنيدة تسعى إلى الحوار وتنتظره.

الاستشراق .. مشهد أخير

ثامنًا

أدرت بـ "الأهرام الدولى" هذه الندوة التى حضرها عدد كبير من المثقفين والمتخصصين، وكان الموضوع الذى جاءوا من أجله عن "الاستشراق الجديد والترجمات المعاصرة". والحوار العنيد العنيف هنا يمثل المشهد الثانى من هذا اللقاء العلمى.

كان عدد كبير من الحاضرين قد شارك حول مفهوم «الاستشراق الجديد» وما أثاره عبر عدد كبير من هؤلاء الحاضرين، وكان منهم الدكاترة «إيريس صفوت» و«محمد عونى» و«إيمان السعيد جلال» و«خلف عبد العظيم الميرى» و«مصطفى ماهر» وغيرهم.

على أن أكثر ما أثار الجدل فى الساعة الأولى، عددٌ من المحاضرين كما

رأينا فى المرة الماضية، ومن ثم فلن نعيد الأسئلة الحائرة، وإنما سنلتقيها ثانيةً عبر عديد من الإجابات التى شارك فيها عدد آخر ممن حاولوا أن يشاركوا فى هذا المشهد، بشكلٍ لا يخلو من «هدوء المثقفين» المَشُوب بعنف يتوارى وراء الكلمات الهادئة والتعبيرات الفضفاضة.

كان السؤال الذى يطرح نفسه بشكل مستمر: ما هى ملامح "الاستشراق الجديد"؟.. وهل هناك علاقة بينه وبين "الاستشراق القديم"؟.. كيف؟.. ولماذا؟.. وكيف واجهنا هذا كله؟.. وكيف نتنبه نحن كباحثين ومعاهد ومؤسسات إلى ما يراد بنا فى هذا العالم الحديث الذى تسعى فيه "العولمة" إلى الأهداف القديمة، وإنْ يكن بمسميات جديدة وأدوات حديثة؟..

وهذا ما يتواصل عنده مشهد آخر.

(2)

المشهد الأخير

كان أول من راح يغيب فى هذا المشهد ويتماهى فيه، «د. محمد خليفة حسن»، وهو ـ لمن لا يعرفه ـ عالِم كبير، وأستاذ بمعهد الدراسات السياسية الآسيوية، كما يشغل فى الوقت نفسه منصب وكيل كلية الآداب بجامعة القاهرة.

وبهدوء شديد، بدأ فى محاولة تفسير هذا المفهوم "الاستشراق الجديد".. وهو تفسير لم يختلف حوله أحد بعد ذلك.

إن عبارة "الاستشراق" ليست عربية، وإنما هى غربية، نُحِتَتْ هناك وصُدِّرَتْ إلينا هنا، فكان أسوأ ما يكتب عنها الآن ما يسمى بالـ "استشراق الجديد".

وكما أن كلمة "استشراق" ليست جديدة، كذلك فإن كلمة "جديد" لا

تعبّر عن تغيير أهداف الاستشراق أو دوافعه أو مسيرته أو منهجه، وإنما الذى تغير أنه قد طرأت على الاستشراق عدة متغيرات ارتبطت بالتغييرات التى حدثت وما زالت تحدث فى الفترة المعاصرة، لا سيما أنه بدايةً من النصف الثانى من القرن العشرين بدأ الشرق يدخل مرحلة تغير مرتبطة بأمور عديدة.

لقد أراد «د. خليفة» أن يؤكد أن هولاء المستشرقين الجدد من الغربيين غيروا الاستشراق التقليدى ووجهوه وجهة جديدة، ومن أهم ملامح هذا التغيير الذى طرأ على الاستشراق: التحول الذى حدث فى الدراسات الشرق أوسطية. والآن نحن أمام "خبراء" متخصصين فى شئون الشرق الأوسط موزَّعين على مجالات متعددة، فهناك الخبير الدينى، والسياحى، والسياسى، والاقتصادى، والاجتماعى.. إلى غير ذلك.

أما مراكز الاستشراق التقليدى ففى انحسار شديد، وبدأ يحل محلها ما يعرف بمراكز البحوث الشرق أوسطية ذات الاهتمامات السياسية والاقتصادية. إننا أمام موظف فى إحدى دوائر الخارجية الأمريكية أو الأوروبية يؤدى وظيفة، مناطها تقديم الخبرة للمؤسسات الغربية، ومنها مؤسسات اقتصادية وشركات بترول وغيرها.

إن "الاستشراق الجديد" يعنى هنا الدراسات الإقليمية.. الدراسات التى تعنى بالفطرية والتركيز على الأقاليم الشرق أوسطية.. وتقسيم الشرق كله.. ثم تقسيم الوطن العربى.

إنه تعبير جديد يعبّر عن أزمة أخلاقية يمر بها الاستشراق.

بَيدَ أن الباحث عاد ليشير إلى ضرورة وجود وعى ذاتى لدينا إزاء هذا كله، ولدينا بالفعل محاولات ذات قدرة على كشف زيف الاستشراق وشبهاته المتوافرة، خاصةً فى مُناخٍ سقط فيه الاتحاد السوفييتى بما يعنى

سقوط أكبر مدرسة استشراقية (المدرسة الشيوعية بفروعها المتعددة)، وهو سقوط يحمل معه دليل وجود أزمة فى الاستشراق الحديث، خاصةً مع ظهور الإنترنت، مما يدفع بالعرب أكثر ليتنبهوا لهذه المحاولات التى كانت تريد بهم الشر بمسميات متعددة.

ولقد راح أكثر من مشارك يؤمّن على رأى «د. خليفة» بأن الاستشراق ـ بوجهيه القديم والجديد ـ هدفه واحد.. إنه يستهدفنا دون الحديث العقيم عن عدم وجود مؤامرة ضدنا، أو أننا فى موقف ضعيف لأننا لا نقف فى صف الاقتصاد الرأسمالى، وإنما هو الغرب الذى يتعامل مع الشرق أيديولوجيا لا إبستمولوجيا. إن عقدة الاستعمار ما زالت تهيمن على الشمال حتى الآن، وتأملوا الأحداث حولنا بشكل تجريدي خالص..

وهو ما نتمهل فيه عند أستاذ جامعة الرياض.

(3)

لا فارق بين الاستشراق الجديد والقديم، على الأقل فى التوجهات.

هذه هى النتيجة التى راح يؤكدها «د. بشير العيسوى» ضاربًا أمثلة عديدة؛ ففى مراسم تشييع جنازة الرئيس السورى «حافظ الأسد» ـ يقول أستاذ جامعة الإمام ـ استضافت قناة C.N.N الإخبارية واحدًا من المستشرقين الجدد ـ هو «مايكل هدبسون» ـ الذى راح يكيل لنا الاتهامات القديمة نفسها، ويرَى هذا فى مواقفه من حرب الخليج الثانية، أو فى طريقة تناوله للأدب العربى، أو كلامه عن القرآن الكريم.. وأستطيع أن أرى أن وجهة نظره فى قرآننا الكريم هى تلك التى نقلتها «د. زينب عبد العزيز» عن لجنة الأزهر حين جاء الحديث عن ترجمة معانى القرآن الكريم لـ «جاك بيرك»؛ فقد راح «هدسون» ينظر إلى العرب على أنهم مجموعة من الهمج!..

ويذكر الباحث أنه حين تَحَاوَرَ مع هذا المستشرق بالرياض، قال بوضوح شديد لمحدثه العربى (وكان الحوار فى أفخم فنادق الرياض):

- إنكم تركبون الجِمال بعد خروجكم من هنا!

على أن «د. بشير» راح ينقل رأيه فيما قاله «د. مجدى عبد الحافظ» غاضبًا، فقال: «لقد أثار حفيظتى!».. هكذا قال أستاذ الرياض وهو يعقب على كلام أستاذ جامعة حلوان. كان «د. عبد الحافظ» ـ لمن لا يتذكر ـ قد راح يوجه اتهام النقد للدكتورة «زينب عبد العزيز» حين تحدثت عن المؤامرة، فقال بالحرف الواحد: «إننى لا أوافق على تعبير "المؤامرة ضد الإسلام" وكأن العالم يتشكل منذ البداية ليعمل ضدنا».

وعاد صوت «د. بشير» ليرفض هذا المنطق، فقال: «إننى أرى ـ راح يؤكد ـ أن الإسلام مستهدَف، وأنه على قائمة الفكر الغربى سياسيا وعسكريا وثقافيا».

وراح يذكّرنا جميعًا بمثالٍ حدث دون أن نتنبه جميعًا لدلالاته.. فحينما انهار الاتحاد السوفييتى وعُينَ أمين جديد لحلف الناتو، سُئل:

ـ بعد أن سقط الاتحاد السوفييتى، من هو عدو الناتو الأول؟

فقال الأمين بشكل سريع ودون تردد:

ـ الإسلام السياسى!

ويؤكد المتحدث أن أمين الناتو ردد كلمة "الإسلام" 16 مرة دون أن يذكر "السياسى"، وهو أمر بمنزلة إضاءة الضوء الأخضر للغرب، إيعازًا إليه بأن الإسلام هو الهدف!

• والواقع أن الإسلام لم يكن هدفًا الآن فقط، وإنما الآن وفى المستقبل.. ففى كتاب "الإعداد للقرن الحادى والعشرين" لـ «جون كيندى»، وفى الصفحة 32 بالتحديد، سنجد المؤلف يقول: «إنه فى أَوْج الحرب الباردة، كان هناك اتفاق "جنتلمان" بين الناتو وحلف وارسو على ألا يجَنَّد من

الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفييتى أىُّ جنود فى الجيش الأحمر الروسى.. وإذا كان هناك قادة مسلمون، فيشْتَرَط عليهم أن يكفروا بإسلاميتهم وأن يصبحوا شيوعيين»!

أليس الإسلام ـ إذًا ـ مستهدفًا؟!

على أن قضية المنهج كانت مَثَارَ عدم اتفاق حاد هنا.

إن استخدام الهرمنيوطيقا والإبستمولوجيا والألسنيات الحديثة، والبلاغة الحديثة على العربية، لم يوافق عليه عدد كبير من الحاضرين، فالنص المقدس يجب عدم إخضاعه لمناهج عُرفت بعده بألف وأربعمائة عام.. وراح «د. بشير» يدلل على هذا، إذ يرى أن أصول العربية ليست كأصول الفرنسية أو الألمانية، فهناك أُسَر من اللغات يمكن تطبيق هذه المناهج عليها، وهناك أخرى لا نستطيع أن نمارس هذا معها. لقد بدا أن هناك شيئًا من "الجَوْر" (وهى لفظة ترددت فى استخدام المناهج الحديثة على القرآن الكريم).

وعلى هذا النحو، فإن الحوار خلَّف لنا مشكلات أخرى أعمق لم نستطع أن نتوصل معها حتى إلى أنصاف حلول، وفى مقدمتها:

هل نواجه مؤامرة، أم هو الاقتصاد والمصالح؟

هل تصلح المناهج الحديثة للتعامل مع النص المقدس؟

لماذا لم نطلع بأعمالنا ونقوم بما يقوم به "الاستشراق الجديد"؟

وهل "الاستشراق الجديد" خير من الاستشراق القديم؟

أسئلة كثيرة أثيرت، وهى ـ إذا جاز لنا التعبير من واقع الحوار ـ أسئلة عنيدة لا تزال على جبهة الاستشراق الجديد..

أسئلة من نوع الأسئلة التى تحمل أقفالها!

إسرائيل.. ويهود التاريخ

أولاً

سؤال لا يلبث أن يتفرع إلى أسئلة أخرى. أما السؤال فهو:

- مَن هم يهود اليوم؟

ونمضي خطوة أخرى لإكمال السؤال:

- هل يهود التاريخ هم يهود اليوم؟

ونمضي إلى أسئلة كبيرة أخرى..

أسئلة تبدو فى إجابتها أقرب إلى البدهيات التى تحاول جهات أخرى كبيرة ـ وهى صهيونية غربية إمبريالية هذه المرة ـ أن تحيل الأسئلة إلى إجابات تأتينا من الغرب، ولا يكون علينا ـ للغفلة أو الجهل أو الوعى المزيف ـ إلا أن نرى إجابة الغرب وقد أصبحت حقيقة..

بل الأدهى أن تتحول الإجابة إلى بدهية تكون أقرب إلى التصديق منها إلى إثارة السؤال!

ونعيد طرح السؤال: من هم اليهود؟

ولا يلبث أن يتفرع هذا السؤال إلى أسئلة أخرى من نوع السؤال الأول:

ـ من هم اليهود؟.. وأين يقعون فى العائلة البشرية؟

ـ وما العلاقة بين يهود التوراة ويهود اليوم؟

ـ وإلى أى مدى ينتسب يهود القرن العشرين بعد الميلاد إلى بنى إسرائيل القرن العشرين قبل الميلاد؟

والإجابة بشكل مباشر (صهيونى غربى إمبريالى): هم يهود التاريخ.

وتظل هذه الإجابة (رغم ما يبدو فيها من إجابة): بل هم يهود اليوم، ولا علاقة لهم بيهود التاريخ.

فلنترك الخبر إلى المبتدإ..

ولنترك الأسئلة إلى محاولة الإجابة عنها.

نعود إلى الكتاب الموسوعى "مصر القديمة" قبل أن نعود إلى ما يثيره.

يتردد فى الأجزاء الأولى من هذا الكتاب الكبير قبيلة «بنى إسرائيل»، ويذكر «سليم حسن» أن هذا نجده فى قصيدة منقوشة على لوحة تذكارية من الجرانيت الأسود، وهى المسماة 'لوحة إسرائيل'، وقد أقيمت فى معبد الملك الجنائزى، وفى ختام القصيدة الرائعة، يعدد لنا الشاعر القبائل أو الأقاليم التى أخضعها «مرنبتاح»، ومن بينها بنى إسرائيل.

ويقول «سليم حسن» فى الجزء الثامن: إن هذه أول مرة يذكر فيها هؤلاء القوم فى المتون المصرية، ولذلك سُميت هذه اللوحة باسمهم، وكذلك قيل عن «مرنبتاح» إنه "فرعون موسى" الذي ذُكر فى القرآن الكريم وغيره من الكتب المقدسة. والمهم هنا أن القصيدة قد ذكرت فى هذا الصدد سطرًا أو عبارة تقول: «وإسرائيل خَرِبَتْ وليس بها بذر»، ويضيف لنا فى الهامش أن هذه هى أول مرة يذكر فيها اسم «إسرائيل» فى نص مصرى.. وبموازاته بأسماء أخرى، نجد أن كلمة «إسرائيل» كُتبت لتدل على شعب لا على بلد..

وإذا كانت هذه القصيدة قد دُوِّنت فى عام 1230 ق. م. كما قرأنا عند «سليم حسن»، فإنها تثير ـ كما تردد المصادر الأحدث منها فيما بعد ـ أن «مرنبتاح» فرعون مصر (1236 ـ 1223 ق. م) قام بصد هجوم ضخم من قِبَل شعوب البحر والليبيين، وقد ورد فى سجلاته بالفعل أنه هاجم بنى إسرائيل وقضى عليهم تمامًا فى هذه الفترة.

وتتردد كلمة «إسرائيل» و«ياسرائيل» و«العبرانيين» ـ كما سنرى ـ فى التاريخ الفرعونى خلال هذه الحقبة (الجزءان السابع والتاسع من كتاب "مصر القديمة" لـ «سليم حسن» بوجه خاص)، وبعدها فى التاريخ حتى اليوم فى عصور وأزمنة كثيرة.

ونحن لا نريد أن نسهب أكثر فى هذه الحقبة، فإن أكثر ما يلفت النظر هنا هو ذلك النص الذى جاء فيه شكل القضاء على إسرائيل. نقرأ من القصيدة الطويلة القوية عباراتٍ صغيرةً، نختارها لأهميتها على هذا النحو:

«وبلاد "خاتى" أصبحت مسالمة..
و"كنعان" أُسرت مع كل خبيث.
أزيلت "عسقلان"..
و"جيزر" قُبض عليها..
و"ينوم" أصبحت لا شىء..
و"إسرائيل" خربت وليس بها بذر
و"خارو" أصبحت أرملة لمصر».

وهنا يقول «سليم حسن» فى الهامش تعليقًا عليها:

«وعلى الرغم من وجود هذه العبارة فى اللغة المصرية القديمة فى غير هذا المكان، فإن استعمالها بالذات هنا، بالنسبة لبنى إسرائيل، كان ذا أهمية عظيمة..

وهى أهمية سيدلل عليها هو وغيره فيما بعد، على اعتبار أن إسرائيل فى عصر هذا الملك الفرعونى قد اجتُثت جذورها تمامًا ولم يعُدْ لها وجود، سواء على الأرض المصرية، أو لتَحَرُّر الأرض المصرية منها».

وقريبٌ مما قاله «سليم حسن»، ترجَم علماء الآثار الجملة التى جاء فيها ذكرٌ لإسرائيل بأشكال أخرى، نقترب منها قبل أن نعاود وصولنا إلى الخبر.

فى ترجمات كثيرة نقرأ هذه التفسيرات:

- عند «برستد»: «وإسرائيل قد أقفروا، وبذرتهم قد انقطعت».

- عند «جرفث»: «وقوم إسرائيل قد صاروا قَفْرًا، ومحاصيلهم قد ذهبت».

- عند «بترى»: «وقوم إسرائيل قد أُتلِفوا، وليس لديهم غَلَّة (بذر)».

- عند «نافيل»: «وإسرائيل قد مُحِىَ، وبذرته لا وجود لها».

وفصَّل لنا «سليم حسن» هذه التفسيرات، وأضاف عليها أن «إسرائيل» - حتى فى سياق ذكرهم مع غيرهم - يظلون أجانب، والنتيجة أن «إسرائيل» كانوا أجانب لا وطن لهم، فقد كانوا - كما تسميهم التوراة - "أبناء إسرائيل"، وليسوا من سكان هذه البلاد أو تلك.. إلى غير ذلك مما يؤكد أن يهود مصر القديمة كانوا أجانب، سواء عن مصر أو عن أرض "كنعان" (فلسطين).. وخلاصة هذا كله أنهم طُردوا من أرض مصر.

ومهما يكن من أمرِ التفسيرات التاريخية الأخرى لخروج اليهود من مصر، سواء كان هذا الخروج فى مصرَ «رمسيس الثانى» أَمْ «مرنبتاح» بعد ذلك، فإنهم فى جميع الحالات يظلون أقوامًا - أو قبائل - ظهرت فى التاريخ فيما بعد باسم "إسرائيل" أو "العبرانيين" أو "اليهود"، غير مرتبطين أنثروبولوجيا - عند «جمال حمدان» - باليهود الذين ظهروا فى القرن العشرين قبل الميلاد بأية حال.

لقد خصص «جمال حمدان» دراسته المهمة، وفى فترة مبكرة (وكثير من المؤرخين بعده) لتأكيد أن هناك علاقة حتمية بين الدراسة الأنثروبولوجية الصرفة والجانب السياسى كما يتمثل فى الأوضاع السياسية، كما ينبغى أن ندرك أن الصهيونية السياسية تسخّر الأبحاث الأنثروبولوجية وترتب نتائجها مسبقًا بحيث تخدم دعاواهم السياسية فى فلسطين.

وتستمر رحلة الأنثروبولوجيا لتنتهى إلى نتيجة مهمة، هى ذوبان اليهود الذين نعرفهم فى التاريخ الآن. وفى السياق الأخير، نرى أن النتيجة أنه يكاد يصبح جسم اليهود فى آخر المطاف شيئًا مختلفًا أنثروبولوجيا عن يهود التوراة، وإنْ لم تكن لهم علاقة بهم تقريبًا فى الأعم الأغلب.

إن الصلة الجنسية والجينية بين يهود اليوم ويهود الأمس مُنْبَتَّة وفاقدة تمامًا من الناحية العملية، فهم فى الواقع أوروبيون سلاف وآريون أكثر منهم ساميين. وهذا يصدق على الأشكنازيم فى أوروبا، وعلى امتدادهم الأمريكى الذى زاد اختلاطه فى البوتقة الأمريكية، أكثر منه على أية مجموعة أخرى من اليهود.

إن الباحث ينهى دراسته المهمة، معلنًا فى السطور الأخيرة منها أن اليهود اليوم ليسوا من بنى إسرائيل، وأن هؤلاء شىء وأولئك شىء آخر فى الأنثروبولوجيا، ولا رابطة بين الطرفين.

والغريب أن المحاولات لم تتوقف منذ نكبة 1948 م حتى اليوم، فلا يزال كُتّابٌ يهود يبرهنون أن يهود التاريخ هم يهود اليوم، بل إنهم يستخدمون كل الوسائل ليؤكدوا حقهم فى "أرض الميعاد"، والأكثر من هذا أنهم يستخدمون العلم الحديث، فتخرج علينا أبرز الباحثات فى البحث العلمى الأمريكى، البروفيسورة الإسرائيلية «بت شيفع بونيه» من جامعة تل أبيب، وزملاؤها الإسرائيليون برئاسة بروفيسور أمريكى، ليزعم الجميع

أن العرب واليهود أشقاء جينيا من خلال دراسة مقارنة علمية ـ كما يقولون ـ وأن الدراسة تعتمد على الكروموزوم Y إلخ (انظر شبكة الإنترنت، موقع www.pnas.org).

لقد أصبح من المؤكد اليوم ـ علميا ـ أن يهود التاريخ وقعوا فى مصائر مختلفة تُبَاعِد بينهم وبين هؤلاء الذين جاءوا بعد عشرين قرنًا أخرى بعد الميلاد ليزعموا أنهم أبناء يهود التاريخ، فيحاولون أن يقيموا دولة، فى حين أن يهود التاريخ ليست لهم علاقةٌ مّا بيهود النكبة.

كما أن يهود التاريخ لهم علاقة أكيدة بشراسة الإمبريالية المعاصرة وآلياتها التى تقوم على الاقتصاد وليس على الأيديولوجيا أو الأنثروبولوجيا بأية حال،

لكن يبدو أننا محتاجون دائمًا إلى العَوْد ـ مرة أخرى ـ إلى المربع الأول.

إسرائيل من «سليم حسن» إلى «المسيرى»

ثانيًا

العَوْد دائمًا يسلمنا إلى المبتدإ..

والمبتدأ يظل يراوح بنا من الماضى البعيد إلى الحاضر القريب عبر سؤال واحد، هو:

ـ من هم يهود اليوم؟

وبشكل أكثر دقة:

ـ هل يهود التاريخ هم يهود اليوم؟

والمرور من نقطة المبتدإ، من تاريخ «سليم حسن»، يسلمنا إلى تواريخ أخرى تالية ليصل بنا إلى العصر الحاضر. لكن يظل الفارق دائمًا واضحًا

وشاسعًا ودالاً بين التاريخ والحاضر.. بين «سليم حسن» فى كتابه الموسوعى «مصر القديمة»، و«عبد الوهّاب المسيرى» فى موسوعة «اليهود واليهودية والصهيونية». وعلى ما فى الإجابة من بدهيةٍ أن يهود التاريخ ليسوا هم يهود الحاضر، فإننا مضطرون الآن إلى التمهل أكثر عند هذا الحاضر الذى يزعم فيه العنصريون من الحاخامات الصهاينة فى إسرائيل وجود علاقة وثيقة بين يهود التوراة ويهود هذا الزمان..

ولكن هذه المرة عبر هذه الموسوعة الحديثة التى تتعدد فيها المصطلحات، وتتحدد فيها الإجابات.

ولنترك المبتدأ إلى الخبر.

(2)

حالًما ندخل هذه الموسوعة الحديثة، نجد أنفسنا أمام مصطلحات كثيرة على جانب كبير من الدقة، وجانب صحيح من الطريق يصل بنا إلى إجابات علمية، فنحن أمام مصطلحات من نوع: "إسرائيل" و"إسرائيلى" و"إسرائيليات" و"يسرائيل" و"إسرائيل ويست" و"يهودى" و"عبرى" و"رؤية صهيونية" و"صهيونية بنيوية" و"أغيار" و"يهودية" و"يهودية أرثوذكسية" و"يهودية حاخامية".. إلى غير ذلك مما يقترب بنا أكثر من تحديد قاطع للعلاقة التاريخية. وسوف نكتفى ببعض المصطلحات التى تقربنا أكثر من الإجابة..

إن أكثر ما يلاحَظ فى هذه المصطلحات هو الضبط الشديد، مما يسلمنا إلى المعنى الأخير، فيمضى المصطلح أحيانًا من التاريخ القديم ليعود إليه، ويمضى أحيانًا من التاريخ القديم إلى التاريخ الحديث ليكشف عنه، ويمضى أحيانًا من المعنى ليزيده اتساعًا. إننا ـ على سبيل المثال ـ أمام عدة مصطلحات تتشابه لكنها تفترق افتراقًا بعيدًا، وعلى سبيل المثال:

"يسرائيل" و"بنو إسرائيل" و"شعب إسرائيل" و"جماعة إسرائيل".. إلى غير ذلك.

ولنتوقف قليلاً عند بعض هذه المصطلحات:

- **"يسرائيل"**: كلمة عبرية قديمة غامضة المعنى، يمكن تقسيمها إلى "يسرا"؛ أي الذى يحارب أو يصارع.. و«إيل»، وهو الأصل السامى لكلمة إله.. فالكلمة تعنى حرفيا: الذى يصارع الإله، أو جندى الإله «إيل». وفى كل التفسيرات يبرز معنيان أساسيان، هما: معنى الصراع والحرب، ومعنى القداسة.

وتشير الموسوعة الحديثة إلى الموسوعة القديمة، حيث تذكّرنا أن كلمة "إسرائيل" وردت فى التاريخ المصرى القديم فى عهد «مرنبتاح» [مصر القديمة، ج 7، ص97؛ وموسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج 2، ص 206]، وتتعدد التفسيرات، وتتوحد المعانى فى البدء وصولاً إلى الحاضر.

- **"إسرائيل/ يسرائيل"**: تُستخدم كلمة "إسرائيل" لتشير إلى الدولة الصهيونية، والإسرائيليون هم سكانها. أما كلمة "يسرائيل" فتُستخدم للإشارة إلى المعنى الدينى الأصلى. والـ "يسرائيليون" هم العبرانيون القدامى باعتبارهم جماعات دينية.

- **"شعب إسرائيل"**: هو أحد الأسماء التى تطلق على العبرانيين من حيث هم جماعات دينية قديمة تسبق تبلور اليهودية، وهو مرادف للكلمتين "بنى يسرائيل" و"اليسرائيليين"، وكذلك "كنيست يسرائيل"؛ أى: "جماعة يسرائيل".

- **"إسرائيلى"**: هو مواطن الدولة الصهيونية.. وهو يختلف عن "اليسرائيلى" أو عضو جماعة يسرائيل، وهم العبرانيون كجماعة دينية. وليس كل الإسرائيليين صهاينة، تمامًا كما أن الصهاينة ليسوا بالضرورة إسرائيليين.

ولا يوجد أى ترادف بين "إسرائيلى" و"يهودى"، بل إن هناك إسرائيليين كثيرين يرفضون العقيدة اليهودية!

ويلاحَظ هنا أن الباحث المعاصر يتحدث عن يهود "إسرائيل التاريخ" باعتبار أنهم ينتمون إلى التاريخ اليهودى الذى يستقل عن تواريخ الشعوب الأخرى. وتطوُّر أعضاء الجامعات اليهودية ـ حسب هذا التصور ـ محكوم بمراحل هذا التاريخ. ومفهوم التاريخ اليهودى العام والعالمى ليست له قيمة تفسيرية كبيرة؛ فالأحداث الأساسية فى تاريخ يهود إنجلترا ـ مثلاً ـ هى الثورة الصناعية والتوسع الإمبريالى البريطانى والحربان الغربيتان العالميتان الأولى والثانية. أما أهم أحداث تاريخ يهود بولندا، فهو ظهور «بوجدان شميلنكى» زعيم القوزاق، ثم تقسيم بولندا. وكل هذه الأحداث ليست جزءًا مما يسمى "التاريخ اليهودى"، وإنما هى جزء من تاريخ المجتمعات التى يعيش أعضاء الجماعات اليهودية بين ظهرانيها.. ولا يمكن فهم هذه الظواهر التاريخية إلا بفهم هذا التاريخ.. ولذا فنحن نفضّل الحديث عن تواريخ الجماعات اليهودية، فتاريخ كل جماعة يهودية قد يكون له استقلاله النسبى عن تاريخ المجتمع، ولكن لا علاقة له بتاريخٍ يهودىٍّ عالمىٍّ عامٍّ.

وعلى هذا النحو، يفترض «د. المسيرى» ـ كما يشير فى موضع آخر ـ إلى حقيقة أنه حين يتحرك اليهود داخل الإطار التاريخى، لا يفهم سلوكهم إلا بفهم آلياته ومُرَكَّباته المستقلة عن تواريخ الشعوب الأخرى. وتطوُّر أعضاء الجماعات اليهودية ـ حسب هذا التصور ـ محكوم بمراحل هذا التاريخ.

وهو ما يصل بنا بشكل مباشر إلى انفصال ـ لا اتصال ـ بين التاريخ والحاضر.

(3)

وهو ما يقترب بنا أكثر من الإجابة عن السؤال حول العلاقة بين التاريخ

والحاضر عبر أنثروبولوجيا ـ أو أيديولوجيا ـ بما يشير إلى أن "إسرائيل" تزعم ـ كذبًا ـ أن العلاقة أكيدة بين الحاضر والماضى..

بين إسرائيل التاريخ وإسرائيل الحديثة..

وهى ثنائية ضدية لا يستقيم معها الفهم العقلانى لحركة التاريخ!

لقد سعى الكثيرون فى اللغة العربية، وعدد كبير من الغربيين فى اللغات الأخرى، لتأكيد بدهية أن يهود إسرائيل الآن ليست لهم أية علاقة بيهود الأمس، وأن يهود اليوم ـ على حد تعبير «جمال حمدان» ـ ليسوا غير «أقارب الأوروبيين والأمريكيين، بل هم فى الأعم الأغلب بعضٌ وجزءٌ منهم، وشريحة ـ لحمًا ودمًا ـ وإن اختلف الدين.. إلخ».

إن موسوعة الدكتور «المسيرى» تحدد المصطلحات بشكل علمى صارم لتؤكد هذا المعنى، فمصطلح "جماعة يسرائيل" ـ على سبيل المثال ـ يقدِّم إلينا باشتقاقه من كلمة "يسرائيل"، وهى كلمة من المعجم الدينى اليهودى، تعنى: الذى يصارع الإله. وهنا تقول الموسوعة الحديثة لـ «المسيرى»:

«ونحن نستخدم الكلمة لنشير إلى العبرانيين القدامى من حيث هم جماعة دينية، مقابل العبرانيين القدامى كجماعة عرقية أو إثنية.

ومن ثم نشير إلى.. أننا نستخدم كلمة "يسرائيل" للإشارة إلى مملكة "يسرائيل" الشمالية العبرانية ـ مقابل مملكة "يهودا" الجنوبية ـ لتمييزها عن دولة إسرائيل الحديثة».

بل إن «المسيرى» لا يكتفى بهذا، وإنما يضيف هذه الفقرة التى تدل دلالة أكيدة على انتفاء هذه العلاقة، فنقرأ فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة:

«ونحن نفعل ذلك حتى لا نخلط بين النسق الدينى اليهودى والواقع الاستيطانى فى فلسطين المحتلة، ولا نخلط بين العبرانيين القدامى

والمستوطنين الصهاينة، وهو خلط تحرص كلٌّ من الإمبريالية الغربية والمؤسسة الصهيونية عليه باستخدام دالٍّ واحدٍ يشير إلى مدلولين مختلفين للإيهام بوجود استمرار وترادف بين النسق الديني والواقع الاستيطاني، وبالتالي إكساب عملية الاغتصاب الصهيوني لفلسطين شرعية وقداسة، وكذلك تصوير الهجوم على المستوطنين الصهاينة على أنه معاداة لليهود ونوع من التعصب الديني!».

وهو ما نجده بشكل عام في صيحات عدوانية كثيرة، لعل في مقدمتها: التصريحات الوقحة للحاخام «عوفاديا يوسف» زعيم حزب "شاس"، حيث يلقى اتهاماته (وكأنها آتية من عمق التاريخ) في كل اتجاه، ولا يتعامل مع الحاضر إلا بروح التعصب القديم، إما عبر تصريحاته في صحيفة يهودية متعصبة، وإما وعظه كل سبت حيث يتعامل مع الأغيار (العرب) بشكل مَقِيت.

بَيدَ أن هذا كله يجب ألا يخدعنا نحن العرب، إذ إن «عوفاديا» وغيره من الحاخامات الغربيين الذين يعيشون في أرضنا العربية، ليسوا هم أحفاد الحاخامات اليهود، يهود «مصر القديمة» أو يهود الكتب السماوية بعد ذلك بأربعة قرون على وجه التقريب.

إن إسرائيل قد خربت وانقطعت بذرتها ـ كما نجدها في لوحة بمعبد الكرنك في التاريخ ـ وإسرائيل الآن آتية من عمق الغرب، حيث إنهم «أوروبيون سلاف وآريون أكثر منهم ساميين».

المسيح اليهودي.. بين السياسة والأسطورة!

أفعاله في شتى أنحاء العالم، خاصة العالم العربي، ليست غير خلط بين السياسي والديني، وبوجه أدق بين الرأسمالية في أعلى ذراها والصهيونية في

أبشع صورة لها، فإذا بنا أمام التحالف بين الأصولية الغربية واليمين الإسرائيلى فى آن معًا.. بين الدين - أو اليمين الدينى - حين يتحول إلى أسطورة، والسياسى حين يصبح توجهًا عامًا حقيقيا فى عالم اليوم.

والواقع أن محاولة فهم ما يحدث يبدو للوهلة الأولى أقرب إلى السريالية أو البدهية.. وفى الحالتين، نحن أمام الغضب العربى والإسلامى، فى غفلة عما يحدث وراء الأضابير، أو إزاء السفور فى تفسير ما نراه أمامنا.

ما الذى يحدث فى القدس؟

ليس هذا سؤالاً عن موقف إسرائيل، وإنما عن موقف الغرب (والولايات المتحدة بوجه خاص) وراء إسرائيل.. إنه موقف "المسيح اليهودى" الجديد!

ولنفتح عين العدسة على آخرها ونحاول أن نعاود النظر.

لقد أسهبنا كثيرًا قبل ذلك فى البرهنة (وهو ما لا يحتاج إلى برهنة) على غياب الصلة بين صهاينة اليوم ويهود الأمس (أسهبنا فى هذا عند الحديث عن كتاب "مصر القديمة")، وأكدنا - عبر عدد كبير من المرجعيات - أن الصلة الجنسية والجينية بين يهود اليوم ويهود الأمس مُنْبَتَّة وفاقدة تمامًا من الناحية العملية، وأنهم بالفعل أوروبيون سلاف وآريون أكثر منهم ساميين. وهذا يصدق على الأشكنازيم فى أوروبا، وعلى امتدادهم بوجه خاص من الأمريكيين، حيث زاد اختلاطهم فى البوتقة الأمريكية، وزاد التعاون بينهم وبين الصهاينة الآن.. والأمريكان أيضًا.

نقول إننا أسهبنا قبل ذلك فى شرح غياب العلاقة العضوية بين يهود التوراة وصهاينة اليوم الآتين - أو المؤيدين - من الولايات المتحدة الأمريكية.. صورة الحاضر ما زالت تَتْرَى بصور هذا التحالف البشع دون أن يتنبه أحد. إن نظرةً إلى الأمس ترينا أن العلاقة كانت وثيقة بين اليمين

اليهودى الذى بدا واضحًا منذ فترة مبكرة، والأصولية الأمريكية التى كانت تتحالف معه بوعى شديد.. فالعلاقة بين الأمريكيين الأوائل من المهاجرين رَسَّخَتْ فى يقينهم أنهم "شعب الله المختار".

وهذا التطور التاريخى رصده لنا زميلنا «رضا هلال» فى أحدث كتاب صدر له "المسيح اليهودى ونهاية العالم"، وعنوانه الثانى أكثر دقة: "المسيحية السياسية والأصولية فى أمريكا". ورغم أنه يصْعُبُ علينا رصد كل ما جاء فى الكتاب، فإن التطور المنهجى يشير إلى هذا عبر فصوله، بدءًا من ولادة المسيح فى الناصرة من أصل يهودى، مرورًا بالمسيح اليهودى الأمريكى وحركة الإحياء الدينى والمسيحية الصهيونية، ثم صعود اليمين المسيحى واللوبى المسيحى الصهيونى، عبورًا فوق هذا التطور فى حلقاته المتوالية حتى اليوم.

ومنذ البداية، يركز الباحث على الفرضية التى بدأ منها من حيث ارتباط تدين وتَهَوُّد أمريكا بنشأتها؛ فالمهاجرون الأوائل اعتبروا أمريكا هى أورشليم الجديدة، وتستمر المقارنة بين الغربيين المستوطنين الجدد من البروتستانت البيوريتانيين والخروج والتيه ـ كما عرفنا من التوراة ـ ودخول أرض الميعاد، حتى إن المؤرخ «جون فيسك» يقول: «حيث ترى تاريخًنا يصنع فى أمريكا، تجد تاريخًا أمريكيا يهوديا».

بَيدَ أنه مع التطور الزمنى، نلحظ مع الكاتب أكثر أنه بدخول أمريكا الصحوة الدينية العظمى فى أربعينيات القرن التاسع عشر، انبجست عن المسيحية اليهودية مسيحية صهيونية، رفدت الثقافة والسياسة فى الولايات المتحدة باعتقاد الالتزام بإقامة إسرائيل، أى بعث اليهود والانحياز لهم كالتزام لاهوتى وثقافى ثم سياسى، وعلى هذا يلتقى السياسى والدينى، أو السياسة التى أُسْطِرَتْ (نسبةً إلى الأسطورة) والأسطورة التى تَسَيسَتْ

(نسبةً إلى السياسة). إنه التحول من النقيض إلى النقيض، أو التوظيف الدال كلما اضطررنا لذلك.

وعبورًا مع جزئيات التاريخ اليهودى، فإن فكرة نهاية التاريخ التى نجدها فى الأدبيات اليهودية بشكلٍ مّا، نجدها فى الكتابات الغربية والأمريكية ـ بوجه خاص ـ مع تنوع دلالاتها، بدءًا من «هيجل» أو «ماركس» أو «فيبر»، وصولاً إلى «فوكوياما» و«هنتنجتون» و«برنارد لويس» وغيرهم.

إن فكرة "نهاية التاريخ" ـ كما يشير «رضا هلال» ـ هى مجىء المسيح المحارب (اليهودى)، حيث تقوم استراتيجية إسرائيل على أنها عَقِبَ حرب 1967 سوف تتخلى عن بعض الأراضى، لكنها لن تتخلى عن أورشليم التى فاز بها الملك «داوود» فى الحرب منذ آلاف السنين، وفازت بها إسرائيل عام 1967، ومن هنا تكون نهاية التاريخ ومجىء المسيح المحارب (اليهودى) فكرةً جامعةً لليمين السياسى المحافظ واليمين المسيحى (المسيحية السياسية والأصولية).

ومع تعدد المواقف السياسية التى يمتزج فيها السياسى بالأسطورى من أجل إسرائيل اليوم، فإن أخطر ما فى فكرة نهاية التاريخ ومجىء المسيح المحارب (اليهودى) أنها أسطورة لاهوتية تحولت إلى ثقافةٍ صنعت مواقفَ وسياساتٍ كونية، وهو ما يرتدى أثوابًا سياسية فى العالم المعاصر.. وهو ما نعثر عليه خارج الكتاب أيضًا.

إن تحول السياسى إلى الدينى، أو السياسى إلى الأسطورى، نجده فى التاريخ منذ فترة مبكرة، وسوف نختار أمثلة عشوائية للتدليل على هذا. قال «جورج واشنطن» عام 1789 إنه مُوَكَّل بمهمة عَهِدَ بها اللهُ إلى الشعب الأمريكى.

وقال الرئيس الأمريكى الثانى «آدمز»: «إن استيطان أمريكا الشمالية تحقيقٌ لمشيئة إلهية».. وهو ما لانخطىء فيه مَغْزًى دينيا يهوديا.

وما لبثنا بعد قليل أن سمعنا أن الأمريكيين هم "شعب الله المختار"، كما عبّر عن ذلك «جيفرسون» فى خطابه الرئاسى عام 1801..

إنها فكرة "شعب الله المختار"!

وهنا نلحظ اختلاط الفكر السياسى بالدينى، وتطور التعبير عن ذلك وثبات مدلوله فى الجانب السياسى، وهو ما بدا بشكل أوضح فى التسعينيات من القرن العشرين بوجه خاص.

لقد لاحظنا اختلاط السياسى بالدينى أكثر، أو فلنقل: إخفاء الأسطورى فى السياسى؛ فقد بَدَا واضحًا أن استخدام الدين، خاصةً لدى اليمين الأمريكى (الأصولية الأمريكية) واليمين الصهيونى (اليمين اليهودى) أصبح الآن شيئًا مألوفًا يستخدم كل يوم بسُفُور شديد. وجدنا إبان الصراع العربى الإسرائيلى، على الجانب الإسرائيلى - بشكل يدهش الإنسان العادى - الحاخامات الإسرائيليين يطلقون ألفاظًا باسم الدين على العرب لا تنتمى إلى الدين بأية حال، ووجدنا حديثًا يطول عن التاريخ اليهودى - بكذب فاضح - دون تردد أو تمهل.. وهنا نعلن ملاحظتين من العصر الحديث:

الملاحظة الأولى: أنه لم تَكَدْ تنتهى حرب الخليج الثانية 1991/1990 م، حتى أعلن الرئيس «بوش» الأب، بعد فترة قصيرة جدّا، إعلان النظام العالمى الجديد (الأمريكى). وترصد وكالات الأنباء أنه رَدَّدَ هذا المصطلح أربع عشرة مرة فى فترة قصيرة جدّا (هل نتذكر مقولة «تيودور روزفلت» فى بداية القرن العشرين حين قال فى فترة مبكرة وبوضوح أشد: «إن أَمْرَكَةَ العالم هى مصير وقَدَر أمتنا»؟).

ثم.. هل غاب علينا أن لفظ "أَمْرَكَة" يتضمن "صهينة" العالم أيضًا بالشكل الذى نراه اليوم؟

هذه هى الملاحظة الأولى.

أما الملاحظة الثانية، فإن مَن يتذكر هذه المواجهة التى جرت بين «عمرو موسى» و«شلومو بن عامى» منذ فترة قليلة (فى برنامج المذيع المعروف «شارلى روز»)، يلاحظ توظيف التاريخ فى عدوان الحاضر، أو استخدام الغش فى التاريخ للمزج بين السياسى والدينى وكأنه شىءٌ مُسَلَّمٌ به، فرغم أن علوم الأنثروبولوجيا والأركيولوجيا والأبستمولوجيا.. إلخ تؤكد الانفصال التام بين يهود التاريخ وهؤلاء الذى يعيشون الآن فى إسرائيل.. رغم هذا، فنحن نسمع صوت «شلومو بن عامى» يقول بكل هدوء ووقاحة لوزير خارجية مصر: «هنا وُلد شعبنا ووُلدت ديانتنا.. ومن هنا ظهرنا للعالم. هذا تاريخ.. هذه حقيقة». وحين يرد عليه «عمرو موسى» باستنكار فيقول: «وهل كانت القدس عاصمة لإسرائيل منذ ثلاثة آلاف عام؟»، يعود «شلومو» ليرد بنفس اللهجة عبر حوار دال: «كُتُب التاريخ تقول هذا».

ـ «أيُّ تاريخ هذا؟!.. لقد بدأتم كدولة منذ خمسين عامًا فقط».

ـ «بل لقد بدأنا منذ ثلاثة آلاف عام».

ولا يكون علينا أن نبذل جهدًا كبيرًا لندرك أنهم يريدون بناء الهيكل اليهودى (الدينى) فوق الصخرة فى القدس. وقد لاحظ زميلُنا «رضا هلال» هذا حين قال فى مقدمة كتابه الملحوظ: إنه حين كان فى أمريكا، كانت إسرائيل تمثل مكانة متميزة فى السياسة الأمريكية على أساس أن دعم إسرائيل وتأييد احتلالها للقدس هو التزام دينى، باعتبار أن قيام إسرائيل هو الخطوة قبل الأخيرة للمجىء الثانى للمسيح، أما الخطوة الأخيرة فهى بناء الهيكل فوق قبة الصخرة عند المسجد الأقصى.

وهى خريطة يعرفونها جيدًا، ويمضون حثيثًا للعمل لها، وهو ما يعتبر جزءًا مما يحدث الآن فى المسجد الأقصى وما حوله.

الحضارة والإرهاب.. رسائل غير عابرة

أولاً

هل هي مصادفة أن تأتيني في وقت واحد ـ وفي أسبوع واحد ـ كل هذه الرسائل؟

هل من المعقول أن ينشغل العالم كله بهذا الحدث، في حين أن ما يستقبله بريدي الإلكتروني، وبريدي العادي، وكتابات أخرى غزيرة، بعضها منشور وبعضها غير منشور.. تبدو كلها وكأنها تمضي في خط مغاير لكل ما يحدث؟.. إنها رسائل غير عابرة في زمن يعيش فيه عالمان: نحن (الحضارة) وهم (الإرهاب).

ولنتمهل أكثر عند «الإرهاب» قبل أن نصل إلى الرسائل..

هذه الرسائل غير العابرة..

لنتمهل أكثر.

(2)

لقد وقع الحادث الأمريكي الدرامي الكبير يوم 11 من سبتمبر، فشغل الدنيا، وبدت الميديا بوسائلها التكنولوجية وقد غرقت تمامًا في الحدث، فلا أكاد أفتح صحيفة ألا وتخف إليّ آثار هذا العنف، ولا أكاد أتحول بين

المحطات الأرضية والفضائية إلا وأجد اعتداءات نيويورك وواشنطن تشغل الصحف والشاشات التليفزيونية والعنكبوتية.

كما بدا الحدث كـ "وليمة سائغة" لكُتّابِنا، بل وجماعاتنا فى البيت أو الشارع أو العمل. وكما أصبح يوم الثلاثاء هو يوم القيامة، كذلك أصبحت المادة المفضلة لدى مقدمى البرامج المصورة هى هذا الحدث، وأصبحت التعليقات المكتوبة بسرعة هى هى هذا الحدث، وأصبحت التعقيبات المطبوعة المتوالية هى هذا الحدث، كما تبرع 'جنرالات المقاهى' لدينا ـ وما أكثرهم ـ فى صياغة سيناريوهات يؤدى بعضها إلى التحليل، فيما يؤدى أغلبها إلى محاولة وضع الحلول ونصح القيادات.

بدا أن الجميع يتسابقون فى تحليل هذا المفهوم (الإرهاب)، وقد أُطلق على الحدث دون أن يتنبه إلى أن هذا المفهوم كان يمكن أن يطلق على أحداث دامية كثيرة فى بلادنا على نحو خاص، ولم نسمع من أى معلق أو مسئول فى دول الشمال وصف بعض ما وقع بهذا المفهوم (الإرهاب).. فأصبحت الممارسات الإسرائيلية عندنا شيئًا أشبه بالعنف الذى يجب أن يحذر عالم الشمال منه، بل أطلق أحيانًا مسمى "الإرهاب" على رد فعل أهلنا فى فلسطين.

وحين بدا جليا مكررًا أن إسرائيل تغلو فى قتل الأطفال واغتيال النساء والتمثيل بجثث الشباب دون أن ترحم أحدًا من العرب، راحوا يدينون ما سموه الاستعمال المفرط للقوة، وتساوت لدى أصحاب العولمة من القوى العظمى Super Power أقدار الجانى والضحية!

فى هذا المناخ، بدا أن مفهوم "الإرهاب" قد سيطر تمامًا على الأفهام، وقد كان يمكن أن نعود إلى قائمة الإرهاب السياسى لنشهد أن هناك أكثر من مئة وخمسين تعريفًا فى اللغات الحية ـ وربما أكثر فى اللغات الأخرى ـ لمفهوم

«الإرهاب السياسى»، غير أن تحليل المفهوم ـ تطبيقًا على الواقع ـ كان ينقص المحلل السياسى المتأنى.

ولا يمنع هذا أننا نجد بعض التعريفات الصائبة، أو التى تقترب من نحت مفهوم ما يجرى على أرض الواقع بمفهوم جديد، غير أن ذلك دائمًا لم يستطع أن يصبح سمة غالبة فى كل ما يكتب اليوم.

من هذه الكتابات النادرة، كتاب بعنوان «الإرهاب»، استطاع كاتبه ـ «د. هشام الحديدى» ـ أن يفر من التعريف التقليدى إلى سياحة فى التاريخ ـ وإن تكن علمية ـ لرصد هذا المفهوم (الإرهاب)، صعودًا من المتهمين بالإرهاب ـ ومنهم «ابن لادن» ـ راصدًا التاريخ المعروف بينه وبين العم الذى يريد أن يهيمن على كل مَقْدِرَات العالم، ولم يلبث فى باب آخر أن راح يرصد لمدارس وصور أخرى كثيرة لهذا الإرهاب، من «المافيا» إلى «الألوية الحمراء» إلى «آل كابونى»، وصولاً إلى «كارلوس»، ثم يهبط بنا أكثر إلى العنف حول العالم، ليقف عند العديد من صور هذا العنف، لكنه لا يتردد فى وضع «العنف الإسرائيلى» فى البداية.

والملاحظ هنا أن تعريف الإرهاب لدى الخارجية الأمريكية بدا متماشيا مع قناعات الولايات المتحدة الأمريكية فى الثمانينيات من القرن السالف حين اعتمدت هذا المفهوم الذى توصلت إليه المخابرات الأمريكية، كما أنه لم يستطع أن يخلص من أهداف الدولة العظمى فى اللاشعور، فقد كان المفهوم المعتمد هنا هو أنه ـ أى الإرهاب ـ التهديد باستعمال العنف أو استخدامه لتحقيق أهداف سياسية من قِبَل أفراد أو جماعات، سواء كانوا يعملون لمصلحة سلطة حكومية رسمية أو ضدها.. وتستهدف هذه الأعمال إحداث صدمة أو حالة من الذهول، أو.. إلى آخر هذا التعريف الثمانينى.

وُفق «الحديدى» إلى حد بعيد فى محاولة استعادة الصورة قبل أن تتحول

إلى مشهد فى دراما وصلت إلى أقصاها الآن فى بداية الألفية الثالثة، غير أنه يظل قابعًا فى خانة الماضى؛ فهو لم يلحق بيوم الثلاثاء الدامى، كما لم يدرك سَعْى «بوش» الابن وهو يتحدث فيقول: «نحن والعالم،» وهو ما يعنى ـ كما ردد أيضًا فيما بعد ـ أن مَن ليس معنا فهو ضدنا، كما أنه لم يدرك أن ثمة مغزى مستتر فى قوله إنه سيأتى يومٌ يدمَّر فيه الإرهاب، بما يعنى أن هذه القوة ورموزها ستظل غامضة أو خفية!

من هنا، فإن رصْد مواقف «بوش» منذ انتخابه حتى الآن، يرينا أنه راح يتعامل مع هذا العالم بـتَعَال ظهر فى إصراره على بناء الدروع الصاروخية، ورفض توقيع معاهدة إنشاء المحكمة الدولية جرائم الحرب، وكذا فى رفض التمسك بمعاهدة كيوتو. الأكثر من هذا أنه تنصل من دفع نصيب الولايات المتحدة للأمم المتحدة فى وقت انسحب فيه من ديربان قبل إسرائيل!..
و«بوش» ـ بوضوح أكثر ـ كان أسيرًا لمكتب التحقيقات الفدرالى، ثم لنائبه العجوز «تشينى»، ومن ثم فإن العجب يصل إلى أقصاه حين لا يدرك قائد أكبر قوى عالمية أن الإرهاب يمكن أن تكون له مسميات كثيرة، بعضها ظاهر ومؤكد مثل ما تفعله إسرائيل من مجازر وتجاوزات فى الأرض المحتلة، وبعضه غامض رابض فى المجهول لم يعلَن عنه كما عرفنا مع أصحاب هذه الأحداث الأخيرة.

هل كنتُ فى حاجة إلى هذا الاستطراد المطول لأشير إلى كل هذه الرسائل التى جاءتنى على أنها رسائل غير عابرة ولكنها عامة دالة؟

(3)

وتتوالى الرسائل.

هل هى مصادفة أن تأتينى فى الوقت نفسه ـ بعد الثلاثاء الدامى ـ رسالة مطولة تحمل عنوان «حتمية تفعيل معاهدة الدفاع العربى المشترك فى المرحلة

الراهنة»؟.. والرسالة، يعى فيها صاحبها أن الموقف هنا لا يكون بإظهار المشاعر ضد الإمبريالية أو معها، كما لا يكون بالحديث الحزين عن أبرياء أمريكا دون الإشارة إلى أبرياء فلسطين فحسب، بل يؤكد بداهةً أنه «لا جدال فى أن التعاون العسكرى هو من أهم صور التعاون بين الدول العربية؛ فهى الوسيلة التى يمكن اتخاذ موقف بها، وهى الوسيلة التى ترينا أن السعى إلى الوحدة العربية هذه الأيام لن يكون دون الوحدة العسكرية».

وأين هى يا أخى مثل هذه «المعاهدة» التى ندعو إليها منذ عقود؟ ولكن على أية حال، إن مجرد العَوْد إليها الآن إنما يمثل مبادرة إيجابية.

وهل هى مصادفة ـ أيضًا ـ أن تأتينى رسائل وأوراق اللجنة المصرية العامة لمقاطعة السِّلَع والشركات الصهيونية والأمريكية، حاملةً جهدًا هائلاً للحث على المقاطعة ضد الصهيونية؛ إذ تحث على المقاطعة كبديل (وهو بديل إيجابى بالفعل للمقاومة)؟.. ولا تغفل هذه الكتابات الربط بين المقاومة بين هذا العدو وأبناء الانتفاضة، فهم سلاحهم المقاومة، وسلاحنا نحن المقاطعة.. نحن جميعًا فى خندق واحد ضد عدو واحد.

والإسهاب حول الشخصيات المتعاونة والسلع الرائجة لا يتسع له هذا المكان، وإن كان يجب أن تتسع له قلوبنا وعقولنا، وهى مبادرة طيبة أخرى يتبناها مثقفونا منذ زمن دون أن تصبح دعوة عامة، لكنها ــ على أى حال ــ تمثل مبادرة واعية. ثم، هل هى مصادفة كذلك أن أستقبل هذه الرسالة على 'الويب' باسم "مخطط بلقنة المنطقة" الذى يستهدف تكريس حالة التجزئة الحالية للوطن العربى وتعميقها نحو مزيد من تفتت الدول العربية إلى دويلات صغيرة على أسس عرقية وطائفية ومذهبية، وذلك باستغلال مشاكل الأقليات المنتشرة فى العالم العربى، والتى تدعو إلى الانفصال والاستقلال، أو الالتحاق بدول أخرى غير عربية فى الدائرة الإقليمية

تشكل القومية «الأم» بالنسبة لبعض الأقليات، وعجز بعض الحكومات العربية عن حل هذه المشاكل؟.. هذا إضافةً إلى استغلال إسرائيل للخلافات العرقية والمذهبية والطائفية، وتغذيتها بإثارة النعرات الانفصالية التى تؤدى إلى حروب أهلية.. وأبرز الأمثلة على الدور الذى تؤديه إسرائيل فى هذا الخصوص: الحرب الأهلية فى لبنان، والحرب الانفصالية فى جنوب السودان، وثورة الأكراد فى شمال العراق، وثورة البربر فى الجزائر، ومحاولات تأجيج الفتنة الطائفية فى مصر.. إلى غير ذلك من أحاديث الانفصال التى نجد لها أساسًا نظريا فى مخططات الزعيم الصهيونى القديم «جابوتنسكى» صاحب الحركة التصحيحية فى الثلاثينيات من القرن الماضى، والتى دعا فيها إلى إقامة «كومنولث عبرى» تكون فيه اسرائيل القوة الإقليمية العظمى، والتى تدور فى فلكها دويلات عربية ضعيفة مقسمة على أسس عرقية وطائفية ومذهبية.. وهو نفس المخطط الذى دعا إليه أيضًا (عوريد بنيون) مستشار مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل الأسبق فى دراسته المعروفة «إستراتيجية إسرائيل فى الثمانينيات» كما نجد لهذا المخطط أساسًا أيضًا فى كتاب بين جيلين لبريجينسكى مستشار الأمن القومى فى إدارة كارتر، تحت عنوان تفتيت قوس الأزمات ومخططات برنارد لويس أستاذ الدراسات الإسلامية فى جامعة برنستون فى كتابه «رهينة الخومينى» ومشروع بن غوريون لتقسيم لبنان سنة 1954.

وهناك رسائل كثيرة تعرفت عليها فى عدد من الندوات التى عقدت هنا وهناك، أو فى هذه البيانات التى صدرت او الاحتجاجات التى استمرت ترى من بيوت الأدباء واتحادات الكتاب والعديد من الناس العاديين الواعين.

أعود للمصادفة وأسأل:

ـ هل هى مصادفة فعلاً.. أم هو مايجب أن نتنبه إليه فى زمن بدا فيه أن مواجهة الإرهاب أو العولمة أو العنف ـ ورموز أخرى كثيرة.

ـ لا يكون إلا بالتنبه إلى التغيير بالوعى او الإرادة أو حتى بالقلب..؟ إنها رسائل عابرة، أو غير عابرة..

حضارة أم إرهاب؟

ثانيًا

دهشت أن يتردد الآن مثل هذا المصطلح ـ صراع الحضارات ـ الذى نحته هنتنجتون قرب منتصف التسعينيات من القرن الماضى وما لبث أن أكده فى نهاية القرن، وشغل الرأى العام العالمى به، وليس العربى فقط.

ودهشت أكثر أن المصطلح حين ردد كان يتم الربط فيه ـ بشكل متعمد ـ بين الحضارة والإرهاب..

الحضارة التى هى حضارة الغرب والإرهاب الذى هو إرهاب الشرق (الذى هو ـ أى الشرق ـ الشرق العربى الذى يرتبط بالعقيدة أو يربط بينه وبينها).

إنه تراجع أن الأمر أمر صراع بين حضارات أو حضارتين إلى صراع بين حضارة هى الغرب وإرهاب هو الشرق.

وبدا الأمر كأنه يتجسد فى معركة بين الخير والشر.

أو ـ أكثر تحديدًا ـ بين المدنية والبربرية.

لقد برهنت الأحداث الكثيرة منذ هذا اليوم ـ11 سبتمبر ـ وحتى اليوم على أن الحضارة ـ فى مفهوم أصحابها ـ هى مفهوم غربى تمامًا، ليس له أية

علاقة بالشرق، وإنما علاقته الأولى بالإرهاب، ومن هنا، فقد تفاوتت درجات فهم تصريحات العديد من المسئولين الامريكيين بعد وقوع الحدث مباشرة حين سمعنا هذه الجملة مع تغيير ألفاظها وثبات معناها من أن الحرب القادمة ضد الإرهاب سيكون هدفه ضرب الإرهابيين فى العالم وفى ...، بل ظلت تردد بعد فترة طويلة من وقوع الحدث مما يفهم منه أن هذا الوقت الطويل لم يخفف من غلواء المسئولين أو يجعلهم يعيدون النظر من وسم الشرق بالإرهاب بشكل عام.. وهو مفهوم كامن واع فى آن معًا..

الغرب كان هو الحضارة

والشرق هو الإرهاب

على هذا النحو، توالت ردود الأفعال ـ وما زالت ـ دون أن تغير من هذه المفاهيم أو تبدلها..

بدا هذا على جميع المستويات فى الغرب، فلم يتأكد هذا المفهوم فى واشنطن فقط، وإنما بدا أكثر وضوحًا فى العواصم الأوروبية الأخرى وخاصة لندن التى شهدت عنفًا ضد العرب والشرقيين فاق أى عنف آخر فى واشنطن نفسها.. وروما أخيرا حيث بدا بيرلسكونى أكثر حماقة من سابقيه..

(2)

وصلت الدهشة إلى أقصاها حين كان المصطلح يردد عقب هجمات اليوم الأسود على نيويورك وواشنطن فى العواصم الغربية الكبرى خاصة، وفى واشنطن بوجه أخص، حين ربط الرئيس الأمريكى بين الحضارة والإرهاب بشكل مثير للتفكير لدى من يرفض الربط بين المفهومين: الإرهاب والحضارة..

كما أنه ـ فى الوقت نفسه ـ راح يفصل بشكل أكثر وضوحا بين اثنين أو كلمتين رددهما فى بداية توليه للسلطة فى أمريكا حين أطلق شعار «نحن والعالم» فى فترة مبكرة من هذا العام.

لقد قال «بوش الثانى» بالحرف الواحد هنا:

«إن كل دولة حضارية تعى أن هذا الاعتداء لم يكن موجهًا ضد الولايات المتحدة فحسب بل ضد الحضارة».

ورغم أن الرئيس الأمريكى تورط فيما يشبه زلة لسان فى أن ما يحدث هو 'الحروب الصليبية' (!!) ووجدنا من يبرر له ذلك، فإن تصريحاته المتوالية بعد ذلك لم تتردد فى تحميل رموز ومفاهيم أكثر يرى منها وفيها أن الغرب هو الحضارة وأن العالم الآخر هو الشر والإرهاب..

وحين سمعنا صوت «كيسنجر» ـ وهو من غلاة المتطرفين الصهاينة ضدنا ـ يردد نفس الدلالة، ضرورة القضاء على هذا الإرهاب الشرقى، كيف؟ قال بالحرف الواحد بعد أن طرح السؤال:

«إن الحلف الأطلسى هو الإطار المناسب لقيادة الحرب العالمية ضد الإرهاب الدولى، خصوصًا بعد أن أعلن الجناح الأوروبى للحلف ـ لأول مرة ـ مساندته الكاملة فى هذه الحرب..».

اقتربنا من الجناح الأوروبى، إذن، فحين أغلقت إيران حدودها مع أفغانستان على إثر تدفق اللاجئين إليها بدا هذا للغرب شيئًا طيبًا، فدولة كإيران سوف تعانى ـ دون شك من الأفغانستانيين مما يؤثر فى اقتصادها، لكننا لا نستطيع أن نفهم حقيقة ما جرى فى إيران حين نتذكر أن ذلك حدث ولكن بعد أن اتصل تونى بلير بالرئيس خاتمى، مؤكدًا له ومذكرًا إياه بأنه يجب ـ والحديث للرئيس خاتمى هنا ـ ألا تصبح الحرب ضد الإرهاب صدامًا بين الحضارات (!!).. تظل علامات التعجب من عندنا.

وهنا نتعجب أكثر لذكر مفهوم الحضارات ثانية، فلا يمكن أن يكون اللاجئون الأفغان ـ وهم أفقر الشعوب فى العالم وأكثرهم معاناة ـ أصحاب حضارة يمكن أن يهددوا الغرب.. أن يدخلوا فى صراع الحضارات ضدها..

إن التلميح لصراع الحضارات إنما اكتسب رمزه العام، بتهديد دولة كإيران ألا تقف ضد الغرب، وألا تقف بجانب البرابرة من أفغانستان ضد هذه الحضارة الغربية.. وهم قبل ذلك منطق القوى، المخادع، المغاير..

وهو ما شارك فيه عدد كبير من منظرى الغرب من المثقفين والسياسيين...

(3)

من متابعة الأدبيات السياسية طيلة العقد الماضى نلاحظ تفرقة ذات دلالة بين طرفين، وينتفى هنا الحديث عن حضارة فى مواجهة حضارة أخرى، إنما الأمر يقصد به التذكير أن الحضارة الغربية هى الأساس، وأن ما يمكن أن يحدث إنما هو تحفيز لغضب الغرب ضد الشرق، وإن يكن فى اللاشعور الحنق التاريخى من وجود «الآخر» فى الوعى الغربى.

وهو ما يذكرنا بشعار الرئيس بوش عبر حملته الانتخابية فى يناير 2001 من أنه يتبنى شعار "نحن والعالم" وهو ما يعود بنا إلى تفكير خطى لا نخطئه ـ قبل ذلك ـ فى محاولة تفسير هنتنجتون وفوكوياما حين يبشر هذا الأخير خاصة بأن (نهاية التاريخ) هى الوصول إلى نقطة النهاية فى التطور البشرى، ولكن لصالح الليبرالية الجديدة التى كانت فى سعيها الدءوب منذ بداية التسعينيات إلى تجسيد «العولمة» وآلياتها فى هذا العالم «الآخر».

والملاحظة الجديرة بالاهتمام هنا أن هنتنجتون حين يعقب على هذا، فإنه يخرج بأوروبا من المعادلة، فالغرب يظل الغرب الأمريكى وخلفه الأوروبى، إنه العالم الذى انتهى عشية حرب الخليج الثانية وبدأ..، إن

الصراع الكبير بين الغرب والعالم قد انتهى إذن بالتحديد فى العالم غير الأوروبى، حيث حدثت التغييرات الكبرى فى الصين والاتحاد السوفيتى. فالصراع الكبير قد انتهى إلى استئثار باقتصاد العالم وآليات التغيير الغربى فيه..

وقد يكون من المهم هنا، بل هو من المهم، أن نثبت هذه الرؤية الغربية التى تكونت قبل مجىء بوش فى الفكر المخابراتى الغربى وفى أروقة وزارة الخارجية، وعبّر عنها عدد كبير من أصحاب هذه الحضارة، هى، أن أدبيات التسعينيات توضح الأمور بصراحة أكثر، حين نعرف ـ وهو كله مكتوب ومكرر فى أكثر من مصدر، ردده هنتنجتون كما ردده فوكوياما بالقدر الذى ردده فى الوقت نفسه أو قبله بقليل كل من زبجنيو بريجينسكى ودانييل باتريك موينيهان وجون ميرشايمر ونورثروب.. وغيرهم من تخصصات كثيرة، وعلى فترات شارك فيه يهودى متعصب كبرنارد لويس بل وعرب يعيشون فى الغرب ويرددون مقولاته!!

فالصراع بين الحضارة والإرهاب يظل هو الصراع بين الحضارة والآخر، فى تعبير بوش «نحن وهم» ثم فى تعبير هنتنجتون قبل ذلك كان «نحن وهم»، ويطلق هذا التعبير ليعبر عن الجماعة التفضيلية والجماعة الأخرى.

إن «نحن وهم» تعنى بوضوح أكثر حضارتنا وأولئك البرابرة فالجميع هناك يحلل هذا العالم على أساس: الشمال والجنوب، المركز والمحيط، الغرب والبرابرة.

ويحدد التعريف هنا أكثر حسب الأجزاء، فإن صورة عالم من جزءين فى أدبيات الغرب الأمريكى الآن هى تأكيد التقسيم الأكثر شيوعًا الذى هو متطابق مع الوعى الغربى نفسه، إذ نستطيع أن نلاحظ أن هذا التقسيم الأكثر شيوعًا يظل بين الدول الغنية (الحديثة المتقدمة) والدول الفقيرة

(التقليدية، المتخلفة، النامية) ثم يرتبط هذا التقسيم تاريخيا بالغرب والشرق..

وحين نقفز من هذا التصور، الذى راج فى نهاية التسعينيات من القرن الماضى سوف نكتشف عن أن عناصر الصورة زادت وضوحًا مع رؤية السياسيين من أمثال بوش الابن، فلم تعد القضية بين الأغنياء والفقراء أو بين المتقدمين والمتخلفين أو ـ حتى ـ بين الشمال والجنوب، وإنما أصبحت ـ بعد الثلاثاء الأسود ـ هى الصراع بين الحضارة والإرهاب، وأصبح همُّ سادة البيت الأبيض إقامة «حلف عالمى لمقاومة الإرهاب»...

حضارة أم إرهاب؟.. والمسيح اليهودى

ثالثا

لفت نظرى فى الفترة الأخيرة ماكتبه د. عبد العظيم أنيس فى إحدى الصحف من أن المؤمن لا يلدغ من أمريكا مرتين. حاثًا على التنبه إلى ما يجرى من ضغوط على مصر الدولة، لإشراكها ولو بقوات رمزية فى الهجوم الذى تدبره أمريكا على أفغانستان، خاصة بعد أن أوضح الرئيس مبارك موقف مصر من قضية الإرهاب، ففى الوقت الذى ندين فيه الهجوم على نيويورك وواشنطن، نذكر أن مصر الرسمية تشعر أنها اشتركت فى الحرب ضد العراق عام 1990 فعلت هذا بوعد أمريكى بحل القضية الفلسطينية، ومع ذلك فإن المؤتمرات التى عقدت والممارسات التى انتهت تؤكد أننا خدعنا، ومن ثم، يجب ألا نخدع من جديد هذه المرة أو يجب ألا نلدغ مرة أخرى.

وكنت أشرت إلى أن المؤمن خُدع مرات وليس مرة أو مرتين منذ نكبة 1948 بل قبل هذه النكبة حتى هزيمة الخليج، فرصد الواقع الأمريكى يرينا

ـ أن مؤتمر بازل المشهور عام 1897 سبقه صدور كتاب للأمريكى بليام بلاكستون عام 1878 الذى دعا فيه إلى عودة اليهود إلى فلسطين وهذا وقت مبكر جًدا للنشأة الأمريكية، ثم إننا نستطيع أن نقطع كل هذه الفترة من القرن التاسع عشر خطيا إلى بداية القرن الواحد والعشرين لنرى كيف أن عديدًا من الأمريكيين يرون الضحية الصهيونية فى فلسطين المحتلة ولا يرون الضحية الطفل والإنسان فى انتفاضة الأقصى ـ على سبيل المثال ـ وما بين التاريخين ـ 1879 و ـ 2000 كثير من الانحياز المطلق لإسرائيل من جانب الولايات المتحدة، بل ولنقل بلغة د. أنيس هذا اللدغ الذى يعانيه المؤمن من الجحر الأمريكى، وهو لدغ مستمر لم يستطع أن يقاومه حتى الآن هذا المؤمن.

وهذا الفعل الغربى الذى يمارس على شكل لدغ مازال مستمرًا، فهو الأسلوب الذى نتعامل به ـ حتى الآن ـ مع الغرب الأمريكى.

ومع ذلك ـ أو رغم ذلك ـ فإن القضية ليست هى الأسلوب الذى نخدع به، وإنما هى البحث عن السبب، لم تعد القضية كيف خدعنا؟ فقط، وإنما أصبحت قبلها لماذا؟ أو لماذا نخدع؟

والإجابة عن السؤال كيف نخدع دون أن نعرف السبب الذى من أجله نخدع أو نلدغ كل مرة هو ما لفت نظرى أكثر أثناء مراجعة كتاب الزميل الكاتب الصحفى رضا هلال المسيح اليهودى فمع حديثنا الطويل عن اللوبى اليهودى والإستراتيجية الأمريكية إلى غير ذلك من الأسباب التى نفسر بها موقف أمريكا العدائى على طول الخط منا، فإن ثمة سببا أو أسبابًا أخرى لا نتنبه إليها بالقدر الكافى.

والبحث عن الأسباب تظل جزءًا من تفسير موقف أمريكا، وقبله موقف المواطن العادى مما حدث فى الثلاثاء الأسود، فالبحث عن سبب

موقف أمريكا منّا ووراءه العديد من المشاعر التى انتابت المواطن العادى على إثر أحداث يوم الثلاثاء 11 سبتمبر، فقد بدا أن المواطن العربى الذى يأسف كثيرا لموت الأبرياء، يعرف ـ فى الوقت نفسه ـ شعورًا عميقًا بالكراهية للولايات المتحدة الأمريكية، وهى سياسية برهنت على هذه الكراهية المستمرة فى انحيازها الكامل لإسرائيل التى ارتكبت من أى أمة معاصرة من ظواهر الإرهاب ومجازرها ما لا يمكن أحصاؤه أبدًا.

وبوضوح أكثر: لماذا تتخذ أمريكا موقف الانحيار إلى إسرائيل التى يبدو أحيانًا ضد مصالحها فى المنطقة؟ هذا هو السؤال الذى يمكن أن نجيب عنه هنا دون أن نغفل الجوانب الأخرى، وإن كانت أهمية الجوانب الأخرى تتحدد فى عدم معرفتنا بتفصيلاته بالقدر الكافى أو عدم معرفتنا بتكوين الولايات المتحدة وميكانيزم التطور الثقافى والسياسى فيها، وهو ما نقترب منه هنا.

ـ لماذا تنحاز أمريكا لإسرائيل بهذه الصورة المطلقة؟

منذ البداية، أؤكد ما ينطلق منه الكاتب وهو نقد كل الأصوليات الدينية: المسيحية واليهودية والإسلامية، ورفض استخدام الدين كمطية للسياسة لأن ذلك يضر بالسياسة وبالدين أى دين، فنحن أمام فرضية يحاول الكاتب طرحها وإثباتها، وهى ـ ببساطة ـ الانحياز.. إنه انحياز لاهوتى وثقافى وليس مجرد انحياز إستراتيجى أو مجرد انحياز بتأثير اللوبى اليهودى وحسب، كما نردد كثيرًا، إنها فرضية تاريخية ثقافية قبل أن نصل إلى فعل اليمين أو الأصولية الأمريكية.

الميثولوجى

ومن أجل إثبات الفرضية الأولى ومحاولة تأكيدها، عدنا إلى الجذور وتمهلنا عند الأساطير، وتلمسنا تطور التاريخ وتحولاته، إن رصد الجذور

التاريخية واللاهوتية لأسطورة المسيح اليهودى، وهى أسطورة تحولت مع المد التاريخى إلى سياسة لم تتلمس السياسة ـ كما يبدو الآن ـ وسائل كثيرة لتأكيد ممارساتها، وإنما كانت الأسطورة هى الفعل الكامن فى تلافيف العقل الأمريكى، وهو وإن تم صنعه بتؤدة والاستفادة من الميثولوجيا التى عرفناها لدى الصهاينة منذ أقدم العصور، إذ راحت تعبر عن نفسها هنا بتحويل الكامن اللاشعورى فى مجتمع مسيحى إلى ظاهر وممارس على المستوى العام.

إن أسطورة المسيح اليهودى هنا تنبنى على أن المسيح سيجىء للمرة الأولى فى الاعتقاد اليهودى، أو سيعود من جديد ـ فى الاعتقاد المسيحى ـ فى نهاية الزمان ليحكم العالم فى الألف عام السعيدة، حسبما جاء فى سِفْر دانيال بالعهد القديم ورؤيا يوحنا المعمدان بالعهد الجديد. وبموجب أسطورة المسيح اليهودى، فإن لليهود دورًا مركزيا فى خطة الرب لنهاية العالم التى تتضمن عودة اليهود إلى فلسطين وإعادة بناء الهيكل قبل قدوم المسيح.

ويعبر بنا رضا هلال التاريخ الميلادى ليرسخ فينا مراحل تطور الأسطورة سواء بإيعاز من اليهود أو بانطلاق من فكر المهاجرين البروتستانت والإنجيليين.. وغيرهم إلى أمريكا، وهو ما حول الأسطورة من عقيدة إلى سياسة، ابتداء ـ كما يلاحظ الكاتب ـ من تأويلات اليهود ليلعبوا دورًا فى مستقبل العالم بما يتلاءم مع مصالحهم أو ـ وهذا هو الوجه الآخر لصنع صورة المسيح اليهودى ـ لإبعاد اليهود عن العالم المسيحى أولاً ثم استخدامهم فى السياسيات الاستعمارية ـ الأوروبية ثانيا، ثم فى محاولة التكفير عن خطايا أوروبا بحق اليهود وآخرها المحارق النازية. والواقع أن المهاجرين الأوائل من أوروبا إلى أمريكا فى القرن السابع عشر

حملوا معهم إلى العالم الجديد مسيحية متهودة، ويلاحظ أنهم حين استوطنوا أمريكا اعتبروها إسرائيل جديدة، وكانوا يصلّون باللغة العبرية ويطلقون على أبنائهم أسماء من قصص التوارة، وكان أول كتاب طبعوه هناك هو كتاب مزامير داود.

وعلى هذا مضت القرون إلى نتيجة مفزعة هى أن إسرائيل أصبحت لدى الأمريكيين هى وطن الأجداد الذين تقص قصصهم التوراة الذين ألهموا الرواد، الذين استوطنوا أمريكا.

إنه ارتباط عضوى بين إسرائيل والتوراة من جهة والثقافة الأمريكية من جهة أخرى، انظر إلى قول أحد الذين كانوا مرشحين لرئاسة أمريكا، يقول موشى ديفزان التوراة فى المعتقدات الأمريكية هى مصدر الإيمان ولغتها وخيالاتها وتوجيهاتها الأخلاقية تشكل جزءًا لا يتجزء من السياسة الأمريكية، والأنبياء والكفار والملوك والعامة الذين عاشوا فى إسرائيل القديمة منذ قرون عديدة قد نهضوا للقيام بأدوار معاصرة فى التاريخ الأمريكى، إلى هذه الدرجة وصل التأثير الصهيونى إلى النخاع.

علـى أن هـذا التأثير ما لبث أن تعمق أكثر حين تلقفه اليمين والأصولية الأمريكية.

الأصولية

وهو التأثير الذى سيصل أقصاه فى الغرب مع تطورات حاسمة فى القرون الخمسة الأخيرة.

لقد أصبحنا ـ فجأة ـ أمام أصولية تعتقد فى عصمة الكتاب المقدس والتفسير الحرفى للنبوءات التوراتية حول بعث اليهود ومجىء المسيح.

إن هذا الاعتقاد القديم تحول ـ وهو ما نستطيع أن نفهم به تفسير كثير

من مواقف السياسة الأمريكية فى النصف قرن الأخير ـ إلى حركة مسيحية، ولكن سياسية، سبقت الميثولوجى اليهودى بل سبقت الدعوة اليهودية التى نعرفها فى العصر الحديث لقيام وطن قومى لليهود فى فلسطين، إن المؤتمر الصهيونى اليهودى فى بازل عام 1897 كما لاحظنا سبقه صدور كتاب مبشر أمريكى عام 1878 دعا فيه إلى عودة اليهود إلى فلسطين فى إطار الإيمان بالعصر الألفى السعيد والمجىء الثانى للمسيح، وقد لاحظ المؤلف بالفعل أن تلك الحركة المسيحية الصهيونية كان لها أثر بالغ فى وعى أعضاء الكونجرس والرأسماليين الكبار مثل روكفلر والصحافة والثقافة وانتهاءً بالرئيس.

وهو ما يصل بنا إلى نتيجة عامة هى أن هذه المؤثرات تخللت الحياة الفكرية للمجتمع الأمريكى، مما يمكن معه فهم العديد من المواقف الأمريكية التى لم نكن لنفهمها دون فهم هذه المؤثرات لدى المجتمع والعقيدة، ومن ذلك دهشتنا من إظهار الجمهور الأمريكى، من تحمس بالغ لوعد بلفور والانتداب البريطانى على فلسطين ثم هذه الحماسة لإقامة إسرائيل، وكنا نعجب لها، ثم هذا الانحياز المطلق لإسرائيل الذى نراه، بل ونعانيه فى ضرب التطور السياسى والاقتصادى لأمتنا العربية حتى إن عبد الناصر يعجب أشد العجب من الموقف الأمريكى السافر لأمريكا فى إسرائيل لأحداث هزيمة 1967.

إننا بعد هزيمة يونيو مباشرة وتكشف حجم الدور الأمريكى فيها نجد عبد الناصر يقول لهيكل عام من الأزمات، دار الشروق فيما يشبه الحيرة هذه العبارة:

ـ حقيقة لا أستطيع أن أتعامل مع الأمريكان... و... قلبى مملوء بالمرارة منهم.. و..

لقد تحالفت الأسطورة اليهودية مع الأصولية الأمريكية فتبلورت كثير من الإستراتيجيات الأمريكية، فنهاية التاريخ ليست اجتهادًا أو اختراعًا لفوكويوما، وإنما هى حلقة من سلسلة يمكن أن نرصد أولها منذ حقبة بعيدة، ولم يكن موظف الخارجية الأمريكية ليجتهد خارج الأسطورة اللاهوتية التى تحولت مع غيرها إلى ثقافة صنعت إطار هذه العولمة التى تلعب فيها إسرائيل قطب الرحى.

حقيقة نستطيع تفسير الموقف الأمريكى بأسباب أخرى، غير أن هذا السبب يمثل هذه السياسة قبل أن نتحدث عن إستراتيجية أمريكية محايدة أو لوبى صهيونى متماسك.. وما إلى ذلك من الأسباب التى تصنع هذا الانحياز الخالص لإسرائيل، وهو ما يجرنا إلى انحيازات أخرى كثيرة سنرى بعضها.

أى حوار ؟ وأى حضارة

ثالثًا

مضى عام وجاء عام 2002-2001، وليس هناك فارق بين عام وعام غير ما تقع فيه من أحداث، وما تعبر به علينا أو بنا من أحداث، ولأن العام الفائت كان عامًا لا يختلف كثيرًا عن العام الجارى أبدًا، اللهم إلا فى حدث 11 سبتمبر....... فإنه لا جديد فيما فات وما يفوت وما يبدو أنه آت، فالمنحنيات فى أوطاننا العربية توالى الهبوط، والجزر بعد الجزر نعانيه نحن أجيال النصف الثانى من القرن العشرين.

وكى ندلل على أنه لا فارق قط، اللهم إلا فى تسارع المنحنيات، وتوالى نوبات الجزر، فسوف نكتفى الآن بعدة ملاحظات قابلتنا كثيرًا على صفحات الصحف أو بين ثنيات نشرات وكالات الأنباء أو عبر شبكات

العناكب الضخمة فى (الويب) الذى أصبح شرطيه النشط الآن الولايات المتحدة الأمريكية بلا منازع

لنذكر بعض ما عرفناه وعانيناه بين عام مضى وعام يجىء قبل أن نسأل مع عمنا المتنبى:

عيد بأية حال عدت ياعيد..؟

وهو سؤال قديم لا نمل من تكراره كل عام

ويبدو أننا لن نَمَلَّ تكراره

....

قبل أن ينتهى العام، خرجت علينا وكالة الأنباء الإسوشيتدبرس باستطلاع اشترك فيه عدد كبير من أكثر من سبعين صحيفة ومحطة إذاعية وتليفزيونية من 24 دولة حازت فيه أحداث 11 سبتمبر المكانة الأولى بينما وصل فيه العنف فى الشرق الأوسط إلى المكانة الثالثة ليتحدد أكثر فى المركز السابع لدى صحفيى أمريكا حول الصراع الإسرائيلى - الفلسطينى (وتأمل معى ألفاظًا تقال هنا من مثل العنف الذى يمارس من إسرائيلى الغرب ضد عرب فلسطين، ثم تأمل معى إلى أى حد تحتل هذه القضية التى تسمى بالصراع وليس البحث عن الضحية الفلسطينية من صحفيى أمريكا).

....

منذ بداية العام، داخل الأرض المحتلة نقرأ أرقامًا من الانتفاضة من نوع:

قتل أكثر من 1000 شهيد وجرح 35 ألف جريح بينهم 5 آلاف معاق و400 طفل أصيبوا فى وجوههم وصاروا عميانًا وخسائر فلسطينية تقدر بما لا يقل عن 8 مليارات دولار.

وما زالت العجلة تدور..

وما زالت الطقوس تترى كل يوم.

....

لماذا أقول هذا الآن؟

تذكرت هذا كله حين كنت فى ندوة فى باريس منذ أكثر من عام: وتحديدًا فى يوم 28 سبتمبر من العام الفائت، وكان قد مضى قرابة العام على انتفاضة الأقصى.

كان شارون، وكلنا يذكر بدء انتفاضة الأقصى قد زار بصفاقة ساحة الحرم الشريف التى تضم المسجد الأقصى وقبة الصخرة يوم 28 سبتمبر، وكان يحرسه ثلاثة آلاف جندى، مما أثار غضب الفلسطينيين ودارت دائرة الغضب بالقتلى والجرحى والتشويه بل وقتل الأطفال وإصابتهم بالعمى..

أقول تذكرت هذا كله حين قام أحد الجالسين فى القاعة وقال - فى هذا الخريف من أيام باريس إن شارون اختار هذا اليوم، هذا اليوم بالذات 28 سبتمبر- لأنه يوم رحيل جمال عبد الناصر

وأعترف أنه أيقظنى من غفوة كانت قد أصابتنى بين الحوار الطويل بين المنصة والقاعة..

....

أسئلة لا تحيرنى: فى بريطانيا يفوز فى إس. نايبول بجائزة نوبل لموقفه العدائى من الإسلام خاصة أن - كما تقول شروط الجائزة - أن من أحد شروط الجائزة أن يتحلى إنتاج صاحبها بقيمة إنسانية متميزة تقترب من المثال.

فى فرنسا تكرم ميشيل هويلبيك لروايتها «المنصة» قبل عاصفة مانهاتن

بأسبوعين، ربما لأنها تحتوى على مقاطع عنصرية وإساءات للإسلام والمسلمين..وهو ما وجد استجابة شديدة لها بعد 11 سبتمبر فى الغرب.

والأمثلة كثيرة على عنصرية الغرب..

....

وأسئلة تحيرنى، قال الأمير «عبد الله» ولى عهد السعودية أمام مجلس التعاون الخليجى فى العاصمة العمانية مسقط (من يذكر إعلان دمشق؟)، قال بضرورة استئصال الإرهاب، وأن الإرهاب يبدأ أن ينشر شرًّا فوق الأرض، وهو ما أكدته الدول العربية اعضاء المجلس: السعودية، الكويت، الإمارات، قطر، عمان، البحرين، ثم اليمن إلى بعض مؤسساته...

سألت نفسى وأنا أتابع أخبار قمة مجلس التعاون، الأخبار التى تغرق الصحف:

- هل تتحسن الصورة الاقتصادية حسن. سألت ثم غبت فى تساؤلات كثيرة:

- وماذا عن الصورة السياسية والفكرية ؟

- وماذا عن الوحدة الأمنية بعد كل ما سمعناه عن ضرورة محاربة الإرهاب..؟

والسؤال البرىء الأخير هنا، هو:

- أى إرهاب نتحدث عنه الآن..؟ ولماذا بعد11 سبتمبر؟ ولماذا؟

....

أسئلة لا تحتاج إجابة: أليس غريبًا أنه عقب الهجمات الانتحارية على مركز التجارة العالمى بنيويورك ووزارة الدفاع بواشنطن أن لاحظنا أن أغلب - إن لم يكن كل- الذين اعتقلوا من المسلمين ؟

وإن عددًا غير صغير قُبض عليه فى لندن وفى غير لندن فى شمال العالم أيضا من المسلمين.. ؟

غير أن ما هو أكثر غرابة من هذا كله أن الذين قبض عليهم بالآلاف هنا وهناك لم يقدَّموا للمحاكمة وأعلن أن ذلك سيستمر إلى أجل غير مسمى..

ومازلنا نتحدث عن حقوق الإنسان والديموقراطية فى الغرب؟

وما زلنا نتحدث ويتحدثون، ونردد وراءهم التُّرَّهَات المزعومة عن «حضارة الغرب»؟

....

جاءت فى مقالة الأستاذ «هيكل» عبارة أتركها بين عقل القارئ كما هى:

.. ظهر أن هناك فعلاً واحدًا يقتضى إذنًا لأنه طلب يوفر لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، إمكانيات و تسهيلات خاصة تتيح لها مراقبة موسم الحج هذا العام.

ذلك أن الوكالة عرفت من مصادرها (هكذا قالت) أن عددًا من القادة غير الظاهرين للإرهاب وأعوانًا لهم من مختلف المراكز تواعدوا على لقاء فى مواقع الحج ووسط مناسكه ليبحثوا سياساتهم وخططهم فى المرحلة القادمة. ووكالة المخابرات المركزية تظن أن تلك فرصة لا يصح أن تفوت عليها لترصد وتتابع.

....

تحسرت على الأمة العربية وأنا أشهد فى الفضائيات وأقرأ فى وكالات الأنباء وعلى صفحات «الويب» طوابير الأوروبيين بغير جنس أو إقليم يقفون فى صفوف طويلة أمام ماكينات الصرف الآلى بالبنوك للحصول على

العملة الجديدة (اليورو) 12 دولة أوروبية توحدوا اقتصاديا واستقروا سياسيا وتخلى كل مواطن فيهم عن أنانيته لا خصوصيته وعن جماعته وليس هويته

تذكرت أمتنا العربية وهى تتعامل بأكثر من عملة فى وقت راح شيراك يصف فيه «اليورو» رسميا بأنه انتصار لأوروبا التى تؤكد بعملتها الجديدة هويتها (الهوية) وقوتها (القوة) ووحدتها (الوحدة).

(توقفت طويلا عند الخبر/ الصورة الذى نقلته «وكالة رويتر» فى عمان حين عرض لصراف أردنى يقف أمام أكثر من عشرين عملة عربية متفرقة.. بجانب صورة العملة الأوروبية الموحدة: اليورو).

....

وبمناسبة «اليورو» الذى نجد عليه حرف الـ E والذى يشير إلى ثقل الحضارة الأوروبية فإنه أول حروف كلمة أوروبا باللغات الاوروبية وإن الخطين اللذين يقطعان الحرف عرضيا من المنتصف يشيران إلى ثبات عملة اليورو.. إلخ أقول بمناسبة ما يرسم على العملة الأوروبية الجديدة ألا يذكرنا بما يرسم على العملة الأمريكية - الدولار.

حدق فى العملة الأمريكية الدولار، ألا ترى على الوجه الأول صورة الهرم والعين الماسونية التى لا تنام.. وعلى الوجه الآخر مكتوب باللغة اللاتينية النظام العالمى الجديد؟

أليس هذا اختصارًا للعولمة وإرهاصًا لها منذ فترة مبكرة؟

....

وقد يكون من الأجدى الآن ألا نكتفى ببيت شعر المتنبى أو سؤاله الذى مضى عليه أكثر من ألف عام: بأية حال عدت يا عيد؟.. فقد يكون الأجدى

أن نحاول الإجابة عن هذا الشطرالسؤال من المتنبى بإجابة منه أيضًا حين قال فى موضع آخر:

مغانى الشعب طيبا فى المغانى

بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن الفتى العربى فيها

غريب الوجه واليد واللسان

لكن لكى أصدق القارئ الكريم القول: إنه، حتى هذا، لا أستطيع الإجابة عنه.

أى حوار ؟! وأى حضارة ؟!

رابعا

ما كدت أمضى فى كتابة هذه السلسلة حول عدم الجدوى من ممارسة فكرة الحوار أو حوار الأديان الذى صدع به رءوسنا عدد كبير من السادة الكتاب على اختلاف انتماءاتهم، وأنه لا جدوى من أن نقع تحت إغراء الآخر حتى وجدت القارئ العادى يتنبه معنا إلى أن الذى يحدث الآن ينتمى إلى صراع الحضارات أو صدام الحضارات، مما ظل يردده رموز الإمبريالية الغربية طيلة التسعينيات..

وكان ما خص ما أشرنا إليه من أن "صدام الحضارات" الذى يتحدثون عنه ليس هو صراع بين حضارة وحضارة، أو بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، وإنما هو وضع الإسلام وليس حضارة الإسلام كمقابل وحيد لحضارة الغرب.

وهو وضع مقصود وليس بغير دراية وأحكام.

وكان اندهاشنا الأول نابعًا من السؤال: لماذا لا تضع الحضارة الإسلامية - إذن - فى مواجهة الحضارة الإسلامية؟ وجاءت إجابتنا فى شكل الرمز الصريح: إنها حكاية الذئب والحمل..

أعتذر عن هذه المقدمة، غير أن ما دفعنا للعود إليها رسائل ما زالت تترى علينا وتعليقات لعل من آخرها هنا ما أشار إليه د. أحمد إبراهيم الفقيه من العود - وإن يكن بحيرة مثلنا - مع اختلاف التوجهات - إلى هذه القضية.

وما دفع الأستاذ الكبير إليه جملة من الأفكار منها ما نذهب نحن إليه من أننا أحد هذه الأصوات التى تقسو أحيانا فى تسفيه فكرة الحوار التى نراها تفتقد لأبسط شروط النجاح مثل التكافؤ والندية والثقة.

ونحن مع من يؤكد أننا يجب أن نتكلم بصوت واحد فى مثل هذه القضايا الخطيرة، ولأننا قبل أن نفلح فى تأسيس حوار مثمر مع الآخرين، يجب أولاً أن نقيم مثل هذا الحوار مع أنفسنا.. إلى غير ذلك

ومع أننا نتفق مع د. الفقيه فى ضرورة تأسيس حوار مثمر بيننا (أين هذا الحوار ياسيدى؟) فيجب أولاً أن نتمهل عند أمرين:

- أحدهما بدهى، أى ما هو كائن.
- والآخر هو ما يجب أن يكون.

وهو ما يخرج بنا من الإيجاز إلى التفصيل

(2)

أما الكائن هنا فإنه ما يجب أوما ينبغى عمله، وعند الفقهاء ما يلزم به الشرع ويثاب على فعله ويعاقب على تركه.. والكائن هنا بشكل أدق - كما يذهب علماء اللغة - هو «أمر مشترك بين أفراد النوع».

إذن هو ما يجب أن يكون بيننا نحن العرب وحدة أو اتحاد على كل المستويات، وقد شهدت الأقطار العربية على أثر صدمة 11 سبتمبر موجة من التردد والحيرة فى اتخاذ موقف فمن ليس «معنا فهو ضدنا» - وهو تعبير بوش منذ الساعات الأولى، وهو ما ظل يتردد من مستشاريه وعسكرييه بعد ذلك لأيام طوال.

وهو ما انعكس لدى أمة متفرقة الرأى، خاصة، أن الصدمة الأولى وردود الأفعال خلفت وراءها مواقف من الحيرة التى لم تترك لقطر عربى أن يتخذ موقفًا مستقلاً، اللهم إلا موقف مصر والسعودية خاصة، وعلى وجه الأخص مصر التى راحت منذ الساعات الأولى تعلن بصوت رئيسها ضرورة إقامة مؤتمر.

وقد رأينا عديدًا من المحاولات لدى السياسيين والمثقفين لمحاولة عقد اجتماع عربى أو نشاط يدفع الى الوحدة فى الموقف أو الرأى، وتعددت الدعوات التى لم تنجح كثيرًا فى صنع هذه الوحدة العربية فى عصر ما بعد11 سبتمبر بدءًا من المحاولات الأولى مرورًا بمؤتمرات الجامعة العربية واجتماع وزراء الخارجية البريطانية، بل وتأجيل مؤتمر القمة العربى الذى أوشك أن يعقد، وربما ظلت الدعوات الثقافية للحفاظ على «التكامل الثقافى» أكثر ما ميز هذه المرحلة، وقد كان آخر هذه المحاولات الإيجابية الندوة التى عقدها معهد الدراسات العربية تحت إشراف مديره النشيط د. أحمد يوسف أحمد والمستشار المثقف الكبير د. عز الدين إسماعيل..

وقبله تميزت «الحلقة النقاشية» إلى مركز دراسات الوحدة العربية [ع 272]، وكان أكثر ما يلفت النظر فيها هتاف البعض فى نهاية الحلقة بما يشبه الهتاف الجماعى بهذه العبارة:

- الوحدة، الوحدة، الوحدة. إذا كانت هى ضرورة فى كل حقبة فإنها فى حقبة الحملة الأمريكية أشد.

فقد بدا - بالفعل - أن من بين أهداف الحملة الأمريكية.. تأكيد الانقسامات العربية والإسلامية.. إلى غير ذلك مما هو كائن فى هذه الفترة الصعبة التى نحيا فيها جميعا.

ومن هنا، فإن الخروج مما هو كائن إلى ما يجب أن يكون هو الخروج من حالة الفرقة وعدم التماسك الضرورى إلى حالة الوعى بضرورة الخروج من الخصوصيات القطرية إلى حالة الوحدة القطرية التى هى الحل الوحيد لتحويل الفكر إلى فكر، ومن ثم تعاد صياغة الإرادة المعلقة إلى إرادة فاعلة نحو المستقبل... وهو ما نصل به إلى الوسيلة التى نحقق بها ذلك.

(3)

كيف يمكن الخروج مما هو كائن، وقاس، وما هو ما يجب أن يكون، وهو غائب غالب على الإرادة الغائبة فى مناخ صعب إلى حد بعيد..

وبعيدًا عن الوسائل التى يجب أن تحقق التكامل العربى على المستوى السياسى وقد شغلت بها أجيال عديدة من المثقفين العرب، بل وتجسدت بالفعل - على المستوى السياسى - لمرة على الأقل فى نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات فيما عرفت الوحدة بين مصر وسوريا - الجمهورية العربية المتحدة..

ولأننا نعرف كل هذه الظروف الصعبة والخلافات المريرة بين الفرقاء حين نتحدث عن الجانب السياسى، ولانه لم يبق أمامنا طريق غير التكامل أو التقارب الثقافى، فإن الوعى بالوسيلة التى تخرج بنا من هذا الواقع لا بد أن يتحدد أو يتجسد فى الإدارة وتظل الوسيلة - وهو ما نعود إليها من جديد - تحقيق هذه الوحدة بين الخصوصيات الخصوصية فى وحدة سياسية.

إنها القوة وإن اتخذت لها أداة الوحدة.

وهذه الوحدة لا بد أن تتم بشكل ما من أشكال القوة:

القوة التى نتلمسها فى التعامل مع الغرب.

ليس القوة فيما بيننا.

الوسيلة فى التعامل مع الغرب هو ما تبقى لنا.

والوسيلة الوحيدة التى يتفهمها الغرب تظل هى اللغة الوحيدة التى يفهمها وهى لغة القوة.

والوحدة ليست وحدها القوة اللغة الوحيدة التى يفهمها الغرب، وإنما من وسائلها أيضًا هذا التقدم التكنولوجى الهائل..

إن لغة «نيتشة» فى هذا العصر هى اللغة الوحيدة التى تعيد إلينا حقوقنا، أقول هذا بمناسبة ما يدور منذ عاصفة 11 سبتمبر من الحديث الطويل الممل الذى يجرى هنا وهناك حول ما يطلق عليه بصراع الحضارات أو «صدام الحضارات»، وما نسمع عنه فى بلادنا العربية والإسلامية أو بين أقطار الشمال خاصة من عرب المهجر الذين أقاموا فى الشمال من أمثال حوار الأديان أو الحوار بين الحضارات وما إلى ذلك، وكأننا لم نكتشف الغرب منذ قرون بعيدة، وكأننا لم نفهم اللغة الوحيدة التى يعرفها الغرب - وربيبته إسرائيل - منذ نصف قرن على الأقل..

إنه أسلوب القوة سواء تحدد فى الوحدة السياسية فيدرالية أو كونفيدرالية أو تحدد فى الوحدة العسكرية الخالصة التى هى حاصل الوعى السياسى والثقافى وفهم أكثر لآليات عصر مركز التجارة العالمى.

صحيح أن هذا كله يتوجب علينا إعادة النظر فى آليات النيوليبرالية: الأقليات. حقوق الإنسان ـ الخصخصة ـ نهاية الدولة ـ نهاية السياسة ـ المجتمع المدنى.

ثم مفاهيم أصبحت لا تنطلى علينا كصدام الحضارات ونهاية التاريخ.. إلخ.

إنه الأسلوب الذى يجب أن نقترب منه أكثر فنستوعبه من الداخل ولا نكون خارجه أبدًا.

إن الأسلوب هو الأداة الوحيدة التى يفهمها الغرب، وهو الأداة التى يستخدمها ضدنا، وهو تجسيد الوحدة العصرية بين الشعوب والاقتراب بها أكثر من هذا الواقع فى بداية الألفية الثالثة إن هذا التجسيد يتحدد فى استخدام القوة فى الحصول على حقوقنا والحفاظ على وجودنا بكرامة.. وهى القوة التى تصبح رديفًا أو معادلاً وحيدًا لحقوقنا، وهى الوحدة الحق الذى يعبر بها المثل الغربى عن ذاته هو الآن، إنه المثل الذى نقرأه على هذا النحو

القوة هى الحق.

الواقع إذن هو رؤية اليوم القاسى الذى نحياه، كما هو

وما يجب أن يكون هو رؤية الوسيلة التى نستطيع أن نغادر بها هذا الواقع المر السقيم.

إمبراطورية الأخلاق.. هل أنا ماكيافيللى؟!

كثيرًا ما طرح المثقفون والمفكرون العرب فكرة انهيار الحضارة الغربية واضمحلالها.. ففى الغرب الأوروبى عرفنا تحليلات أرنولد توينبى واوزوالد شبلنجر وبنيامين كيد وغيرهم من علماء الغرب فى حقبة مبكرة، وربما كان أبرزهم فى تفسير اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها الكاتب الكبير بكتابه الضخم إدوار جيبون.

وفى الحضارة الأمريكية عرفنا تحليلات مفكرين ونقاد أمريكيين من أمثال نورمان مالر وجارى ويلز وجوزيف كامل ونعوم تشومسكى وتوماس بنشون وميشيل هارنجتون وسوزان سونتاج فى الحقبة الأخيرة..

ولعل أحدث ما صدر وتُرجم للعربية كتاب «فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى» لأرثر هيرمان (وترجمة طلعت الشايب) يعرض لفكرة الانهيار والاضمحلال للحضارة الغربية فى كثير من التفصيل والتبسيط فى آن واحد، وأمامنا الآن محاولات كثيرة لانحراف السياسة الأمريكية وقبلها وبعدها لانحراف المثقفين والمفكرين الأمريكيين كثيرًا، فإذا عبرنا التسعينيات إلى الفترة الأخيرة فسوف نجد المثقف الغربى وقد تحول - لا إلى محذر من السقوط الأخلاقى - وإنما إلى مبشر بالقوة الأمريكية التى سوف تستحوذ على هذا العالم الذى يعج بالإرهاب، ولعل، أكثر ما يشير إلى هذا ليس استطلاعات الرأى العام الغربى وحسب فقد استطاع الإعلام الغربى خداع المواطن وإحكام السيطرة عليه، وإنما عبر كتابات المثقفين الغربيين أنفسهم، ولعل الرسالة الأخيرة التى نشرت فى أكثر من مكان وباكثر من لغة فى شهر فبراير الماضى ووقع عليها 60 مثقفًا غربيا وأثارت هنا جدلاً كبيرًا بين المثقفين العرب ومازال مستمرًا.. هذه الرسالة تعبر عن حدة الحضارة الأمريكية وغبنها.

فإذا تجاوزنا عددًا من الموقعين المنظرين للسياسة الأمريكية من أمثال هنتنجتون وفوكوياما وقد أصبحا مشهورين عندنا - لرأينا توقيع رجل مثل ديفيد بلانكنهورن رئيس ومؤسس معهد القيم الأمريكية Institue Foramer Ican Values وهو الواضع الأول لنص هذه الرسالة وهو ما يقترب منا أكثر من ماكيافيللى أو مبادئ «سيد البيت الأبيض» وهى إحدى لوحات الكتاب بين يدينا الآن.

يذكرنا بهذا كله الكتاب الذى صدر أخيرًا «صعود وانهيار إمبراطورية الأخلاق» من تأليف د. سمير سرحان، فرغم أن الكتاب يصعد ويهبط بنا بحثًا عن الأخلاق ومنطلقًا منها فى تطور الحضارة أو هبوطها، عبر لوحات

كثيرة فإن اللوحات الكثيرة التى يحف بها الكتاب، والتى كتبت ورسمت، على فترات متباينة فى الفترة الأخيرة، تلقى جميعها فى «اللوحة الاخيرة»، حيث يرصد شروط انهيار الإمبراطورية الأمريكية فى علاقتها بالعالم خاصة، وبالمنطقة العربية بشكل أخص..

تقول اللوحة واللوحات لكون الكاتب الذى يحاول الرصد لانهيار الحضارة الأمريكية وجاء من ميدان النقد الأدبى والإبداع الأدبى، ومن ثم، فإننا أمام محاولة «فريدة» لتصور حالة العالم وهمومه من منطلق مغاير لمنطق عالم السياسة أو المفكر السياسى بشكل عام.

وعلى هذا النحو، فإن المحاولة هنا تنفرد عن غيرها وهو ما نتمهل عند الكاتب أكثر قبل أن نعود إلى موضوعنا الأول انهيار أو «اضمحلال» الحضارة الأمريكية، إن تجربة الكاتب هنا تعود ـ كما حاول أن يبسط لنا تجربة لا يقوم بها مفكر سياسى ولا متخصص فى علم الاجتماع أو علوم الاقتصاد أو غيرها، فإن الأديب الكامن فى أعماقه أخذ يطل برأسه بقوة كلما بدأ الكتابة فى موضوع يشغل المجتمع من حوله، أو قضية من القضايا المحورية التى تؤثر فى حياة مجتمعنا فى قيم وسلوكيات أفراده وقضاياه المختلفة، أنها تجربة مغايرة لأية تجربة أخرى.

إن الكاتب هنا لا يعرض لقضية عبر النقد الأدبى، كما أنه لا يهتم كثيرًا برسم مصائر الشخصيات الإبداعية عبر النص الدرامى، إنما يحاول أن يخرج من هذا كله (وهو لا يستطيع) ليعبر عن الواقع السياسى بجهد شديد (وهو لا يستطيع)، ليصل من هذا كله إلى بواعث سقوط الحضارات عبر التعبير الأدبى (ولا يستطيع). وهو ما يصل بنا إلى «تركيبة» فنية أو قل محاولة فكرية لم يستطع الكاتب أن يخرج فيها عن ذاته، وإن كان يحاول أن يستفيد منها بكل المكتسبات النقدية والفكرية ثم الوعى الآنى السياسى فى التعبير عما يحدث فى هذا العالم حولنا.

إنه فى أسلوبه يحاول عبر التعبير المزج بين فن القصة والدراما وفن المقال أو التحليل، أو فلنقل عبر لسانه يحاول كتابة قطعة أدبية تعبر عن قضايا محورية فى حياة المجتمع الآن..

ومن هنا، فإن رأيه يمزج بين الفكر والفن عبورا إلى الرؤية العامة. أو هو يسعى للانشغال بالقضايا الكبرى وإن يكن عبر التطور الطبيعى للناقد حين يجد نفسه مضطرا أمام زخم الأحداث وعنفها إلى التخلى عن الريشة إلى القلم، وترك التعبيرات الرومانسية «حتمية» استخدام اللفظة الفكرية الموحية بشكل مباشر أكثر من اللقطة الفنية المترسبة فى أعماق الفنان.

ليس معنى هذا أنه استطاع أن يخلص من لا شعوره الفنى، وهو يتحدث عن سقوط العالم، وإنما راح يستخدم وعيه فى فهم حركة التاريخ وصعود الحضارات لسقوط قيمة الأخلاق، ومن ثم، يصل إلى البواعث الأولى التى تؤدى إلى انهيار الدول وتلاشى الحضارات، وهو فى هذا دائب الصعود إلى ممارسات شارون العدوانية العنيفة البعيدة كل البعد عن الأخلاق للوصول إلى ممارسات بوش الباردة الغريبة البعيدة كل البعد عن الأخلاق، وعلى هذا النحو، فإننا أمام محاولة للتعبير عن الواقع الحاد بريشة كاتب حاول أن يخرج من أردية كتاب سابقين مارسوا الفن والفكر فى آن واحد، لعل من أبرزهم فى العصر الحديث لويس عوض، فهذا الكاتب الكبير الذى بدأ كتاباته الاولى بالنصوص الدرامية والروائية بل إنه مارس الشعر بشكل ما، مالبث أن غرق لأذنيه أمام شراسة العالم وعنفه فى الممارسة الفكرية الحادة..

إن الكاتب هنا يضطر أن يترك رفاهية الإبداع ـ على أهميته ـ إلى مبضع الجراح ـ على ضرورة دوره ـ ذلك لأن الأحداث العنيفة التى يمر بها عالمنا لا تدع الفرصة للكاتب أن يتأنى كثيرًا فى رداء الفن..

إنه الواقع الصعب الذى يعيش فيه هذا العالم الذى يشهد غطرسة أمريكا، ومن ثم، التخلى عن كل القيم الأخلاقية للوصول إلى أهدافها التى تطورت فى عصر العولمة، ثم تطورت أكثر بعد11 سبتمبر، فتحولت إلى «عسكرة العالم» فى أردية العولمة العسكرية، ومن ثم كان لا بد أن نشهد بدايات السقوط أو قل «الانهيار» بتعبير الكاتب هنا.. إن الكاتب هنا ينطلق فى محاول لتفسير انهيار الإمبراطورية من الدراما..

إنه بعد أن يشير إلى مكيافيللى و«الأمير» الذى أصبح مرجعًا لكل طامح فى السيطرة السياسية، يلاحظ أن صورة البطل فى نظره فى قيصر بورجيا ـ حاكم إيطاليا فى نهاية القرن الخامس عشر ـ الذى اقترف جرائم كثيرة وهو فى الطريق للوصول إلى السلطة، واقترف جرائم أكبر وهو فى طريق وصوله إلى الحكم حتى يدعم نظام حكمه (والكاتب هنا يفتح قوسًا ليكتب فيه هذه العبارة ألا يذكرنا ذلك بشارون..».

وهنا يذكرنا بما جاء فى إحدى دراما شكسبير فى مسرحيته الكوميدية «زوجات وندسور المرحات» حين تقول إحدى الشخصيات:

ـ ماذا هل أنا مخادع؟ هل أنا ماكيافيللى؟

وهو ما يشير إلى أن استخدام لغة ماكيافيللى ترتبط لديه بما حدث بعد انفجار سبتمبر، وأن ما كيافيللى «شارون أو بوش» إنما يستخدم السياسة التى لا تهتم بالأخلاق بأية حال، ومن ثم، يكون من السهل أن نجد مواقف أمريكا العنيفة بعد11سبتمبر وهى تتحرك فى العالم كله بعيدًا عن القيم الأخلاقية وقريبًا من تحقيق الأهداف الماكيافيللية المعروفة أو (الانتهازية السياسية).

إننا نرى العالم الغربى وعلى رأسه أمريكا ـ وهنا يصل بنا إلى تفسير «اضمحلال الإمبراطوريات الكبرى».

.. فهذا العالم الغربى يتناسى تماما مبادئ الديمقراطية وحرية الرأى والعقيدة، وكذلك احترام حقوق الإنسان التى بنى عليها فلسفة النظام العالمى الجديد، وبسبب اتهام لم يثبت حتى الآن لبعض المنظمات الإسلامية المتطرفة..

إن منظرى أمريكا فى التسعينيات من أمثال هنتنجتون وفوكاياما.. وغيرهما يدشنون بعد عاصفة مانهاتن ـ العصر الأمريكى الوقح فيسعون إلى تغيب القيم والأخلاق، وهنا يطل رأس ميافيللى مرة أخرى، حيث نظريته الشائعة «الغاية تبرر الوسيلة» وينسى سيد البيت الأبيض وإعلام أمريكا مبادئ الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والإيمان بحرية الراى وحرية التعبير، ومن يتحدث عن هذه القيم فى داخل أمريكا أو خارجها يكون محكومًا عليه بالقبض والحكم عليه بدون محاكمة حتى منح فرصة واحدة ـ ولو شكلية ـ للدفاع عن النفس ودون أن يعرف أحد مكانهم حتى سفاراتهم أو ذووهم وتقوم رقابة خفية على الصحف ويأخذ سفاح إسرائيل الإذن بالقتل العشوائى..إن ملاحظة ما يجرى فى العالم اليوم من تدمير أفغانستان والتهديد بالقضاء على محور الشر (وبه العديد من الأقطار العربية) وإطلاق يد شارون فى جنين والخليل والقدس وبقية الأرض المحتلة سرعان ما يدرك معه أن الإرهاب الذى تحدث عنه منظرو ما بعد 11 سبتمبر أصبح هو إرهاب الدولة «الغربية»، وأن العنف هو رمز الحضارة الغربية الذى ينتهى بالعم سام الى تحطيم كل المثل التى قامت عليها الآلة الديمقراطية. الأمريكية، ويصل الأمر إلى درجة نفى الآخر وانهيار لفكرة الحوار الديمقراطية والتعددية فى الآراء وحرية التعبير.. إلى آخر هذه الأفكار التى كانت تنادى بها الحضارة الغربية وفى مقدمتها البيت الأبيض.

فسيد البيت الأبيض فيما يبدو ـ بل هو باليقين ـ أصبح ماكيافيللى

الجديد، الذى لا يريد أن يشير أحد إلى الديمقراطية.. وهو ما تنبه إليه ابن خلدون قبل ذلك بكثير حين راح يربط بين العمران وبين بقاء الدول، ثم راح يحدد بواعث الانهيار حين قال فى مقدمته (إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل، وسلوك طرقها، فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة، ولا تزال فى انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم)..

وهو ما يحاول أن يؤكده ويبرهن عليه صاحب كتاب «صعود وانهيار.. إمبراطورية الأخلاق».

تغييب الجمهور عن الشاشة الزرقاء

يبدو أن رمضان غاب عنا هذا العام فى الشاشة الزرقاء.

إن غياب رمضان الذى نقصده هنا هو غياب الوعى أو «الخطاب» الإعلامى الحقيقى الذى كان يتقدم به رمضان ـ أيام زمان ـ عبر الشاشة الزرقاء لجمهوره، ومن ثم غياب الجمهور الواعى الذى كان يتوجه إليه.

أو لنجازف بالقول ـ بوضوح أكثر ـ إن الجمهور تم تغييبه عن الشاشة الزرقاء.

وقد كدت أشبه ما قدمه الإعلام هذا العام «باسكتشات» على غرار ما كان يقدمه على الكسار فى الأيام الخوالى- مع فارق الزمن - لولا أن العود إلى الزمن للمقارنة عبث يعلمنا التاريخ أنه لا طائل من ورائه، فضلاً عن أن هذه الإسكتشات تخلو ـ بحق ـ من الوعى بخطورة الفترة التى يمر بها ـ تاريخيًّا ـ وخطورة ما يحدث فى المكان ـ جغرافيًّا ـ فنحن نعيش أخطر فترات حياتنا..

ومن هنا، فإننا سنحاول أن نغادر الأشكال القديمة الذى فات زمانها ـ

لنقف أمام مرآة الوعى المعاصر الذى تعاملنا معه أثناء تقبلنا ما يقدمه جهاز التليفزيون المصرى بوجه خاص..

ولأن الوعى كان غائبًا مثل رمضان تمامًا على الشاشة الزرقاء، فقد تعرفنا هذا العام على عديد مما يقدم بشيء من الأسى، ليس فقط لرداءة ما قدم، وإنما - أيضًا وأيضًا - لأننا نعيش فى فترة حضارية يستوجب فيها شحذ كل أسلحتنا - وفى مقدمتها الوعى الفنى - للعيش فى زمن الكاهن الكبير لعصر العولمة (الأمركة) وأدواته الكثيرة بدءًا من صندوق النقد الدولى إلى القرار 1441 الذى قدَّمه لنا هذا الكاهن لتفسير قرار مجلس الأمن مرورًا بآليات العولمة بعد أن تعدت آليات الاقتصاد والسياسية، ثم الثقافة.. إلى العسكرة، ومن ثم ضراوة الهيمنة (الواحدة) فى هذا الزمن الذى تتعدد فيه القوى وتتحدد فى ساحة الالفية الثالثة..

حولنا وبيننا عدو متوحش لعين وما زلنا هازلين أو كالهازلين فى حياتنا فلندع كل هذه الثرثرة، ولنتأمل بعض ما قدمه لنا رمضان هذا العام ولنتمهل خاصة عن الدراما (أقصد المسلسل) والكوميديا (أقصد الهزل)....

المشاهد كثيرة والصور أكثر مما تحصى سواء فى الإذاعات والتليفزيونات الأرضية أو الفضائيات الهوائية، وهو ما يفرض علينا أن نتمهل أكثر عند الشاشة المصرية ومشاهدها التى لا تنتهى.

من هذه المشاهد تلك المسلسلات التى تعكس السؤال:

هل ما يقدم حقًّا يعكس ما يجب أن يقدم لنا فى الشهر الفضيل؟

وبدون أن نعيد على المشاهد الكريم أسماء كل هذه المسلسلات، نلفت النظر (هل نحن حقًّا نحتاج إلى لفت النظر؟) إلى هذا الزخم المهول من

الإعلانات (كأوامر السادة المعلنين) التى قد تصل فترتها الزمنية على أكثر من الفترة الزمنية التى تبقى للمسلسلات أو هذه البرامج القريبة منها؟

إن أمامنا عددًا هائلاً من الإعلانات قبل المسلسل أو هذا البرنامج أو ذاك) وبعد مشهد أو مشهدين منه (التكرار هنا مقصود) وعند لحظات الدراما الباردة و الساخنة ورغم أنف هذا النجم الكبير أو كرامته ثم قبل نهاية المسلسل وبعد نهاية المسلسل.

إن أمامنا عددا من الإعلانات تنتشر كالفطر وبشكل لم يسبق له مثيل فى كل ما يقدم هذا العام، وهذه الإعلانات هى مادة ـ تستخدم من التكنولوجيا فى تقديم ما تريده ـ بشكل يفوق الوصف..

باختصار، فنحن على المستوى الاجتماعى أمام قدرة جديدة تكنولوجيًّا تمنح لأفراد (ولرجال الأعمال) قوة هائلة لاجتذاب موارد أمتنا لمصلحة هيمنة قطاع محدد على التنمية الاجتماعية والاقتصادية ثم الثقافية خاصة..

وعبورًا على الأثر الذى يقدم فيصيب القوى المركزية لشعب وادى النيل، فإننا أمام هذا الأثر المخيف الذى يعيد صنع المرئيات ويعيد صياغة الأفكار فى عصر العولمة عبر كل ما يقدم فى التاثير على عقل الجمهور الذى يتحلق حول هذا الجهاز.. إننا أمام إعلانات لا ترتبط بحاجة الجمهور بوعى ثقافى قومى، وإنما كل ما يهمها هنا هو الترويج لما تريد له أن يروج من قيم، وكلها قيم (أفكار أو بضائع) تروج لسوق تنتفى عندها أية مصلحة وطنية وأخلاقية

هل رأيت هذه الرقصات الخليعة والعيون الشبقة والأزياء المبهرة والبحيرات غير الموجودة فى بلادنا والإغراء الذى لا يحيلنا إلا إلى عصر العولمة السعيد فقط..

والمعروف أن أكثر هذه الإعلانات ـ كما أشرنا ـ تقدم أكثر ما تقدم فى المسلسل، أكثر الأشكال الدرامية التى يقبل عليها الجمهور، فإذا بنا أمام ستة عشر مسلسلاً ترقش كلها بالإعلانات التى تكاد تخفى «الخطاب» الذى يريد أن يقدمه هذا المسلسل أو ذاك أو هذا البرنامج أو ذاك.

فإذا أضفت إلى هذا أن جرعة البرامج الضاحكة ازدادت هذا العام لتبينت أن جرعة الإعلانات تفوق أية مادة أخرى تقدم، بل قد لا نغالى إذا قلنا إن جهاز الإعلانات هو الذى يقدم هذه المادة أو تلك، هذا البرنامج أو ذاك، وكان (كل) ما يقدم لنا هو من صنع هذه البرامج التى أصبحت مملوكة فى الغالب لأفراد ولرجال الأعمال، حتى إننا نتنبه من جديد إلى تأثير ما يقدم على أن يكون تابعًا لهذه الجهات التى يقدم منها، مما يشير إلى أن التنمية التى تسعى إليها الدولة هنا لا تستطيع أن تواجه هذه القوى الأخرى التى تحاول اجتذاب موارد أمتنا لمصلحة أفراد وليس لمصلحة الأمة نفسها.

وبشكل واضح وصريح لمصلحة رموز عصر العولمة، حيث يحدث التغيير ليس لتغييب الاقتصاد الوطنى وحسب، وإنما لتغييب الهوية العربية وسط الألفاظ الإنجليزية والمنتجات الغربية وخزائن الخبرة التى تمنح لنا مجانًا بقصد موجه ضدنا.

ثم - وسالت نفسى هنا أسئلة بريئة:

هل ما يقدمه مسلسل صنعت له «بروباجندا» غير عادية.. يقدم حقًّا لرصد التاريخ العربى لقرنين من الزمان فى إطار من الوعى السياسى؟

إن هذا «الفارس» على سبيل المثال.. لم يقدم لنا ما سمعنا عنه وما أشار إليه أصحابه كثيرًا، فهو يقدم لنا مغامرات إنسان خارج عن المجتمع يحاول أن يلعب الدور الآخر مع تنويعات تبدو وطنية هادفة (تبدو) ، وكل ما

عرفناه أو سمعناه عما يثيره هذا المسلسل لم يقدم لنا شيئًا، وهو ما يطرح أسئلة بدهية أخرى.

- إذن، أية جهة كسبت حقًا - إعلاميًا ودعائيا مما قدم.. ألم يكن من الأجدى أن نلفت النظر إلى المشاهد الأخرى المريعة فى التاريخ منذ مؤتمر بازل حتى الآن ؟

- ثم ألم يكن من الأجدى أن نلفت النظر إلى الدور الغربى لبناء مستعمرة غربية بين الأقطار العربية، ثم نلفت النظر إلى التجاوزات المريعة التى تحدث يوميًا حقًا فى الأرض المحتلة من مجازر أو التهديد بضرب الكعبة والمسجد الحرام بالسلاح النووى «الآخر الصهيونى» أو فى الغرب اللاهى عن «الآخر الغربى» أو - حتى - الآخر بيننا «العربى»..

وهل هذه المغامرات العقيمة الكثيرة تشير حقًا إلى أن للفن «خطابا» نبيلاً يجب التنبه إليه ؟ أو يشير إلى أن الغرب فشل حقًا فى النيل من هذا المسلسل بما انتهى إليه من حالة اضطراب المشاهد و «تفككها»؟

إن نظرة واحدة فى عشرات المشاهد يوميًا فى الأرض المحتلة والعود إلى ما يحدث فى أرضنا يكفينا معه - للعاقل - أن يغلق هذا الصندوق بكل ما فيه - لينصرف إلى شئونه وشئون أجيال جديدة فتحت شبابيك العولمة من حولها لتعيد صياغة فكر ووعى وأخلاق الجيل الجديد..

غير أن التوقف عند إمبراطورية الإعلان أو فضاءات المسلسل وحده، ليس كافيًا للإشارة إلى بعض ما قدمه التليفزيون أو بعض مما لم يقدمه، فالإشارة إلى برامج الدعابة أو الهزل تكرر ما سبق أن قلناه، وتضيف أمرًا آخر بدهيًا وهو ما يرتدى من ثوب «المسابقات» ويقتدى بالخطوط التى تزيد من تأثير العولمة أكثر، إن لدينا كمًا هائلاً من المسابقات المكررة والمفروضة إلى درجة ملحفة لا يمكن المرور عليها..

إن الشبكة الذكية الخاصة بالكود الفلانى (ونحن نعرفها جميعًا) استطاعت أن تفرض هذا المسابقات التى من أول شروطها أن تخلو من الذكاء أو التفكير العميق فى المعلومة المطلوبة، وهذا مطلوب فى حد ذاته، فالإلحاح على الإجابات العامةـ والتى لا تحتاج إلى أى تفكير- فقط كانت لشغل شبكة التليفونات التى تدر أرقامًا بالملايين على السادة المعلنين.

وما دام السادة المشاهدون أسرعوا للحصول على هذه الجائزة الضخمة لأسئلة سخيفة لا تحتاج لأدنى تفكير، إذن، فما هى المشكلة، لا يبقى إذن غير الفعل المتعمد للحصول على الملايين التى توزع مناصفة أو مثالثة.. كما يشاء لها أن تكون.

هل رأينا هزلاً أكثر من هذا على الشاشة الزرقاء؟

هل لاحظنا فارقًا كبيرًا بين شاشة مصرية أو عربية.. ؟

وهل لاحظنا فارقًا بين شاشة عربية وشاشة عربية أخرى؟

هل لاحظنا مقاومة أصحاب الشبكة هنا أو هناك لسطوة المعلنين أبناء العولمة وممثليها..

الأسئلة لا تحتاج لإجابة واحدة..

وتصل الحيرة إلى أقصاها: ما تريد الشاشة الزرقاء أن تقدم لنا، إن الأمر لا يجوز احتمالين:

ـ إما أن الجمهور أصبح تابعًا لما يريد التليفزيون أن يصل إليه بإعلاناته ومسلسلاته ودعاباته وابتساماته (قرأنا على لسان السيدة رئيسة التليفزيون أن توصيات لجنة السياسات فى اجتماعها قبل رمضان كانت تركز على زيادة جرعة الكوميديا).. وهو مارأيناه بالفعل

هذا هو الاحتمال الأول أن يكون الجمهور أصبح تابعًا متأثرًا بماقدم، أما

الاحتمال الآخر فهو أن الجمهور كان أكثر جدية ووعيا، ومن ثم، انصرف - فى الغالب - عنه فى الشهر الفضيل، والاحتمال الآخر وهو الأرجح، هو أن الجمهور غاب عن الشاشة هذا العام أو غاب التليفزيون عن جمهوره بالفعل وهو ما طرحناه فى بداية هذه السطور.

سألنى البعض وأنا أسلم هذه السطور، ألم تر على الشاشة المصرية أى شىء إيجابى؟ أسرعت فى الإجابة: نعم، هناك عمل أو اثنان.. غير أن الإيجابى حقًا، والذى يخلو من الوعى قليل قليل، والقليل القليل - على ندرته - يؤكد القاعدة والردىء كثير كثير، والكثير الكثير لا يؤدى الدور المنوط به فى أخطر فترات تاريخنا..

ولهذا نقول عن غياب الجمهور أو تغييبه!!!

إنه الشكل الآخر الهزلى للعولمة.

إنها تهويمات العولمة فى اقبح صورها.

وتتعدد صور العولمة، ونقترب أكثر منها فى الفضائيات أيضًا.

الإعلام العربى والغربى

أولاً

ما هو المشهد الإعلامى العربى فى الوقت الراهن؟

وبشكل أكثر دقة لماذا هذا التأثير الإعلامى الغربى على المناخ العربى أو على المواطن العربى إلى هذا الحد عبر الحقبة الماضية خاصة بعد11 سبتمبر بوجه خاص؟

لقد جاء 11 سبتمبر ومضى وسط إعلام عربى يكاد يكرر نفسه، بل الأكثر إيلامًا يكاد يكرر الإعلام الغربى ـ سواء الأمريكى أو الأوروبى منه بشكل عام..

شغلت بالصحف الغربية فوجدت تجانسًا كبيرًا بينها، وأعدت النظر لإعلامنا وهذه الصحف والمجلات التى تصدر فى داخل العالم العربى وخارجه الآتية خاصة من لندن وباريس: فوجدت المساحات الشاسعة التى تتحدث عن الحدث بتقمص غربى خالص.

لقد روعت قبل وبعد11 سبتمبر حين وجدت كل هذه المساحات الشاسعة سواء المقروءة أو على القنوات الأرضية والفضائية، بل لم تخل منها الكثير من المواقع العربية على الشبكة الإليكترونية.

أقول روعت حين وجدت نفس وجهات النظر ونفس التحليل بل ونفس الصور تتكرر بشكل مذهل..

والبديهى حقًّا هنا أن مساحاتنا الفضائية والأرضية كانت طبق الأصل من الإعلام الغربى.

ولكى نتأمل أكثر فى هذا التشبيه، سوف نشير إلى ملاحظتين: الأولى: ـ بعض إعلامنا الذى نجده ينقل صورة متعمدة للحدث، والأخرى: حين نعود القهقرى لإعلامنا فى الخمسينيات لنرى كيف كان الإعلام قويا وذكيا إلى حد بعيد.

ورغم ما يبدو أن المقارنة تتباين زمنيا وموضوعيا فإن الأثر الباقى يظل هذا المشهد المختلف لرؤيتنا الآن ورؤيتنا منذ نصف قرن أو أقل.

وهى مقارنة نضطر إليها لهذا الإعلام العربى الذى لم يختلف الآن عن شبيهه الغربى رغم تباين الأحداث وتباعد الرؤى، بل نزيد فنقول رغم تباين الهدف بيننا وبينهم.

إنها رؤية الإعلام العربى فى مواجهة الإعلام الغربى.

(2)

وإذا تأملنا الصحف الأمريكية ـ أو حتى الغربية منها ـ فسوف نروع أن كل ما يصدر عندنا من الإعلام المقروء منه أو المرئى بما فيه النظام الإليكترونى فى شتى نشاطاته والمواقع والصور الرقمية بل والهوية الإليكترونية بشكل عام.. كل هذا لم يخرج عن الصورة التى رسمت له عشية عاصفة مانهاتن.

وكل هذا لم يخرج عن الصورة التى يقدمها أغلب من يعملون يكتبون فى هذه المجالات..

إن الصحف التى تتخذ موقفًا معاديا ضدنا تتمتع بانتشار وثراء أكبر بكثير من غيرها، وهى تقع تحت تأثير مغرض حينًا وممول حينًا آخر بشكل ينتهى بالأمريكى العادى إلى الفكر الذى تريد النخبة الحاكمة أن يكون كذلك وبشكل يدعم الإستراتيجية التى أرادوها فى الغرب وينفذونها.

وعلى سبيل المثال، يمكن مراجعة صحف من أشهر الصحف الغربية وأغناها على الإطلاق لنتأكد من هذا خلال ما عرفناه ـ على سبيل المثال أو الأمثلة التى تتزايد ـ فهناك:

ـ الديلى تلغراف: اللندنية.

ـ اللوموند الفرنسية.

ـ وول ستريت جورنال: الأمريكية فى نيويورك.

ـ واشنطن تايمز: الأمريكية من واشنطن.

وتتسع الدائرة أكثر لنرى الاختراقات الكثيرة لقنوات شهيرة ضدنا ـ وتتزايد الأمثلة هنا:

ـ آى. بى. سى.

ـ فوكس.

ـ سى. إن. إن.

ـ إن. بى. سى.

ونتعرف على هذا العداء الحاد المزيف المبرمج حتى فى البرامج الإذاعية، حيث الحوارات المعدة سلفًا جيدًا بما يعرف هناك بـالتوك شوز..

ولنترك الغرب الأمريكى لنقف أمام مثال أوروبى واحد يبدو ـ فى الظاهر العام ـ أقرب إلى الوعى العربى، وأكثر فهمًا لنا بحكم التاريخ المشترك بين الثقافة الفرنسية والثقافة العربية، ثم للتباين الواضح فى عصر

العولمة بين الاستثناء الفرنسي والإصرار الأمريكي منذ مؤتمر بريتون وودز الذي أقيم في يوليو 1944 بدعوة أمريكية تحولت إلى العولمة قبل 11 سبتمبر ثم عسكرة العولمة بعد هذا التاريخ حتى الآن.

ويظل عدد اللوموند الفرنسي يوم 11 سبتمبر أكثر ما يعبر عن هذا التوجه، فالرموز التي تبنتها الإدارة الأمريكية منذ ساعات بعد الحدث: التي تنتشر في كل الصحف الأمريكية هي هي في الصحيفة الفرنسية: بن لادن، الرموز الأمريكية التي تمثل عيون العالم في رسم كاريكاتوري، ثم الملحق إلى توشي صفحته الأولى بجدارية ضخمة للعالم فوقها أشير إلى ظل Lombre بن لادن على العالم، وهو يعادل تنويم الغرب ممثلاً في العيون الأمريكية. باختصار الصحيفة الفرنسية أصبحت أمريكية خالصة، وقد شهدت الأشهر الماضية كيف تحولت إلى درجة أنها أصبحت تنشر مع العديد من العادات يرسل إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

والموقف الفرنسي ـ كمثال ـ هنا لا يهمنا إلا بالقدر الذي نحاكيه في كل أقطارنا العربية..

لقد عثرت عندنا على صحف بل وملاحق ومجلات كاملة في هذه المناسبة لا تخرج عن الحدث الأمريكي ومعطياته واتهاماته التي أصبحت لفرط تكرارها من المسلمات.

والواقع أنني لم أدهش لصحيفة اللوموند رغم ما أصابني من عجب ما زال لا يستطيع تبرير هذا كله، وإنما الدهشة الكاملة جاءت من أننا هنا ـ في الشرق العربي ـ نخرج إعلامنا ـ على جميع المستويات ـ كأنه إعلام غربي تمامًا، وأصبحنا ونحن نتبنى في الغالب وجهة نظر الغرب واتهاماته التي لم يقم الدليل عليها رغم مضي أكثر من عام على الحدث.

فلنترك كل هذا الآن ولنعد إلى الملاحظة التي تفرضها المقارنة.

(3)

تذكرت هذا كله وأنا أستعيد الدور الإعلامى العربى منذ منتصف القرن الماضى، خاصة فى حروبنا العربية ضد قوى الاحتلال أو القوى الغربية التى كانت تتربص بنا من كل جانب.

كان إعلامنا قويا، كما لم يكن يحاكى أى إعلام آخر..

أذكر وقد كنت فتى صغيرًا إبان العدوان الثلاثى على مصر أن الإعلام المصرى قام بدور جبار لمصلحة العرب وفى عقل المواطن الغربى نفسه.. بل أذكر أننى بعد الانتصار فى حرب 1956 مباشرة أن شاعت موجة من الاستياء لدى الدول المعتدية من الدور العربى للإعلام، وهو الدور الذى ساعد على كشف حيلها ودافع عن الحق العربى بشكل مذهل.

ولم يقع صريعًا لوجهات النظر الغربية، وقد كانت أمامنا الإمبراطورية الإنجليزية لم تسقط بعد والقوى الفرنسية تحمل ثأرًا ضدنا لا تزال وإسرائيل تتربص بنا وتنتظر...

وأذكر أننى بعد ذلك فى نهاية الخمسينيات كنت دائم التذكر صوت إيدن الإنجليزى، بعد أن انسحب مرغمًا من بورسعيد، حين قال: لقد هزمتنا الدعاية المصرية.

كما أتذكر الآن بعد مضى قرابة ربع قرن على الاعتداء الثلاثى صوت جى موليه الفرنسى:

لقد نفذ الإعلام المصرى إلى الشعب الفرنسى والرأى العام العالمى.

وهنا أضاف فى مرارة لا بد أن يسجلها التاريخ:

وهو ما اضطرنا للانسحاب من مصر.

بل إننى ما زلت متذكرًا تصريحات بن جوريون الصهيونى المتعصب فى

اعترافه بالحرف الواحد فى ذلك الوقت حين كانت إسرائيل تلعب دورًا سيئًا وعدوانيا مع إنجلترا وفرنسا، وقال الصهيونى المعادى:

كانت إسرائيل على ضفة قناة السويس.. ولكن الدعاية المصرية سببت الهزيمة لنا.

وهو ما يستعيدنا مرة أخرى من منتصف الخمسينيات من القرن الماضى إلى بدايات هذا القرن، كل هذا الزمان لم يستطع أن يجعلنا نرتقى فى سلك المواجهة، ونستفيد من هذا الإعلام، وقد أضاف إليه أدوات التقدم التكنولوجى المبهر فى شتى المجالات كأحد الأسلحة المهمة اليوم فى التصدى للغرب بشراسته، سواء كان هذا الغرب متمثلاً فى الدول الأوروبية وحليفتها إسرائيل كما عرفنا، أو فى سياسة العم سام المخيفة بعد انفجار 11 سبتمبر، وقيام الإعلام الغربى ـ خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية ـ بلعب دور مريب مخيف ضدنا..

ونظرة سريعة إلى المحطات الأرضية أو الفضائية الهوائية أو الأثيرية فى الغرب الآن ترينا أن قوى المقاومة العربية تحولت إلى قوى العنف، وأن حركة التحرر الوطنى أصبحت هى حركة مضادة للسلام، وأن من ليس معنا فهو مع الإرهاب هكذا..

وباختصار، لعب الإعلام الغربى ضدنا دورًا مخيفًا فى الوقت الذى نلعب فيه نحن ـ ضد أنفسنا ـ هذا الدور الآن..

ومهما يكن، فإن السؤال الذى يظل معلقًا هو:

ـ لماذا كل هذا التأثير الأثيرى ـ على الويب وفى الفضائيات وفوق الصفحات وتحت الظلال و.. ؟

ولماذا هذا المشهد الإعلامى العربى اليوم كما نراه فى نهاية العام 2002؟!!

ثانيًا

أكدت الحرب التى شنت ضد العراق تغاير شكل المعرفة الجديدة التى تقدم ونتعامل معه فى بداية الألفية الثالثة، وهذه الحالة تنصرف إلى ناحيتين: ناحية يتأكد فيها أننا انتقلنا - منذ زمن بعيد - من زمن الراديو والتليفزيون والفضائيات إلى زمن المعرفة الرقمية والشبكة العالمية.. أى تطور المعرفة فى درجاتها الأعلى عبر أدواتها ووسائلها.. إنها الثورة المعرفية الجديدة.. ومن ناحية أخرى - وهذا أكثر خطورة - أننا انتقلنا من هذه الدرجة المعرفية - ولكن تحت تأثير المعرفة التى يراد لنا ان نحصل عليها - إلى تقبل ما يقدم لنا من درجات المعرفة فى المحطات الأرضية أو الفضائيات المتنوعة، أى أن ما يقدم إلينا يقدم حسب ما يراد أن نتعرف عليه ونتأثر به وحسب.. إنها الحرب الإعلامية..

إنه زمن التكنولوجيا والتقدم الغربى الماكر، وهو حقيقة ما وصلنا إليه بعد التعرف على الغرب عمليا بعد قرابة قرنين، منذ تعرفنا عليه بشكل ما إبان مجيء بونابرت إلى القاهرة بعد أن غابت عنا الثورة الصناعية منذ القرن الخامس عشر..

إننا نتعامل الآن مع المعرفة ولكن كما يراد لنا أن نتعامل معها.. نعم: إننا أمام المعرفة الخالصة.. ولكنها، المعرفة، غير البريئة، فى حروب المصائر، اليوم.. هذه المعرفة التى يراد منها تقدم البشرية، ونحن نعرف الكثير منها ونتلمس الكثير منها فى كل مكان حولنا، من ناحية.. ومن ناحية اخرى نعرف الوجه الآخر لها، المعرفة "الموجهة".. أى المعرفة التى تقدم ضدنا أوتقدم - بشكل أدق - بهدف واحد هو النيل منا.

إنها الفارق بين المعرفة بوجهها الأول- الإيجابى، والمعرفة بوجهها الآخر -السلبى -.. وجه كان لا بد أن نتعامل به فى هذه الحرب التى دارت بيننا وبين الغرب منذ زمن بعيد ووجه كان لا بد أن نتعامل معه، نترك الأمر الأول - المعرفة الخالصة، فهو حديث ذو شجون ونعود معًاإلى هذه المعرفة الموجهة.

وهو الأمر الآخر الأكثر مرارة وحزنًا..

(2)

إننا نلاحظ أن حرب العراق التى تدور الآن توازى معها نوع آخر من هذه المعرفة التى تقدم إلينا بقصدوعمد، أى، تقدم إلينا عبر الحرب المشتعلة بعمد ودأب وتخطيط محكم..

إنها الحرب الإعلامية التى تتلمس المعرفة وتنطلق من كراهية الخصم لنا فى الحروب التى تدور الآن فى المنطقة العربية باسم «الحرية» مرة و«الترويع» مرة وتغيير التكتيك مرة وحرب الإبادة مرة.

إن من تابع القنوات التى حاولت أن تقدم لنا أحداث حرب العراق فى الأيام الأولى منها يلاحظ أنها كانت تقدم لنا من وجهة نظر أمريكية خالصة، وعبر تخطيط محكم عبر شبكات تليفزيونية مثل:

- سى. ان. انو ايه. بى. سى..

إلى غير ذلك من هذه الشبكات التى تعرفنا عليها بشكل أقل فى حرب أفغانستان، وتعرفنا عليها بشكل أكثر كثافة ودقة فى هذه الأيام الأولى من حرب العراق الآن..

لقد أعدت الإدارة الأمريكية للحرب ضد العراق خطة إعلامية بذلت فيها جهدًا كبيرًا، وتعاملت مع الإعلام بدرجات متفاوتة تعاملاً لا يقل عن تعاملها مع الحرب العسكرية بالفعل..

ومن تابع الإعلام المكتوب فى هذا الوقت سوف يعرف كيف أن الصحفيين الغربيين أنفسهم لم يتمكنوا، او لم يرد لهم أن يتمكنوا، من نقل صورة الأحداث العسكرية من داخل الأرض العراقية، وشهود هذه الفترة يعرفون - على سبيل المثال - أن (المراسلين) الصحفيين الذين دخلوا ميناء أم قصر العراقى إبان الهجوم الأمريكى لم ينقلوا أيه معلومات أو يرسموا صورة صادقة لما يحدث هناك، لماذا ؟الإجابة أنه كان من المعروف أن العديد من هؤلاء الصحفيين تم تدريبهم من قبل القوات الأمريكية..!!!! هل يمكن أن نتصور ذلك ؟

هل يصدق أن المراسلين والصحفيين الغربيين وخاصة الأمريكيين منهم الذين سمح لهم بالدخول إلى هذه المناطق لا يستطيعون نقل أية معلومات أو تحقيقات حصلوا عليها دون تدريب سابق، ومراقبة حالية.. ما معنى هذا كله ؟

معناه أن ما يقدم إلينا أصبح فى حقيقته يقدم بشكل موجه، الحرب الإعلامية التى تمضى جنبًا إلى جنب مع الحرب العسكرية، الآلة الأمريكية التى كانت تسعى إلى احتلال العراق كانت تصور لنا عبر أدوات وتقنيات وأدوات موجهة إلينا أساسا بهدف واحد، هو تأكيد الإسبرطية - العسكرية الجديدة، هذه القطبية العسكرية الجديدة التى تقدم نفسها بشكل متعمد، هو الشكل الذى تريد تأكيده عبر الحقبة القادمة.

... كان علينا أن ندرك هذا ونأخذ حذرنا جيدًا مما يقدم لنا عبر الآلة الإعلامية الأمريكية..

وفى هذا الإطار كان يجب أن ندرك - وقلوبنا تقطر حزنًا - اننا على الجانب الآخر لم نستطع أن ندرك هذا جيدًا فرحنا - عبر القنوات والفضائيات العربية العديدة - نتصرف بشكل يتنافى مع الواقع الطارئ بشكل صادق وواع مع أنفسنا..

لقد شغلنا عما يحدث ضدنا إما بالموارية واما بالصمتواما بالتجاهل..

وكلها حالات يمكن أن تصنف فى إطار الحرب الكلامية التى رحنا نطلقها..

وهى "الحالة" المناقضة لما يحدث حولنا بالفعل وهى "الحالة التى تأخذ من ناحية الحرب الإعلامية ضدنا من الخارج، والحرب الإعلامية ضدنا من أنفسنا. فالمعرفة استخدمت فى التحليل الأخير بأشكال شتى، استخدمت من الغرب بشكل متعمد وبألوان شتى، ومن أنفسنا بشكل متعدد غير مدرك العواقب بالقدر الكافى، أو غير واعٍ لما يمكن أن تؤدى إليه هذه الحرب الإعلامية - باية صور - من تزايد الحنق الشعبى أو تفاقم حالة القلق والغضب الذى يمكن أن نفسر بها الآن تكوين الإنسان العربى..

والانتقال من استخدام الحرب الإعلامية ضدنا من الآخر بوعى، الى استخدامها بيننا نحن فى الشرق العربى بغير وعى يصل بنا الى درجة أخرى من درجات التخبط والغياب..

وهى «حالة» تدفعنا إلى الحزن والمرارة حقًّا..

(3)

ان من تابع الفضائيات العربية أو حتى القنوات الأرضية العادية يلاحظ هذه«الحالة»، فبدلاً من ان نتفهم ما يحدث حولنا ونحاول الوعى به بشكل صحيح نجد أنفسنا نمضى فى السياق الذى أراد لنا أن نمضى فيه..

هل هى «الحالة» التى وضعنا أنفسنا فيها.. ؟

هل هى الحرب الكلامية التى تعرفنا عليها ؟

أم هى حرب التعريفات الجديدة التى نرددها (نحن) لأنفسنا، فى حين أنها تخرج تمامًا من الواقع والمنطق..

لقد تعرفنا إبان الحرب ضد العراق على القنوات الأرضية العربية - فإذا بها- فى أغلبها- لا تنقل ما يدور بشكل صحيح فى بلاد الرافدين راحت بعضها تنقل فى أول الأمر عن الـ C.N.N، وبعد أن طردت بعثة هذه القناة من الأرض العراقية استمرت بعض القنوات العربية تنقل لنا ما تبثه هذه القناة - الـ C.N.N حتى وهى تنقل الصور من قطر عربى مثل قناة أبو ظبى.. وعرفنا بعض القنوات الأرضية تنقل لنا عن بعض المراسلين الأجانب.

الأكثر من هذا أن بعض القنوات فى المغرب العربى بدت بشكل غير مبال لما يحدث فى بلاد المشرق العربية، ومن ثم، انعدم الحس بالقضية وكأن ما يحدث فى العراق أو للعراق لا يمت بصلة للمغرب أو للمغرب العربى..

خلال هذا كله كانت تنتقل بيننا تعريفات وضعها الغرب الأمريكى عن عمد.. وهو نقل وإن لم يكن عن عمد - فى الجانب العربى- لكنه لم يكن عن وعى كاف بما يريد (الخطاب) الغربى أن ينقله عبر الحرب الإعلامية..

لقد تعرفنا فى أثناء العدوان على العراق على عدة تعريفات أطلقت فى هذه الحرب، وهى تعريفات غريبة كل الغرابة منها أننا نسمع فى الصحف والفضائيات العربية طبعًا عبارة «حرب العراق» ولا نلبث أن نقرأها مكتوبة الحرب على العراق، وأيضًا نقرأ ونرى حرب «حرية العراق» التعريف الذى وضعه الأمريكيون دون أن نعيد قراءته الحرب ضد «حرية العراق».. كما أننا كنا نقرأ ما يكتبه رجل الإعلام الأمريكى - العسكرى أو نسمعه، وربما نردده، وهو يقدم إلينا ما سمى بالصدمة والترويع!!..

ولا بأس أن نستمع إلى عبارات كثيرة دون ضجر منها هذه «العمليات العسكرية» التى تجرى فى بلاد الرافدين دون أن نستخدم اللفظة الصحيحة «العدوان الأمريكى - البريطانى» أو «الغزو الأنجلو-أمريكى» فى وقت لا

تكف فيه هذه الوسائل العربية خاصة عن ترديد كلمة مثل «التحالف»، أى تحالف تقصد صحفنا وإعلامنا المرئى؟، هل يتم التحالف بين إنجلترا وأمريكا فى عدوانها فيطلق على قواتها تعريف «التحالف»، فى حين أن التحالف يستلزم أن تكون هناك أطراف كثيرة يمكن أن يطلق عليها هذا التعريف)؟ فضلاً عن أن كلمة التحالف هنا قابلة لإعادة النظر فيها خلال الواقع، بل وخلال التدقيق فى المصطلح نفسه !!) وعلى هذا النحو، ترددت بيننا وضدنا هذه الفترة- عبارات ومصطلحات كثيرة راحت تلقى فى تيار الحرب الإعلامية مستخدمة حينًا التقنية المعرفية ومستخدمة حينًا آخر وعينا المتأخر، حين نردد ما يراد لنا لا ما يراد منا.... وبدهى هنا أن استخدام الحرب الاعلامية عبر المعرفة الرقمية ووسائل الاتصال الحديثة أصبح مؤكدًا ومروجًا له فى عالم الاتصالات اليوم، وهو ما لا نستطيع تجاهله، وإنما الغريب أن تعاملنا مع هذه الحرب الإعلامية وعبر الثورة الرقمية والمعرفية أصبح شائعًا بيننا ونتعامل معه بشكل طبيعى أو بشكل يبدو طبيعيا.. وهو ليس كذلك بالمرة..

هل ما يحدث الآن - بالفعل - هو حرب «تحرير العراق»!!؟

خطاب الغرب

الخطاب عن الغرب

لا أظنه يتغير..

ومن قال إن الغرب الذى أصبح يعزف الآن لحنًا واحدًا يتغير؟

ومن قال إن الغرب البعيد (الولايات المتحدة الأمريكية) التى ترسم (إستراتيجيته) فى الخفاء وينفذها فى العلن فى عصر "الامركة" الغربية يمكن أن يتغير..؟

ومن قال إن الغرب القريب (أوروبا) الذى ينضح غضبًا وعنصرية، والذى يمضى فى الغالب فى ركاب العم سام: يمكن، أن، يتغير؟

ومن قال إن الغرب الذى يملك من إمكانات القوة التكنولوجية، ويرسم من قبل شراسة الرأسمالية السياسية التى تتاجر فى العالم فى عصر «العولمة» يمكن أن يتغير؟

.. كان هذا الحوار الذى حدثت نفسى به فى هذا المؤتمر الذى عقد أخيرًا بتونس، بل كنت أحدث نفسى به طيلة الطريق فوق الأبيض المتوسط فى طريقى إلى مطار تونس الدولى، بل قبل أن أصل إلى المطار بكثير.

ورغم أن هذا الحوار الذاتى بدأ، ولم يتوقف منذ زمن بعيد، وإذا أردنا زمنًا زاد فيه هذا الحديث إلى نفسى ومن حولى بسرعة فسوف نجد هذا التاريخ تحدد أكثر عقب عاصفة مانهاتن ، ولم يتوقف حتى الآن.

غير أن الفترة الأخيرة شهدت حلقة أو عدة حلقات من هذا الموقف الغربى منا بشكل زاد إصرارًا وحدة.

وهو ما نشير إليه قبل أن نصل إلى المؤتمر الذى عقد بزغوان- أخيرا- أحد أطراف تونس الساحلية الجميلة..

ورغم أن هذا الموقف لم يكن جديدًا، فإن العود إليه دائمًا ما يفيدنا فى فهم العنصرية الغربية ودلالات المواقف ضدنا..

لم تعد العنصرية هى «الخطاب» الذى نعرفه أو نتذكره من التاريخ - العنصرية النازية - أو الفاشستية - وإنما جاوزتها وعبرت عنها الآن فى أحدث أشكالها قاطبة: العنصرية الصهيونية..

ولا نجد هذه العنصرية فى تاريخ بداية الدولة الصهيونية فقط، وإنما أبعد من ذلك، فى «كل» الممارسات التى يواجهها العرب داخل إسرائيل أو خارجها إنها العنصرية الغربية فى جميع حالاتها سواء اتخذت وجهًا نازيا قديمًا أو صهيونيا حديثًا، إنها «الآخر» فى التاريخ الغربى، ثم إنها هى (الجويم) فى التاريخ الصهيونى الحديث بكل ما ترتكبه هذه الدولة النازية الجديدة الآن قبل (جنين) وبعدها..

كان هذا وغيره ما يدور برأسى وأنا فى الطريق إلى الطائرة.

(2)

كان أكثر ما لفت نظرى فى الصحيفة البريطانية (الجارديان) مقالة منشورة بالبنط العريض ومساحة كبيرة لتاتشر - رغم أنها ليست المرة الأولى لتاتشر- هذه الروح الغاضبة المتعصبة لرئيسة الوزراء البريطانية السابقة العنيفة المشهود عنها مواقفها العنصرية ضدنا

إن تاتشر هنا رمز دال طالما أشرنا إليه عبر أسماء غربية كثيرة.

فلنتمهل عند هذا الرمز - كإحالة تمثيلية، وحسب، إنها تعيد ما سبق أن قاله قريبًا جدًّا أكثر من مسئول غربى بما يحمل روح التعصب المقيت والهجوم «المبرمج» ضد الإسلام، إنها راحت تربط بين الإرهاب والإسلام (وهل هذا جديد) فى الرسائل المستمرة إلينا من الغرب إلى الشرق من طرف واحد وبشكل مستمر؟

ثم إنها تستخدم صيغة الجمع والتعميم فتقول بالحرف الواحد.

- (إن الإرهاب الإسلامى من جوانب عدة فريد).

ثم إنها تُعقِّب الكلام السخيف بتحريض الغرب (الأمريكى طبعًا الآن) بشن حروب عسكرية على هذا العالم الإسلامى فى قوسه الذى يقع فى شرق العالم اليوم، إنها تتحدث طبعًا وبوضوح مستفز عن العراق ولا بأس من أن تصعد إلى سوريا ولا باس من تصعيد الاتهامات أكثر إلى ليبيا، وعديد من الأقطار العربية وتصعد أكثر وأكثر إلى إيران ثم تهبط بعدها إلى إفريقيا.. ثم تختصر بعدها الجغرافيا إلى الإرهاب الإسلامى فتمتد الأرض أكثر أمامها وتتسع ثم لا تتردد أن تعود إلى العراق من جديد..

ورغم أن أكثر من جهة بريطانية راحت تتنصل من تصريحات تاتشر - فى مقدمتهم مكتب رئيس الوزراء تونى بلير نفسه (وهل يختلف بلير عن تاتشر فى شىء ؟!!)..، فإن هذه التصريحات العنيفة إنما تعكس حقيقة الرأى العام الغربى خامة، ثم اليمين الأوروبى والأمريكى بشكل خاص..

أن تاتشر أكثر صراحة فى تعبيرها فقط، خاصة أن البارونة العنصرية كانت قد غادرت المسئولية الوزارية منذ سنوات بعيدة، غير أن الاكثر دلالة أنها ما زالت هنا، والآن، لاتعبر عن الغرب فقط، عن الشعور الغربى المباشر أو اللاشعور الذى لا يغذيه التاريخ فقط، وإنما عن قمة العناصر الشوفونية التى تهاجم الإسلام بشكل صريح قبيح ولا تتردد فى أن تطلق

عليه الكثير من الاتهامات الكاذبة وتبدى من التعصب المقيت بشكل سافر وعنيف. إنه خطاب الغرب مهما برر البعض وتحفظ البعض الآخر.

ألقيت بهذه الصحيفة البريطانية بعنف والطائرة تتوسط البحر المتوسط إلى الساحل التونسى.

(3)

حين جلست فى الصباح التالى فى الجلسة الرابعة من مؤتمر «السلطة وآليات الحكم..» إلى آخر هذا العنوان الذى ينظم جلساته د. عبد الجليل التميمى.. حتى كان يعلو صوت الإيطالى مرسيلا فيراسيولى من جامعة البندقية ليتحدث عن «بورقيبة فى الصحف الإيطالية..».

ما كدت أمضى قليلاً مع الباحث حتى لفت نظرى ما يقوله نقلاً عن الصحف الإيطالية مرة، وترديدا لأفكاره مرة أخرى، وكان أكثر ما يردد فى هذه الجلسة عبارات وألفاظًا من مثل:

-«الأسطورة الإسلامية.. ».

ـ «الأسطورة الإسلامية تهدد الديمقراطية ».

- «الإرهاب الإسلامى».

-«أيديولوجية البدو»..

أى أن بعضهم عنده - أى بعضنا نحن الجالسين إليه كان لهم - (أيديولوجية البدو) هذه مستمرًا فى الربط، لأكثر من مرة، بين البدو والعرب، أو يصف العرب فيقول إنهم البدو أو يصف أصحاب العقيدة الإسلامية فيصفهم بأنهم هم العرب أو البدو «لافارق بينهما».

ومع استغراقى فيما يقول تلاشت الأشياء أمامى اللهم إلا من عبارات

ثلاث راحت تتردد من آن لآخر وتحمل نفس الاتهام المتعمد من الغرب، وترسم صورة الآخر (الذى هو نحن الآن) فى عيون الغرب، راحت تمضى على شاشة الذاكرة البصرية والذهنية هذه الألفاظ، كما جاء فى كلمات الباحث الإيطالى والتى تتردد-حسب اعترافه - فى الصحف الإيطالية: بدوى، عربى، إسلامى..وفقط.

كان الاستخدام يتم بالنقل أو بالقراءة الذاتية دون تحديد أو تمييز، بل على العكس كان يؤكد حقيقة الوعى الغربى (هل قلنا الوعى؟!) نعم الوعى الغربى الذى قال عنه فولتير إن الإنسان يمكن أن يكون أسير وعيه، ولا يشترط أن يكون الوعى هنا بالمعنى الإيجابى، بل يمكن عند التمهل عند المفهوم - بالسلب أو الإيجاب - من إدراك طبيعة هذا الوعى الوعى هنا- بالقطع - سلبى وهو سلبى ليس من وجهة نظر العرب، وإنما- أيضا- من وجهة نظر «الخطاب» الإيطالى الذى يردد الآن خطاب بيرلسكونى حين راح يتهم العرب من قبل، وبوضوح أشد بأوصاف تحمل الكراهية وتتذرع بالإرهاب وتحرض على العقيدة، لم أتمالك نفسى، فبمجرد أن أنهى بحثه، وتوقف التصفيق، حتى رحت أتحدث عن هذا الميثولوجى (الأسطورة) التى يقال إنه يهدد الديمقراطية، ورحت فى تساؤلات عديدة موجهًا الحديث إلى المنصة:

- هل تحمل العقيدة الإسلامية - حقًّا- معنى الميثولوجيا؟
- وهل تهدد- حقًّا وحقًّا- الديمقراطية الغربية؟
- وهل حقًّا... ؟

وطرحت عددًا من الأسئلة التى عبَّرت عن الدهشة أو الغضب الذى يملأ كيانى الآن.

لقد شبعنا حديثًا مختلقًا ومتهمًا، وبالأدق مسبوكًا «عبر إستراتيجية» يتم

تنفيذها فى عصر جديد، أصبح يعبر عن «عولمة العسكر»، ثم هو الآن يجاوز العسكرة إلى المراحل التالية التى يستمر التحريض فيها ضدنا من تاتشر وقبلها بيرلسكونى - وحتى باول وبوش نفسه - ونوابه حتى لنعجب من مقولة بوش الذى يصف شارون بأنه «رجل السلام»، وهو ما يذكرنا «بأمير السلام» فى العقيدة المسيحية حين يطلق على مَن يعادى الإنسان، ثم الآن الصحف الإيطالية التى يعبر عنها وبها الإيطالى الذى يجلس أمامى الآن، ويعيد باسم العلم (أليست هى جلسة علمية!؟) ألفاظ الإرهاب كلها ليربط بينها وبين العقيدة، ثم إنه حين حاصرته بالرد راح يؤكد فى شكل دفاع أن مثل هذه الألفاظ يتردد فى الصحف الإيطالية).. يذكر صحيفة سارتورى أكثر من مرّة، وهو لا يفعل أكثر من أنه ينقل، ثم إنه، يضيف أن هذه الألفاظ والكلمات «عربى مسلم بدوى» تردد دون أى تمييز (يقصد أن دون قصد) وان كلمة مسلم - يضيف..- كانت تستخدم بمعنى «إسلاميا».. وهو يقصد هنا التقليل من ثقل الألفاظ ودلالتها.

الغرب غرب حقًا، الغرب غرب بشهادة الشاعر الإنجليزى الإمبراطورى المعروف كبلينج: الغرب غرب، والشرق شرق ولن يلتقيا.. وإن الغرب - ونضيف نحن - والغرب غرب، ولن يتغير أبدًا.. - وهنا تكتمل العبارة -.. ولن يلتقيان..إنه خطاب لغرب.

بديهيات

أولاً : مسألة السامية

يبدو أن قدرنا أن نعود إلى البدهيات من آن لآخر، ومن هذه البدهيات ما يفرض علينا من توجيه اتهام زائف لمحاكمة هذا المسئول أو ذاك، هذا المثقف أو ذاك.. وهو ما يعود بنا إلى هذه المسألة ـ المحاكمة ـ وما يتفرع منها من تساؤلات ترتبط بعلاقة هؤلاء الذين يحاربون باسم السامية وما يتفرع عنها من وهم السامية حين يتعلق بالعامل الأنثربولوجى.

إنها مسألة وتساؤلات وبدهيات ومراوغات وادعاءات مريبة. أما المسألة السياسية، فهى تتحدد فى هذا الاتهام الموجه إلى الأستاذ إبراهيم نافع بالتحريض العنصرى ومعاداة السامية بالنظر إلى مسئوليته المفترضة عما ينشر كرئيس تحرير، وهو الاتهام الذى استند لنصوص قانون الصحافة الفرنسى سنة 1881 الذى شهد تعديلات متتالية.. الذى تم تأجيل النظر فى الدعوى ضده أخيرًا، أما التساؤلات الأنثربولوجية هى تلك التى أكدها هذا العلم الحديث حين نفى ادعاء العلاقة بين جنس معاصر ـ كاليهود ـ والتواصل البيولوجى له عبر التاريخ..

هل هناك علاقة حقًا ـ أية علاقة ـ بين من يدعون الآن التحدث باسم السامية والسامية.. وبشكل أوضح، بين اليهود ـ كما عرفناهم فى التوراة

والتاريخ ـ وهؤلاء الذين يزعمون الآن أنهم اليهود، فى حين تنتفى عنهم شروط السامية التى يتذرعون بها الآن، وبما يربط بينهم وبين المستعمر الغربى فى الشمال، ثم يستخدمون من الدعاوى والأكاذيب لإيهامنا (وخداع الميديا الغربية) بأنهم هم هذا الجنس السامى الراقى المعروف تاريخيا، فى حين أن الهوة سحيقة والمقارنة غائبة.

ما العلاقة بين هؤلاء اليوم وبين السامية التى يتبجحون بها؟ وهل هؤلاء ينتمون ـ كما يدعون ـ إلى هذه السامية التى يدافعون عنها، فى حين أننا نحن أولى الأحياء تمثيلاً لها وتعبيرًا عنها، وهو ما يطرح تساؤلات بدهية أخرى ترتبط بالعنصر الأنثروبولوجى، ونسقط من جديد فى عصر البدهيات المراوغة فلنتمهل أكثر عند هذا الادعاء الأنثروبولوجى.

إن العودة إلى هذا المصطلح الأنثربولوجيا البيولوجية Biolgical Anthrooplogy وما يرتبط بها من الجانب الاجتماعى يشير إلى رفض العلاقة بين صهاينة اليوم ويهود الأمس.

ومن ثم، ينزع عنهم سمة السامية. هذه حقيقة لا تحتمل الادعاء أو التمويه.

والعودة إلى الدراسات الاجتماعية والإنسانية فى سياقها الأخير نرى أنها تشير إلى هذه الصيغة الأنثربولوجية البيولوجية، خاصة التى تقدم تفسيرًا مهمًا للطبيعة الثقافية والاجتماعية البشرية.. إلخ، وهو ما يعود إلى بروز حتمية بيولوجية واجتماعية ترفض هذا النوع من التعصب والعنصرية اكتسبتها النظريات ذات التوجه البيولوجى بسبب الكتابات الأقل علمية والأكثر شهرة بين الجماهير.

إن الربط بين السامية التاريخية والسامية فى الحاضر يكتسب قشرة زائفة يراد بها عامل سياسى لا علمى قط، والادعاءات الحديثة تقبل ذلك وتزعم

به ـ كذبًا وبهتانًا ـ أن ثمة علاقة بيولوجية بين يهود اليوم ويهود الأمس لتخرج به إلى زيف تأكيد هذه العلاقة بين التاريخ والحاضر.

إن الدراسات الحديثة ترفض هذه النغمة العنصرية أو فلنقل بشكل أدق ـ السياسة، التى تحاول أن تطوع كل الحقائق إلى أهدافها الاستعمارية اليوم. وقد سبق هذه الدراسات فى الغرب عالمنا جمال حمدان بعد منتصف الخمسينيات من القرن الماضى حين رفض الربط بين العبرانيين أو اليهود الذين ظهروا فى العصور القديمة وأولئك الذين يعيشون فى إسرائيل أو ـ حتى ـ فى أى بلد فى العالم.

لقد خصص جمال حمدان فى دراسته المهمة فى هذا الصدد تحليلات علمية لتأكيد أن هناك علاقة حتمية للربط بين الدراسات الأنثروبولوجية الصرفة وبين الجانب السياسى كما يتمثل فى الأوضاع السياسية، وكما ينبغى أن ندرك به أن الصهيونية السياسية تسخر الأبحاث الأنثربولوجية فى الغرب الآن وترتب نتائجها مسبقًا، بحيث تخدم دعاواهم فى العالم اليوم.

إن اللوبى الصهيونى لا يتوقف ـ عبر عديد من الوسائل ـ إلى تأكيد غاية زائفة.. ورحلة الانثربولوجيا ـ فى جانبها العلمى ـ تشير إلى نتيجة مهمة، هى ذوبان اليهود الذين نعرفهم فى التاريخ إلا..، فالدراسة العلمية هنا تؤكد أن لا علاقة قط بين الاثنين: يهود الأمس وصهاينة اليوم.

إن الصلة الجنسية والجينية ـ كما يؤكد جمال حمدان ـ بين يهود اليوم ويهود الأمس منبتة وفاقدة تمامًا من الناحية العملية، وأنهم بالفعل أوروبيون سلاف وأريون أكثر منهم ساميين. وهذا يصدق على الأشكنازيم فى أوروبا (التى تتبعهم هذه المنظمة اليهودية التى تقيم الدعوى الآن) وعلى امتدادهم فى كل دول العالم..

إن جمال حمدان فى كتابه المهم يؤكد فى نهاية بحثه العلمى أن اليهود اليوم ليسوا من بنى إسرائيل، وأن هؤلاء شيء وأولئك شيء آخر، ولا رابطة بين الطرفين.

(لا يجب أن تخدعنا هذه الدراسات المزيفة التى نجدها على شبكات الإنترنت الغربية التى يحاول أصحابها من الصهاينة والمتصهينين الإشارة إلى الكروموزوم (واى) أو الجينات المتواصلة).. وإذا كان هذا مؤكدًا ـ كما أشرنا ـ فى الغرب الأوروبى والأمريكى، فإنه يصبح أكثر تأكيدًا فى إسرائيل اليوم.

إننا نواجه مثل هذا الخلط بين الأجناس والانتماءات بشكل أكثر عنصرية.

فإذا كانت إسرائيل الآن تستمد شرعيتها من تأكيد على أنها دولة من أصول سامية، فإن هذا الادعاء لا يثبت أمام هذا الخليط المتباين الذى يعيش فيها أو الذى يأتى إليها من هنا وهناك، وهو ما نفهم معه إثارة قضايا كثيرة من آن لآخر فى إسرائيل حول (هوية) اليهودى أو الإسرائيلى حين يحاولون هنا إسباغ صفة السامية أو اليهودية التاريخية على الشعب الذى يعيش هناك.

إن البحث عن الهوية استمر لفترات طويلة فى أسئلة متباينة: «من هو اليهودى؟»ـ و«من هو الصهيونى؟» ـ ومن هو «السامى»؟ ـ ومن هو الذى لا ينتمى إلى الجنس السامى؟

أسئلة كثيرة أثيرت فى الصحف الإسرائيلية، ولاقت ردود فعل مثيرة، ولكنها كانت تصل إلى أعلى تأثير لها كلما شهدت إسرائيل هجرة موجة جديدة من اليهود فى العالم إليها، ومن هذا ـ كما لاحظ د. المسيرى ـ إن المؤسسة الدينية فى إسرائيل بينت أن معظم المهاجرين من الاتحاد السوفيتى ـ إبان الهجرة السوفيتية ـ ليسوا يهودًا فهم إما من أصل مسيحى تزوجوا من

يهود أو هم من مدعى اليهودية. بل واتضح أن اليهودية بالنسبة لليهودى منهم لا تمثل سوى أصداء خافتة للغاية.

والغريب فى الأمر، أو ما ليس بالغريب، أن المؤسسة الصهيونية الاستعمارية رحبت بوصولهم، إنها فى حاجة ماسة إلى مستوطنين ـ مهما تكن أصولهم ـ يقيمون المستوطنات أو يعمرون المستعمرات من أهلها الأصليين من عرب فلسطين (الذين هم ـ ويا للعجب ـ من أصل سامى)!!.

وكما رحبت المؤسسة الصهيونية بالمستعمرين الروس، فإنها رحبت (وتأمل هنا أكثر) باليهود الساميين الذين جاءوا إليها الآن من جنوب إفريقيا ممن عرفوا بالفلاشا موراه.

وهو ما يعود بنا إلى المنظمة الصهيونية التى تحاول محاكمة الأستاذ إبراهيم نافع، إنها تعلن عن اسمها بصفة لا تمت ـ أبدًا ـ إلى طبيعتها التى تمارس به اتهام الغير، إنها تسمى الرابطة الدولية لمناهضة العنصرية ومعاداة السامية، وهنا يعجب المرء من استخدام ألفاظ لا تمت إلى هذه الجمعية بصلة.

نعجب أن نسمع لفظة من مثل مناهضة العنصرية. أليس ما يعلنه قاضى القضاة الفرنسى بودوان توفينو للتحقيق فى دعوى مراوغة هى فى حد ذاته عنصرية..؟ ألم يعلن فى ديربان منذ عام واحد ان الصهيونية مساوية للعنصرية؟.

ونعجب أكثر ما نسمعه من معاداة السامية.

أليست هذه الدعوى المرفوعة من جمعية دولية تدعى السامية ليست لها أية علاقة أنثربولوجية أو حتى بيولوجية بالسامية؟ اليست السامية صفة تنسحب على العرب أكثر من هذه الصهيونية الإمبريالية..

ونعجب أكثر واكثر لاعادة مثل هذه الاتهامات فى زمن الاجتياح الإسرائيلى العنيف للأرض الفلسطينية.

أليس هذا الاتهام نوعًا مِنَ أنواع الابتزاز أو إشغال العرب عما يلحق بهم بعد اجتياح 29 مارس سواء داخل الأرض المحتلة أو خارجها؟

أليس هذا الاتهام ذريعة متهاوية يمكن استخدامها اكثر لمعاودة «الميديا» الغربية الهجوم على العرب فى عصر «عسكرة الإرهاب»؟

ثم أليس هذا الاتهام هو الهجوم المخطط له من زمن للهجوم على الصحف العربية والمثقفين العرب الواعين ممن ظلوا حريصين على كشف الخداع الصهيونى؟

وأيضا أليس ما يحدث هو نوع من الهيستريا التى يتم تصنيعها فى الغرب ـ منذ انفجار مانهاتن ـ ضد العرب، وهو ما يقع ضمن إستراتيجية صهيونية شوفونية تنفذ بدقة ضد شعوبنا العربية؟

ثم ألم يئن الأوان لنتنبه إلى هذه الجمعيات الصهيونية التى لعبت دورًا كبيرًا فى تأييد إسرائيل فى اجتياحها للأرض العربية والقيام بالتمييز والسلب والقتل دون إدانة واضحة، ثم ها هى الآن تسعى للتأثير فى القضاء الفرنسى ضد كاتب عربى كبير؟

على أن قائمة الأسئلة الحائرة التى تتمسح بالسامية وتنتمى ـ زيفًا ـ إلى الأنثربولوجى تظل قائمة، فالاتهام سياسى فى مظهره خادع فى مخبره. ومن ثم، فهو يقع فى دائرة الخداع الإسرائيلى (رغم أن الأداء جاء من باريس)، فمن أقام الدعوى هو منظمة صهيونية تتبع ـ بالقطع ـ الكيان الصهيونى فى فلسطين، التى مازال يعمل ضد العرب خاصة مصر الذى ما زالت تقوم بدور كبير فى التصدى لأحابيل شارون وأفاعيل حكومته التى

تتعاون ـ جيدًا ـ مع هذه المنظمة التى تمتد إلى عديد من العواصم الأوروبية خاصة الولايات المتحدة..

أليس هذا كله عودة إلى البدهيات..؟

بدهيات

ثانيًا: القناع اللاهوتى والعنصرية

مَن يتأمل موقف الصهاينة الذين يعيشون فى إسرائيل اليوم يلاحظ هذا التناقض المريع بين واقعهم الآن ـ فى بداية هذا العام 2002 ـ وما يحاولون توظيفه من أفكار ومعتقدات أتباع الديانة اليهودية المعروفة عبر التاريخ أو الميثولوجى الدينى.

إنه القناع اللاهوتى الذى يرتديه صهاينة إسرائيل على هذا الوجه العنصرى الجديد، إنها العنصرية الغربية ترتدى أثواب القيم الغربية منذ عصر التنوير، وتحتوى فى داخلها وخارجها على القيم الدينية اليهودية والأفكار اللاهوتية، لكنها فى السياق الأخير تحف كثيرًا بأفكار ماكيافيللى وتعمل بها.

لا يعنى هذا أن الذين يعيشون فى إسرائيل اليوم ليسوا من أصحاب الأفكار الدينية، وإنما هنا حاخامات (أو هكذا يطلق عليهم) يتحدثون كثيرًا عن الدين اليهودى والوصايا العشر والأسفار الخمسة وغيرها مما ورد بالتوراة، وربما بدوا متعصبين أكثر من أقرانهم المعتدلين، غير أن المهم هنا، أن الآخرين ـ غير الحاخامات!! ـ أقصد الآخرين من السياسيين يهتبلون الفرصة ليتحدثوا من آن لآخر عن التاريخ اليهودى والهيكل والأغيار.. وما إلى ذلك للإفادة من الرموز التوراتية فى تطويع السياسة التى ينتهجونها.

ولا يهم فى هذا أن تكون هذه السياسة متوائمة مع الجانب اللاهوتى،

وإنما المهم هو توظيفها توظيفًا بارعًا للإفادة بها فى الاجتياح والذبح والقتل والاستحواذ على أملاك الآخرين، والتعامل مع اليهودى الصالح (العائش فى الواقع الإمبريالى)، والتعامل مع الفلسطينى الصالح (الميت تحت أنقاض الجرافات أو أطنان القنابل الأمريكية)..

لا فارق إذن بين السياسى واللاهوتى.

ولا فارق بين الأيديولوجى والميثولوجى.

إنه ـ باختصار ـ القناع اللاهوتى..

(2)

إنه أو إنها باختصار حالة «العنصرية» الغربية فى إسرائيل، ولا يهم فى هذا السياق أن نسمى عنصرية غربية أو عنصرية صهيونية، فالأسوار غابت منذ زمن بعيد، وأصبح من يدعى أحقيته فى الأرض الفلسطينية منهم الآن ينتمون إلى الغرب الإمبريالى أيديولوجيا وبراجماتيا.

وهو ما نجد له أمثلة كثيرة فى الواقع ففى اللغة العبرية لفظة تسمى «العليتا»، وهى تعنى النخبة العليا الحاكمة المؤثرة بحكم مكانتها العليا فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، أى فى أيديهم «القوة» التى يستطيعون بها السيطرة على كل مقاليد الحكم، بما فيها استخدام القوة بدون شروط.

وهذه النخبة أو القوة الحاكمة هى التى نجدها دائمًا فى الدول الفاشية أو الديكتاتورية، حيث إن الديكتاتورية هنا لا تتمثل فى شخصية بعينها، وإنما فى شريحة كاملة تحكم، قد يمثلها شخصية محورية كما عرفناها فى التاريخ فى بن جوريون فى الماضى أو فى شارون فى الحاضر، غير أن التمثيل اليومى هو الذى يضفى على هذه الشريحة سمة القوة بلا حدود، ومن ثم، يمكن تفسير

ما يحدث الآن فى إسرائيل حين يصبح شارون بكل ما يملك من غطرسة وسيطرة هو رمز هذه الشريحة، ثم تصبح هذه الشريحة ـ بكل الوسائل التى يخدع بها الجمهور، بما فيها الوسائل الدينية والإعلامية ـ.. هى الشريحة المسيطرة على تقاليد الحكم فى البلاد.

وهو ما يقال الآن على قوة «الليكود» فى إسرائيل، وهو ما يفسر به الكثير من المواقف الصهيونية لأكثر من نصف قرن (1948) حتى الآن.

ومن هنا، يمكن تفسير الكثير من المواقف الأخرى التى يقوم بها «الليكود» مثلاً فى أية شخصية يختارها ـ شارون أو نتيانياهو.. أو..، وأكثر ما يغيب فى هذا هو وعى الأفراد، إذ يصبح الشعب أو فلنقل المحكومين، هم أسرى هذه الشريحة الحاكمة.

إنه قناع اللاهوت على وجه هذه الشريحة الحاكمة.

إن من يعيش فى إسرائيل الآن ممن جاءوا من شتى أنحاء العالم أسرى هذه النخبة الخادعة المخادعة.

(3)

أسرى هذه الشريحة الحاكمة التى تسمى بالسياسيين أو التى تتخفى وراء أفكار من اللاهوت، وكلاهما فى النهاية يهدف ـ تم استخدام الميثولوجى أم لا ـ إلى السيطرة على الأرض، وعلى زيادة شحنة الصهينة اللاهوتية. وغير بعيد عنا ما يترددمن آن لآخر فى الصحف اليهودية داخل إسرائيل من أصوات جماعة أو منظمة إسرائيلية تدعو (واندهش معى و لا تندهش) إلى تنصيب ملك وإلغاء الديموقراطية المزعومة، وونقل هنا تعبير أحد ممثليهم. وهو هيليل فايس من جامعة بار أيلان إنه «منذ فترة رابين، وحتى نتيانياهو وباراك، لم يأت رئيس وزراء واحد إلا وتعالى على الشعب وأهان الذين انتخبوه»..

إنها الدعوة إلى إلغاء ما يتحدث عنه اليهود مما أسموها الديمقراطية.

إن الجماعات اللاهوتية متعصبة إلى درجة الدعوة إلى إلغاء ما يسمى باللاهوتية

وإن الجماعات السياسية مغالية إلى درجة الزعم بأن فى إسرائيل دولة ديمقراطية!!

وهنا نضع أيدينا على حقيقة مهمة هى غياب قيمة الديموقراطية على العكس من كل ما يقال عن الواحة الديموقراطية اليوم هناك.

فإذا أضفنا إلى هذه النخبة ملاحظة مهمة تتمثل فىّ اليمين المتطرف لتصورنا إلى أى مدى يمكن أن يصبح الحاكم هنا ديكتاتوريا، يفعل ما يشاء فى غياب الجمهور (وحضور طغيانه) أو حضور الجماهير (وغياب الديموقراطية) وصياح رجال اللاهوت المتعصبين (وغياب الجانب الإيجابى فى الأديان).

إننا أمام شريحة حاكمة فى إسرائيل اليوم تغلو فى العنصرية وتغلو فى زعم الدفاع عن السامية، وتخلط الأوراق جميعها للاستحواذ على ما يمكن الاستحواذ عليه من الأرض والثروات والهيمنة فى عصر العولمة.

إنها شريحة (إسبرطة) الجديدة فى بداية الألفية الثالثة.

إنها ظاهرة جديدة فى العصر الحديث أكثر عنفًا من هتلر، وأكثر شوفونية فاشية من موسولينى، وأكثر دموية من شارون نفسه..

إنها شريحة عصرنا التى ابتلينا بها مادمنا نتعامل معها كافرًا.

وما دمنا نضع أيدينا لننتظر اليد الآتية عبر المحيط الأطلنطى.

هذه الظاهرة الشريحة نجدها فى الغرب كله الآن بدءًا من شارون فى إسرائيل مرورًا بالعديد من اليمينيين من أمثال بيا كيركجودر فى الدانمارك، وبين فورتاين فى بلجيكا، وصولاً إلى بوش الثانى فى الولايات المتحدة الأمريكية الآن.

إن الأمر الواقع يشير إلى شريحة ديكتاتورية يمينية يؤثر فيها العديد من العوامل والمصالح الضيقة جدًّا ويدفع بها ويغذيها الجمهور العريض من المخدوعين بوسائل الإعلام مرة أو بالتأثيرات اللاهوتية مرة أخرى، وفى جميع الحالات، تمثل هذه الشريحة القوة الحاكمة الفاعلة، وفى جميع الحالات تكون الضحية هى الديموقراطية.

فى هذا الإطار يجب ألا نتعجب حين يتحدثون عن السامية، ويتذرعون بمسميات تاريخية لا علاقة بهم قط.

القضية هى ممارسة تزييف الوعى لاتهام هذا أو ذاك بمثل هذه التهم لتغييب العقول.

إنهم يتهمون مروان البرغوثى هناك ويتحدثون كثيرًا عن ضرورة تغيير هؤلاء القادة من الفلسطينيين، ويغالون باتهام مفكر مثل جارودى بعدائه لليهود هناك.

ويتحدثون عن التزييف الذى يدعيه مفكر فرنسى ضد يهود الحرب العالمية الثانية، ثم يثيرون جدلاً مزيفًا حول اتهام بعض الصحف العربية بمعاداة السامية مثل التهمة الكاذبة التى تنال إبراهيم نافع الآن.

وأيضًا، فنحن أمام سيل لا ينقطع من المصطلحات الإسرائيلية على مفردات الصراع بيننا وبين إسرائيل سواء فى داخل الأرض المحتلة فى الجنوب أو خارجها فى الشمال.. إلخ.

إنهم يقذفون، من وراء القناع اللاهوتى، بمئات وآلاف التهم الصورية لتزييف وعى المواطن الغربى، وإشغاله، ثم إرهاب المواطن العربى وإرهابه، وهى كلها طرق أصبحت بالية لم تعد لتنطلى علينا هنا.

هم فقط ما زالوا يتعاطونها ويتعاملون بها فى الغرب.

وهو ما يجب أن نعيه ونعمل له فى الغرب أيضًا.

الخطر والمضارع المستمر

سبق أن أشرنا إلى تصاعد الخطر الإعلامى الأمريكى فى جميع نواحى الحياة، خاصة فيما يتعلق بالتعليم والإعلام فى آن واحد، وهو خطر بدا خارج مصر أكثر منه داخلها، وبدت المقاومة داخل مصر أكثر منها خارجها..

وفى الحالتين فإن الخطر أصبح يهدد مصر، التى هى، بشكل ما، المنطقة العربية بحكم الفخ «الاستراتيجى» الذى يعد للمنطقة، وهو ممتد ومستمر، ففى اللغات الأوروبية فعل يطلق عليه المضارع المستمر، وهو ما يعنى أن هذا الخطر يظل فى واقع الأمر مضارعًا مستمرًا موصولاً بالمستقبل وليس مفصولاً عنه بأية حال، ما معنى هذا كله.. ؟

معناه، إذا تأملنا الواقع الذى يحيط بنا، لجزمنا بأن هذا الخطر الإعلامى (الأمريكى) يحيط بنا ويعمل بشكل دءوب ومستمر..

ولدينا أمثلة عديدة تمثلت - كما أشرنا إلى بعض المجلات التى تغزونا مثل هاى وأخواتها، والإذاعات المتوثبة مثل سوا، فضلاً عن المراكز البحثية المنتشرة كالفطر الآن، وبعض منظمات المجتمع الأهلى التى تنتمى إلى الممول أكثر من الواقع الجغرافى.. وإلى غير ذلك.. وهو ما يصل بنا إلى أمثلة جديدة طرأت على الواقع العربى هذه الأيام وآخرها وأخطرها على الإطلاق ما

أعلن عنه فى أحد الفنادق الشهيرة عن عزم شبكة الـ C.N.N عن إطلاق برنامج من القاهرة يحمل عنوانًا مثيرًا للعقل ومحفزًا على التساؤل وهو «من داخل الشرق الأوسط»..

فلنتأمل أكثر هذا الحدث وتداعياته هذا هو العنوان الذى أعلن عنه فى الأيام الماضية تحت مظلة المحطة الأمريكية الشهيرة التى لعبت دورًا كبيرًا فى كثير من الأحداث، وهو دور معروف بانحيازه الواضح للخطاب الأمريكى الخالص، ولعل أبلغ مثال لهذا هو توجيه هذه المحطة فى إبان سقوط بغداد لكل الأخبار المهمة الأمريكية، ليس هذا فقط، وإنما ما كان ينقل عنها من أغلب المحطات العربية الأرضية والفضائية..

الجديد فى هذا الأمر أن الخطر الإعلامى والفضائى كان يأتينا عبر المحطات الأرضية من الداخل، أما هذه المرة فإنه - كما سنرى - سيكون البث مباشرًا من الداخل، ليس هذا فقط، وإنما عبر شخصيات عربية وتسهيلات فنية تنتمى إلى داخل الوطن وليس خارجه، وهذا كله يثير تساؤلات كثيرة فى غذاء عمل مع بعض قيادات المحطة الأمريكية وبعض الكوادر الفنية والإدارية والمالية داخل البلاد (وكنت حاضرًا) أعلنت رينا جولدن نائبة رئيس الـ N.N.C عن أسباب اختيارهم لمصر لتنطلق منها البرامج التى ستقدم إلى - وعن - الشرق الأوسط الجديد.. لأن (وتأمل معى أيها القارئ الكريم).. مصر بلد فى غاية الثراء من حيث الميراث الحضارى فهى غنية بالتجارة والتنوع والإثارة!!! ولذلك فهى ترمز (للشرق الأوسط الجديد)!!! إنها ستكون - وهنا تنقل ابنة العم سام عن ابن الشرق العربى جبران خليل جبران مقولته - صحوة جديدة تنمو وتتسع وتصل وتحتضن كل الأرواح الزكية التى ستكون فى الشرق الأوسط..

وتستطرد السيدة جولدن بسرعة قائلة إننا لن نتجنب الموضوعات المثيرة

للجدل فيما يمس السياسة والحرب والاقتصاد والثقافة.. ونسأل نحن بدورنا وكيف يحدث هذا من العم سام الذى ينحاز مباشرة لإسرائيل..

وتضيف هنا أننا سنقدم لكم القضايا المثيرة فى إسرائيل مثل المقامرة ودورها فى الاقتصاد الإسرائيلى كمركز للسياحة.. وأشهر مصمم أزياء لبنانى إيليا صعب.. ونتمهل عند هذه الكلمات ونسأل بسذاجة: إذن، فما هو الذى يجمع بين القمار فى تل أبيب والأزياء فى بيروت وبهنا فى بقية العواصم العربية؟ وهل نقترب أكثر من فكرة الشرق الأوسط الجديد الذى سبق أن روّج له من قبل!!..

ونعود ثانية إلى السيدة الذكية التى تقول وهى تنظر إلينا إننا سنقدم لكم جو ألف ليلة وليلة فى جزيرة سوقطرة اليمنية بجمالها الذى لم تلمسه يد العالم الخارجى من قبل.. وهنا نتمهل مع القارئ الكريم، كيف سيقدم لنا الأمريكيون هذا العالم الشرقى، الذى ينتمى إلى ألف ليلة وليلة، ألا يكفينا ما نجده من عوالم الف ليلة وليلة فى الدراما الأمريكية التى تقدم لنا من آن لآخر فى الشاشة الزرقاء أو البيضاء، ثم ألا نرى ألف ليلة وليلة التى يقدمها لنا «هارى بوتر» وتنتمى للغرب الأمريكى فى النهاية، أم أنها تقصد ألف ليلة وليلة الغربية التى يراد لنا أن تكون هى «هويتنا» الجديدة فى عصر الإمبريالية فى ذروة صعودها.. ؟

ربما قصدت السيدة الأمريكية هذه «الليالى» التى تنتجها الإدارة الأمريكية الآن!!

ومصداق ذلك أن السيدة تستطرد فتضيف: إن القناة ستقدم لنا الحياة الشخصية المترفة لصدام حسين ثم تؤكد أنها ستقدم مساجد مدينة صنعاء القديمة، ثم إننا- إنها تخاطبنا..-.. لن نقدم ما تقدمونه أنتم من صور امرأة خاطئة أو أطفال يتسولون فى الطرقات أو أخبار نزاعاتكم الاجتماعية..

وهو ما يشير إلى أن ما سوف تأتى به السيدة جولدن ليس جديدًا، فهذه هى رؤية الاستشراق الغربى لقرون خلت، داخل الدراما الهليودية أو خارجها، إنهم لا يرون فى الشرق غير هذه الصور، أن المستشرق الغربى والأمريكى فيها بعد لم يكن ليعنيه غى«رشرقنة» ما يريده، والشرق هنا هو نساء الشرق أو حريم الشرق وأطفاله وعوالمه المنطبعة فى ذهن غربى لا يريد أن يرى غيرها..

هذا كله وأكثر منه وجده الحاضر أمام حفل تدشين ما سوف يقدم، فما يلفت النظر أكثر أننا نجد أمامنا على شاشة كبيرة مقدمة هذا البرنامج وقد ركبت فيها صورًا تتداخل وتتمازج لتصنع صورة واحدة لهذا الشرق الأوسط الذى يريدونه، لقد رأينا - على سبيل المثال - حى الحسين بالأشكال الشعبية الإسلامية المعروفة فيه كصانع الحلوى الشرقية، وفى الوقت نفسه - وفى الإطار نفسه - تتداخل ترانيم الحاخامات وأمثالهم فى إسرائيل، إنها صور مركبة تصنع شرقًا جديدًا غير مركب لتعيد صنع «المخيلة» العربية عبر هذه الشاشة الآتية إلينا ليس من واشنطن أو العواصم الغربية وإنما ستاتى هذه المرة من هنا، من القاهرة.. هل هذا معقول..؟

وهل ذهب خيال أحدنا- مهما يكن - إلى هذا الحد..؟

ما يلفت النظر أكثر هو «هوية» هذه الشخصيات التى تقدم لنا البرامج.. إن السير الذاتية التى بين أيدينا ترينا أن أغلبهم من المنطقة العربية، وأن ثقافتهم فى الغالب غربية، وإن يكن طموحهم يتعدى الثقافة الشرقية إلى الثقافة الغربية، لدينا أسماء كثيرة لا نريد أن نسجلها، وهى بين يدينا، غير أن المهم فى مراجعة هذه الشخصيات أننا نرى أنها شخصيات تنتمى إلى هذا القطر العربى أو ذاك، بل لا مانع أن نجد بعضهم ينتمون إلى إسرائيل بالفعل أو بالفكر..إن إحدى هذه الشخصيات تكتب تحت التعريف بها أنها

ولدت.. فى القدس وترعرعت فى رام الله وتابعت دروسها فى جامعة بيرزيت وغطت موسم الحج فى مكة المكرمة ثم ما أسمته المواجهات العنيفة بين الفلسطينيين والإسرائيليين فى القدس ورام الله وجنين..

وهنا يطرح السؤال نفسه، هل ما يحدث يوميا بين الإسرائيليين المدججين بالسلاح إلى ما فوق أنوفهم وبين الفلسطينيين العزل حتى من الملابس الخارجية يسمى عنفًا فى مرة و«انتحارا» فى مرة أخرى، أم أنه «مقاومة» مشروعة ضد المستوطنين والمسلحين؟

هذا سؤال لا يحتاج إلى إجابة..

ثم إن هناك شخصية أخرى من رواد هذه المحطة التى تنطلق من الشرق تكتب تحت التعريف بها أنها.. غطت مشاعر الحج ثم مشاعر السعوديين حول قصف أفغانستان ومشاعر العراقيين حول خطاب بوش بخصوص محور الشر..

وهو ما يشير إلى تساؤلات غامضة حول هذه الهوية أيضًا، فماذا يجمع بين كل هذه الأحداث، وما هى الدلالات الأخيرة التى تشير إليها، والتى تعتزم القناة تقديمها إلى منطقة «الشرق الأوسط» الجديد كما تحدث عنه بيريز من سنوات، وكما يردد فى الكتابات الأمريكية طيلة التسعينيات حتى الآن..

ولا يخلو من مغزى اعتراف بن ويدمان مدير مكتب القاهرة الذى أسهب كثيرًا فى الدور الذى يقوم به، ومن ذلك حين أعلن أنه قام بتقديم وقائع مهمة عن نظرة العالم العربى للغرب، خصوصًا للولايات المتحدة الأمريكية.. نافيا ما أكدته السيدة جولدن من أن قيم المحطة الرئيسية هى تقديم الأخبار بأسلوب محايد..

ويبدو أن أكثر العاملين فى هذه المحطة يتمون بالفكر إلى جهة ليست شرقية أو عربية بأية حال، وإنما هى جهة يهمها كما أشار السيد ويدمان أن

تتعرف على العالم العربى وتقدمه كما يراد لها أن يراه وأن تقدم المادة بأسلوب ليس محايدًا كما يزعم وإنما هو أسلوب الغرب في عصر مانهاتن، فالخطاب الغربى هو أكثر ما يسعى إليه فى هذه المحطة ويعمل له.

يصل المرء إلى حالة من الحزن الشديد والهلع لهذا الخطاب الأمريكى الخالص، غير أن ما يعزينا هنا أن المشاركين فيه من المصريين - ومن بعض رجال الأعمال خاصة - يعرفون بمواقفهم الوطنية الشجاعة..

إن أحد هؤلاء المشاركين من رجال الأعمال يؤكد فى هذا الحفل أنه مهتم بالقضية الفلسطينية، وهو يختلف مع هذه المحطة فى توجهاتها، غير أنه لا يختلف فى الأسلوب الذى يصبح مشاركًا فيه معها، فالمشاركة تتوقف على العامل المادى فقط، وهى لا تتعدى الشكل، أما المضمون - كما يؤكد بالحرف - فانهلا يتدخل فيه نهائيا!!.. وعلامات التعجب من عندنا..

غير أن هذا الموقف الوطنى لذلك المشارك أو ذاك لن يمنع المحطة من تقديم (الإستراتيجية) الإمبريالية كما عرفها الشعب العربى فى حرب الخليج الثالثة.. فنحن جميعًا نذكر كيف لعبت شبكة الـ N.N.C دورًا غير محايد بأى شكل، ومع رفضنا لأسلوب المستبد السابق صدام حسين أو أسلوبه فى قمع الشعب العربى فى العراق، فيجب ألا ننسى الدور الذى قامت به هذه المحطة إبان سقوط بغداد إلى الدرجة التى تم طرد بعثتها من بغداد ولما تسقط العاصمة بعد..

وبعد، فإن الخطر هنا لم يتمهل عند الشباب فقط، وإنما هو جاوز كل الخطوط الحمراء إلى ما يهدد الهوية العربية نفسها، أن يقدم برنامج أو برامج من شبكة أمريكية لها توجهات معروفة للجميع من قبل دون مراجعة أو تأن لهو خطأ كبير ينبغى مراجعته..

نحن لا نشك فى نيات المساهمين العرب - ومعروف عنهم مواقفهم

الوطنية - غير أن الخطر يسبق هؤلاء ويلحق بهم إذا كان الأمر يتعلق بالإستراتيجية الأمبريالية بعد عسكرة «العولمة» بالفتوحات الأخيرة فى بغداد وما سوف يليها..

الحاخام والسياسى.. العنف والإرهاب!

ما كدنا نرجئ العلاقة الوثيقة - الشائهة - بين المبشر والسياسى ثم الخبير والسياسى فى الغرب، ومعاناتنا منها فى الشرق، حتى التقينا بهذه العلاقة الحميمة - وما أشبه العلاقات الغربية - بين الحاخام والسياسى . الحاخام هنا معادل للمبشر والخبير- كما أشرنا فى الكتابات السابقة - وإن يكن فى سياق آخر.

وكنا أسهبنا فى هذه العلاقة بين المبشر، والسياسى حين تحول العداء بين المبشر والسياسى فى أوروبا فى عصر النهضة خاصة الى اداء وود حميم بين المبشر والسياسى خارج اوروبا، خاصة حين كان يلتقى المبشر والسياسى، بل يسبق المبشر السياسى فى الشرق ليمهد لزحف الاستعمارى الغربى الخطوط، ويحرثها أمامه.

عرفنا هذا فى عديد من الأقطار العربية والاسلامية، ربما كان آخرها الآن الفصل المأساوى الذى يعيشه العراق، الذى يشهد- فضلا عن السقوط والفوضى..- نشاط المبشر فى درجة من الدرجات القصوى، واذا بنا نتمهل عند بعض الاحداث المستمرة فى هذه العلاقة بين المبشر والسياسى..

إنها العلاقة المستمرة بين المبشر (والمستشرق الجديد) والسياسى فى الغرب..

غير أن أكثرها لفتا للنظر الآن هذه العلاقة المتشابهة والأكثر شراسة، إذ تضيف إلى التحالف العنف والاعتداء، ونقصد بها العلاقة بين الحاخام

(اليهودى)، والسياسى (الصهيونى) أو بين الحاخام المتعصب الذى يبيع بالعقيدة السياسة من أجل التعصب السياسى الذميم، وبين السياسى البشع العنيف الذى يبيع بالقانون الاستيلاء على أرض الغير واستيطانها بالقوة..

إنها العلاقة بين الحاخام والسياسى فى العصر الحديث، ومع أننا كدنا نمضى فى رصد هذه العلاقة بين المبشر والسياسى الغربى منذ عدنا من تونس، ورأينا كيف كان يحاصر ابن خلدون المبشر من شماله، والقنصلية الفرنسية من يمينه، حتى راعنا العديد من تحركات الحاخامات اليهود، وهؤلاء المتعصبين التى يقودها حاخامات فى السر والعلن لممارسة العنف ضد الفلسطينيين - مسلمين أو مسيحيين - سواء فى القدس أو فى الضفة الغربية.

ورغم أن هذه الممارسات العنيفة من الحاخامات والإرهابيين فى التنظيمات الإرهابية، تقوم بأعمال عنيفة ضد المدنيين العرب (آخرها ما تم الكشف عنه فى الناصرة، وراحت الجهات الإسرائيلية تحظر نشر معظم تفاصيل الجرائم..).. فإن التعصب المريع ضد أهلنا فى الأرض المحتلة أو - حتى - خارجها، يؤكد دور المبشر البشع بالتعاون مع السياسى البشع فى ممارسة العنف والإرهاب ضد العرب..

على أية حال، هذه مقدمة طالت أعتذر عنها أعتذر عن هذه البديهيات التى نعرفها الآن جيدًا، فما دفعنى للإشارة إليها ثانية، هذا الكتاب الذى صدر أخيرًا للكاتب حنفى المحلاوى (ملامح: التسامح والعنف والإرهاب فى الأديان السماوية) وفيه راح يرصد صور هذا التسامح فى الاسلام والمسيحية الشرقية، ثم هذا العنف والإرهاب فى المسيحية الغربية، واليهودية المعاصرة خاصة..

وما يلفت النظر هنا، وما يجب أن يلفت النظر، وهو ما أشرنا إليه من

قبل، أن الكاتب يشير إلى خلفية تاريخية لصور العنف والإرهاب التى نجده فى التوراة المزورة قديمًا، ثم يمضى فى سياقه المستمر من جوهر العقيدة فى القرآن والإنجيل ليصل إلى تداعيات هذا العنف، وذلك الإرهاب فى العصر الحديث، سواء ما تمثل فى التلمود أوما أثير فى - وعن - البروتوكلات التى أثيرت حولها أخيرا ضجة عنيفة..

وقد أسهب حولها الكاتب كثيرًا، غير أن العلاقة بين الحاخام والسياسى فى هذا السياق تحتاج إلى جهد أكثر تكثيفًا، أشار إلى بعضه الكتاب، وأسهب حوله بعض الكتّاب منهم الشرقى ومنهم الغربى ومنهم اليهودى المنصف، الذى يعيش خارج إسرائيل بشكل خاص ومع ذلك، ما زال ينتظر من يشير إليه أكثر، خاصة لدى السائد الخاطئ الذى نعرفه الآن، وبوجه أخص لدى الشباب العربى، الذى ليست لديه روافد كثيرة للتعرف على أصول هذه العلاقة، فضلاً عما يعمل معه وضده من وسائل إعلامية خطيرة لا تتردد فى تزييف كل شىء، واستخدام أحدث ما وصل إليه الاتصال والتكنولوجيا و «الميديا» الحديثة لتضليله..

ويزيد الأمر خطورة أنه لا يمر يوم أو بعض يوم إلا ونجد الكثير من صور التعصب الحاخامى (نسبة إلى الحاخام) ضد العرب المرابطين فى الأرض العربية، ثم - وهو الأهم - تشجيع القوات الصهيونية لهذه القوى المتعصبة ضد أهلينا هناك، وبإكمال دائرة التحالف بين الحاخام والسياسى نكون قد وصلنا إلى مركز العنف والإرهاب الذى يقوم به السياسى الصهيونى، سواء فى الأرض المحتلة أو - حتى - خارجها - حيث تمارس أشكال شتى من هذه العلاقة فى البيت الأبيض، فما زال (المحافظون الجدد) فى الإدارة الأمريكية يلعبون دورًا رائدًا فى التحريض ضدنا، ومازال «ليكودى» الأحزاب والإدارات الأمريكية المختلفة تنشط لعب هذا الدور

الرديء بصور شتى عرفنا بعضها أخيرا، حيث ينشط الإعلامى الأمريكى، مستخدمًا العلاقة بين المسيحية واليهودية - فى التاريخ - استخدامًا منحرفًا ليصب ليس فى عقل الصهيونى الذى يعيش فى الأرض العربية وحسب، وليس فى عقل الإسرائيلى الذى يعيش فى الأرض الأمريكية وحسب، وإنما- وهو أخطر- فى عقل الأمريكى الذى يعيش فى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها..

وهو ما يعود الى البديهيات الكثيرة.. وسوف نختار فى هذا مثالاً واحدًا مما يستخدم الآن من هذا الحاخام، وكذا ما يقوله هذا السياسى لبناء دولة تقوم على البهتان والخداع الصهيونى..

نعيد ونكرر: إن الأمثلة كثيرة ومتعددة، تمارس الآن داخل أرض الصهاينة أو خارجها، ومع ذلك نكتفى بمثال واحد، هذا المثال يتمثل فيما يردد فى التوراة التى بين أيدينا.. وهو كتاب ناله - دون شك - الكثير من التزوير - كما جاء فى كتاب المحلاوى، وبقية الأسفار والإصحاحات به التى تحض على الإرهاب..

إن العود إلى ما جاء بالتوراة، حيث جاءت كلمات السفر خاصة فى سفر التكوين الإصحاح 15 والعدد 18، نقرأ بالنص، ونعجب:

«فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقًا قائلاً لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير الفرات.. ويضيف فى العدد 19 معددًا شعوب المنطقة الفينيين والقنزيين والقدمونيين والحيثيين والفرذيين والرفائيين والكنعانيين...

ومن هنا أصبحنا نسمع عن ولادة إسرائيل الكبرى، كما يتحدث عنها ساسة يأتون من الغرب، وليس لهم أية علاقة بالشرق، وأصبحنا نعرف حاخامات يأتون من كل مكان يتحالفون مع الساسة، ويبدون تعصبًا بالغًا

ضد أهل البلاد الأصليين، وأصبحت الحقبة الأخيرة زاخرة بغلاة الاستعمار الإسرائيلي للأرض العربية سواء من الحاخام أو السياسي بل ليس لهم أية مصداقية لما جاء في التوراة، فقد اتخذت الحركة الصهيونية «السياسية الاستعمارية» من ذلك الوعد التوراتي منطلقا لها، وقالت إذا كان لنا الوعد من الله، فلماذا ننتظر أن يجيء إلينا ولما لا نذهب نحن إليه لتحقيقه.. وهو ما يصل بنا إلى بديهيات كثيرة منها..

لن تكون هنا «مسيحية صهيونية».. كما لن تكون هناك وعود مزعومة..

على أية حال، فإن هذا الكتاب، عن العنف والإرهاب، يزخر بعديد من الصور العنيفة والإرهابية التي تؤكد على هذا التحالف الشرس بين الحاخام والسياسي أولاً، ثم بين هذه الفئة والاستعمار الغربي ثانيا، وقد استطاعت الصهيونية العالمية بعد أن حولت اليهودية من عقيدة إلى استعمار، ومن الشعب اليهودي من شعب نرى دوره في الكتب السماوية، وقد تحول الآن.. إلى «شعب الله المختار» دون الشعوب كلها..

على أن الكتاب وإن كان قد أسهب حول بعض ما جاء في التوراة (وقد نالها التزوير) والبروتوكولات (وقد نالها التشويش)، فإنه يتمهل عند كتاب مهم جدًا، لم يتنبه إليه العرب على خطورته، وهو التلمود، ولم يولوه أهمية ما، وهو لم يترجم كاملاً رغم ما جاء فيه من صور شتى من العنف والإرهاب بأبشع المعاني، ونقصد به «التلمود» الذي زخر بأكاذيب ووصايا ارهابية وتعليمات يحفظها كل يهودي متعصب الآن، ويكفي أن نجد هنا إسهابًا مروعا لوصف شعب الله المختار - كما زعم الحاخام الإسرائيلي المتعصب - فنقرأ - على سبيل المثال - من نصوص التلمود كما ينقلها لنا الكتاب مثل هذه العبارة نحن شعب الله المختار في الأرض..

وقد فرقنا الله لمنفعتنا.. ذلك لأن الله سخر لنا الحيوان والإنسان، وأهل كل الأرض من الأمم والأجناس..

- وبعد:لا نريد الإسهاب أكثر فى مثل هذه الكتب التى كتبها الحاخام، وباركها السياسى، وراح كلاهما- الحاخام والسياسىّ - يعملان بدأب وبأساليب عنيفة يستوطنون الأرض العربية - لا يستعمرونها فقط، كما كان المبشر يسعى من قبل - فنحن فى زمن تستخدم فيه كل الأساليب بما فيها الأديان السماوية لتحقيق الأهداف الاستعمارية (نكرر لا الدينية بأية حال) للاستحواذ على مقدرات الشعوب..

وهنا يتساوى فى هذا الدور المبشر والخبير والحاخام. وهم يعملون لهدف سياسى، الإمبريالية الغربية الآن فى أكثر عصورها شراسة وعنفًا. وكل منهم - المبشرو الخبير والسياسى - ما زالا، يعملو فى الأرض العربية بدأب ونشاط شديدين.. وكل منهم يلعب دور «المستشرق» الجديد فى زمن الإمبريالية..

قناع «العم سام».. والإصلاح

أولاً

لا نريد الآن أن نضيف كلامًا مكرورًا كثيرًا عما يجرى فى المؤسسات والاتحادات والجمعيات، والنقابات المهنية عن هذا التغيير..، وإنما نريد إعادة النظر، ولن نمل إلى هذا الحديث عن الإصلاح والتغيير وما إلى ذلك مما زادت حدته أو أصبح حديثنا اليومى منذ ارتفعت راية مشروع الشرق الأوسط الأكبر..

إن أى حديث عن التغيير أو الإصلاح يظل حديثًا معادًا خاصة فى هذه الفترة (انظر بسرعة إلى توتره وتواتره وغزارته الآن فى الصحف) غير أن الجديد الآن هو الذى لاحظناه فى قضايا الإصلاح العربى وآليات التنفيذ بالشكل الذى رأيناه فى المؤتمر الذى انتهى أمس فى مؤتمر الإسكندرية والمؤتمر التحضيرى له من قبل، وبشكل أخص حين أكد الرئيس مبارك هذه المرة أن هذا المؤتمر يمكن أن يشكل بوتقة عربية متكاملة.. وليخرج برؤية عربية شعبية للتحديث والإصلاح فى العالم العربى تغطى كل جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية و.. مما يشير إلى أن الهدف هنا ليس إقليميا بأية حال، وإنما هو عربى بالمعنى العصرى.. إن الحديث عن التغيير والإصلاح إذن ليس جديدًا، وإنما الجديد هنا هو التركيز على الواقع العربى

فى المقام الأول، وربط الإصلاح بالموقف العربى العام - بعيدا عن الإقليمية - فالملاحظة المهمة هنا أن كل المفكرين والمثقفين الذين شاركوا فى هذا المؤتمر اهتموا بقضايا الإصلاح العربى (العربى) وكان جوهر البيان الختامى هو الرؤية العربية الشاملة.

وطبيعة التغيير بهذا الشكل لا يمنح جديدًا بقدر ما يمنح إصرارًا على التغيير العربى نترجمه اذا شئنا فى القسوة على النفس إلى درجة لم نكن لنعرفها من قبل، ورغم وضوحها، فإننا لم نكن لنستطيع أن نعلن عنها بهذه الصورة خاصة من المثقفين والمعنيين بالإصلاح فى المنطقة العربية.. ونستطيع أن نقترب أكثر من هذه التجمعات المفتوحة والمغلقة لنلاحظ الكثير. وعلى سبيل المثال، لنقرأ هذا التعبير الطويل، القاسى، الصريح من محضر إحدى جلسات المؤتمر الذى عقد بالإسكندرية حتى أمس، لنقرأ:

- على الرغم من أن العالم العربى يشترك فى اللغة والدين فإنه مجتمع غير متجانس وغير متماثل، فمثلاً النظام القبلى فى دول الخليج يختلف عن النظام المجتمعى السائد فى مجموعة أخرى من الدول العربية تضم مصر وسوريا ولبنان والأردن، فلهذه الدول خصائص تختلف عن غيرها من الدول العربية...

وهذا كلام مطروح منذ فترة بعيدة، وكان يعبر عنه بشكل ملتو، وغير مباشر.. على عكس ما نقرأ عنه أو نسمعه الآن حين يتعامل مع المشروع بروح عربية لا قطرية قط.. وقد عاينت هذا شخصيا فى كثير من المؤتمرات والندوات التى كانت تعقد فى الداخل والخارج، وآخرها هذه الندوة التى شاركت فيها فى جامعة السويس - كلية التربية، ولاحظت - خاصة بين الشباب - من يتحدث عن غياب القيم الأخلاقية، ومن ثم، غياب القيم التى يمكن أن توحد بين المجتمعات العربية فى ظل «ثقافة العولمة».. وكان

عليَّ أن أعيد ما سبق أن رددته فى كثير من الكتابات واللقاءات من أن هذا المجتمع العربى الذى نعيش فيه هو بالفعل عربى وإن كان «غير متجانس» كما أن خصائصه الاجتماعية خاصة والسياسية على وجه أخص لا تستطيع التعاون فيما بينها بشكل طبيعى وأن كان الواقع يحتم علينا التلاقى فى تكوين واحد..

ومن هنا، فإنه من اللازم أن نعثر على طريقة أخرى - غير السياسة- لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من هذه المنطقة التى تتعرض الآن لخطر التلاشى، وخاصة عوامل التفتيت والهدم تعمل فيها سواء بتوجيه سهام المشروع الآتى من واشنطن أو هذا الآتى من أوروبا..أنا معكم - هكذا قلت وكررت - إن العروبة - بالمعنى السياسى - تظل سرابًا فى غيبة الوعى بها فى عالم يدرك جيدًا أنها لن تتحقق أبدًا ونحن نعيش بين قبائل تسمى الأقطار العربية، وإن اللغة العربية لن يتحقق لها البقاء بشكل «جمعى» ما دام أصحابها لا يعون حتمية التمسك بها فى وعى مشترك ضد أعدائها، ومن هنا، فإن الاتحاد على المستوى السياسى يظل وهما- ولابد أن نعترف بذلك - غير أن الاتحاد على المستوى الثقافى يمكن - إذا كنا أكثر وعيا - أن يهبنا حقيقة واحدة، هى أننا إذا لم نتكاتف ونقترب - رغم الخلاف والإختلاف - فإن مصير الهنود الحمر ينتظرنا.. هل تعرفون الهنود الحمر.. لقد كان عددهم حين جاء عدد من الأوروبيين إلى أمريكا فى القرن الخامس عشر يصل إلى مائة وعشرين مليونًا، أما الآن فان عددهم لا يزيد على عدة آلاف.

هل تعرفون مصير الهنود الحمر.وكان على عميد التربية د. بلال أحمد سليمان الآتى من أمريكا أن يؤكد أن الهنود الحمر بعد عصف الإبادة وضعوا فى مناطق محددة ومعزولة تعامل بقانون خاص ويختلف فى هذا وضعهم عن وضع الآخرين، كما يفتقدون إلى حظهم من الرعاية والحياة الطبيعية، ويعيشون فى مناطق لها «وضعية خاصة» تغيب عنها وسائل التمدين

الحديثة، فإذا أرادوا أن ينخرطوا بالمجتمع الأمريكى فإنهم يخضعون إليه وأن كان بقوانين الرجل الأبيض، كما أن الاستثمار لديهم له قانونية خاصة لا تعرف «القانون الطبيعى».. أسهم هذا فى تأكيد ما يحدث لبقايا الهنود الحمر الذين لا ينخرطون فى الحياة التى تفرض عليهم فيعيشون فى منازلهم الخاصة بشكل يفرض عليهم، وعددهم لا يزيد على عدة آلاف فى الجنوب الغربى أو يتناثرون فى بعض الولايات بالمئات بعد أن كانوا بالملايين، إنهم فى «مناطق خاصة» لا يخرجون منها..

ويذكرنا هذا بحال أهلنا فى القدس فمن يزور القدس الشرقية، حيث يعيش العرب يقترب من هذا الوضع فى حين أن من يعيش فى القسم الغربى من المدينة المقدسة يرى أنها لا تخلو من الصهاينة الذين يعيشون فى مناخ مغاير متقدم وعصرى..

وهو ما يعكس التناقض بين بقايا العربى فى شرق القدس والصهيونى فى المنطقة الأخرى وكأن بقايا العرب هناك هم بقايا الهنود السمر هنا (وهى مقارنة واقعية قاسية..)، وكان علىَّ أن أعود فى نهاية الندوة لأحذر من مصير هذا المجتمع العربى الأكبر الذى يمكن أن يتحول - لو ظل الحال كما هو- أن يتحول إلى حال الهنود السمر اليوم.. ورغم قسوة التعبير، فإن الواقع يمكن أن يكون أكثر قسوة وأكثر واقعية مع فقدان الوعى، وغياب العقيدة..

ثم إننا إذا لم نكن واعين - استطردت - للإفادة من العربية كلغة تسهم فى تأكيد «الكتلة» العربية فى مواجهة الكتل الكبرى فإن هذه العربية لن تستطيع أن تهبنا سببًا واحدًا للبقاء فى هذا العالم الذى لم يهتم فى عصر (عسكرة العولمة) بغير لغة أخرى أصبحت تستولى على أكثر من تسعين فى المائة فى عالم المعرفة الرقمية، وبالتالى فإن مصير العربية - فى هذا المناخ - سوف يكون-

بالتبعية - هو مصير اللاتينية التى تلاشت مع الوقت.. إننا أيها السادة نصل إلى المرتبة الخمسين أو نقترب منها إذا حاولنا أن نرصد موقعنا فى عالم الإليكترونيات المعاصرة، أو إذا آثرنا الاشارة إلى الهوة الرقمية بيننا وبين العالم الغربى المتقدم..

إن ما أثار هذا كله فى أننى (ومازلت اتذكر..) كنت أمام أكثر من طالبة، تقف طالبة تطلب الكلمة، ثم تنهض لتشير إلى أنه ما دام لدينا فى كتابنا الكريم (القرآن الكريم) كل شيء، فلماذا.. هكذا سمعت وسمع معى كثير من المسئولين والمثقفين ـ نتحدث كثيرًا عن التعاون بيننا كعرب ولماذا نتحدث عن التقنية والرقمية.. وما إلى ذلك.. ؟

كان لابد أن أعيد الحديث الطويل عن أن العقيدة تدفع إلى العلم، وما من عقيدة فى الكون تحث على العلم مثل عقيدتنا، معيدًا على أسماع الطلبة الجالسين فى الندوة الواقفين بعد أن انتهينا منها المحجبات جميعًا- الكثير من الآيات التى تشير إلى هذا وتحث عليه..

وعجبت، أن شبابنا (45٪ من عدد السكان) ما زال يرى فى العقيدة وجهًا خاطئًا دون أن يتنبه إلى حث العقيدة على العلم والتقوى فى آن واحد على بواعث القوة، اللغة الوحية التى يعرفها الغرب ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾.

وهو ما يعود بنا إلى مؤتمر الإصلاح بالإسكندرية الذى ختم جلساته أمس.فمع أن البيان التحضيرى لقضايا الإصلاح والمؤتمر التالى له - انتهت جلساته أمس- أعرب عن ضرورة التنبه إلى أننا نعيش فى مجتمع غير متجانس، بل كان أكثر قسوة ووضوحًا حين قال ليس هناك ما يجمع هذه الأمة، فإن هذا جاء من قبيل عمل مشرط الطبيب فى الجرح لكيلا يصبح ميئوسًا من شفائه..

ومع ذلك، فإن هذه الجلسات لم تتردد- مع قسوة الاعتراف بالواقع - من أن تتنبه إلى أن هذا المجتمع غير المتجانس- خاصة فى الجانب السياسى- ليس أمامنا غير البحث عن نقاط الاتفاق، إن الافتراق يحتم علينا الاتفاق فى عالم لم يعد ليعترف قط بالأقطار والكانتونتات والبيمارستانات، ومن هنا لايبقى أمامنا غير البحث عن الإيجابيات فيما بيننا ومحاولة العمل على تأكيد «كيان» لا كيانات ليمكننا العيش فى عالم اليوم..

إن جلسات مكتبة الإسكندرية كانت من الوضوح بحيث إنها اعترفت بفشل الجامعة العربية لعدم وجود« إستراتيجية واضحة للدول العربية التى تتكون منها الجامعة»، كما أنه لا يبقى أمامنا غير حل واحد، نؤثر أن ننقل من محاضر هذه الاجتماعات لأهميته، هو ضرورة البحث عن القواسم المشتركة بين هذه الدول..

وعلى هذا النحو، كان علينا أن نعود داخل المؤتمر وخارجه إلى ترديد - وهو ما لا تخلو منه صحيفة أو تقرير اليوم - البحث عن إطار تعمل من خلاله آليات اقتصاد السوق كمثال لبداية الوعى..

وهو ما تردد فى الجانب الثقافى خاصة حين استعدنا هذا الاعتماد المتبادل فى الثقافة فى كثير من الملاحظات كان أولها ضرورة تفعيل القواسم المشتركة فى الثقافة العربية والعمل على نقد الجوانب السلبية فى التراث، وتعزيز روح التسامح مع الآخر، ونبذ العنف فى التعامل مع الأقليات فى الداخل، والاعتماد على الحوار الحضارى والشراكة واستيعاب الطفرات التكنولوجية وأخذ زمام المبادرة فيها ثم العمل على إنهاء الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين والأمريكى للعراق.. إلى غير ذلك من العناية بثقافة الشباب وتوثيق الواقع الثقافى وتنمية مشروعات النشر الإليكترونى.. وما إلى ذلك مما جاء فى البيان الختامى التى انتهت إليه جلسات المؤتمر أمس. على أية حال، إن هذه

الأفكار ستكون بين أيدى المجتمعين فى مؤتمر القمة العربية فى نهاية مارس بتونس، ثم فى قمة الدول الصناعية بعدها فى نهاية يونيو بولاية جورجيا.. ففى الحالة الأولى سيكون العرب مجتمعين فى (الجامعة العربية)، وفى الحالة الثانية سيكون الغرب مجتمعًا فى قمة الدول الصناعية..

فى جميع الحالات لا بد من التنبه - وقد مضت عقود كثيرة - على ضرورة اليقظة فى هذا العالم الذى سيباد فيه من لا يتغير، وتعاد فيه مصائره ولغته إلى حال الهنود الحمر، أو، السمر..

الإصلاح.. والفضائيات العربية

ثانيًا

كما أن عديدًا من القضايا والمؤسسات يعاد النظر فيها فى الفترة الأخيرة.. كذلك، فإن الفضائيات العربية تظل أهم هذه الرموز.

نقول أهم هذه الرموز وأخطرها فهى تلعب دورًا حيويا فى إعادة تشكيل الوعى وإعادة النظر فى آليات الواقع فى تصور قضية الإصلاح التى كثر الحديث عنها ـ وحولها ـ فى الشرق الأوسط الكبير فى الفترة الأخيرة.

ومن هنا، يصبح لزامًا علينا التوقف عندها، عند أهم رموزها على الإطلاق: الإعلام العربى.

ونسارع بالقول هنا أن التوقف عند هذه الرموز فى آليات التغيير لم يطرح هنا من أجل تفجير اختلاف مصرى ـ عربى فضائى غير مجدٍ فى زمن الـDigitaltime، وإنما من أجل ائتلاف تكاملى لتجديد الخطاب الإعلامى العربى بكل الوان الطيف: الثقافى والترفيهى والاقتصادى فضلاً عن تنوير الرؤى الموجبة للسلطة الرابعة ونقصد بها جهاز التليفزيوتر الذى يجمع ما بين أداء الفضائيات وأداء الشبكة العنكبوتية.

وفى الواقع إن «الأب الثالث» أو التليفزيون يظل صاحب اللمسات الواعية الذكية فى أثر الديمقراطية والتسامح وحقوق الإنسان، فضلاً عما ينادى به من الحرية والمعرفة وتمكين النساء - كما يردد الآن.. - فالهدف فى هذا الإطار يظل عقد اللقاء بين الشعلة التنويرية للتليفزيون المصرى وبقية منارات البث العربية الأخرى فى زمن ما بعد الفضائيات.

ومن المهم أن نلاحظ هنا أنه فى مؤتمر قمة المعلومات الذى عقد فى ديسمبر الماضى بجنيف، بدا التركيز واضحًا من رواد المعلوماتية العالميين على دور الإعلاميين فى سبق تنسيق الذهن والمخيلة الإنسانية لتقبل فكرة مجتمع ما بعد المجتمع أو مجتمع المواطن الاليكترونى خاصة أن هناك أكثر من 125 مليون أسرة فى وطننا العربى تمتلك جهازًا تليفزيونيا، مما يعنى أنه لا يوجد شخص عربى واحد لم يشاهد الشاشة.

وهذا يعنى، أيضًا، أنه لا يوجد جهاز اتصالات آخر حتى لو كان هو التليفون.

هذا كله بدهى، غير أنه يثير آسئلة كثيرة.

وهنا تتداعى الأسئلة وتتماهى، لكنها تظل ملحة وحيوية وعاصفة، من ذلك..

- كيف يمكن أن نحمى أولادنا من غسيل المخ الفضائى القادم عبر الأسلاك، خاصة مع تدشين أكثر من قناة يهودية سواء عبر الفضائيات أو على عبر الإنترنت لتخاطب المواطن العربى باللغة العربية، لغتنا..؟

(ناهيك عن قنوات الحرة وإذاعة سوا ومجلة هاى إلى غير ذلك).

- ثم ما هو الشكل المتوقع للسلوك الإعلامى العربى فى الفترة القادمة، خصوصًا مع التغيرات التكنولوجية والسيبرية والكوكبية والجيوسياسية فى منطقتنا العربية؟ - ثم كيف ستتقارب فضائيا للرد على هذه العسكرة الفضائية فى اطار عسكرة العولمة من المغرب إلى إندونيسيا.

- ثم ما هو الموقف إزاء التشتت للمشاهد على أقمارنا العربية بين القيم والعادات وما يسمى «بستايل الميديا» والموافقة على البورنوجرافية لا سيما فى الفيديو كليب باسم العصرى والإبهار؟

وهنا يمكن أن نذكر للتدليل برامج مثل الـRealityTV أو إستديو النجوم أو صناعة النجوم وتقديمها بصورة هشة وليست موضوعية بما لا يناسب ديننا وقيمنا؟

- ثم كيف نفسر إغراق البرامج بكم هائل من الترفيه أو ما يسمى «الارضاع الترفيهى»؟ أو ما يسمى «العنف الترفيهى»؟

- ثم ألا تلاحظ معى، أيها القارئ الكريم، أنه فى المقابل ليس لدينا برامج أو برنامج دينى قوى فى البرامج المصرية مع أن الحاجة اليه فى هذه الفترة ماسة جدًّا؟

(وبالمناسبة أيضًا ألا تلاحظون أن عديدا من القنوات لا تسمح بظهور (المحجبات)، هل هو قرار رسمى أم قرار اجتهادى؟ خاصة أن والمعروف أن الممنوع مرغوب فى هذه الفترة القاسية من تاريخنا)، وما يثيره هذا من جدل ليس له موقع من الإعراب.

- ثم ألا نلاحظ أيضًا أن الإعلام عندنا رسميا أو حكوميا إلى حد بعيد - وحتى بعض القنوات التى تنتمى إلى رجال الأعمال لا تبث إلا تحت إطار «الخطاب» الرسمى (هل ذلك متعمد؟).

ويمكن أن نضيف إلى هذا تساؤلات أخرى كثيرة منها السبب فى ضآلة البرامج الثقافية أو البث الثقافى، خاصة إذا قارناه بعملية «الإرضاع الترفيهى» الذى يستمر ليلاً ونهارًا، وبأشكال شتى، فالمقارنة هنا تظل صادمة، مرعبة..

ثم ـ وهنا نتوقف كثيرًا ـ لماذا لا تهتم الفضائيات العربية بالقضايا العربية فى اطار شامل وليس فى إطار اقليمى محدد، فالإطار العام والواجب أن ننتبه أننا فى عصر «التكتلات» أو عصر القطرية، فى وقت لا يجب إغفال القطرية لكن فى الإطار العربى.

وهى قضية لا تحتاج لنظر لخطورتها.. فالوطن العربى الآن يعاد ترسيمه على خريطة مشروع جديد يأتى من أقصى الأطلنطى..

لا تنتهى الأسئلة ولا ينتهى ما تثيره من إجابات بدهية.

إن الدراسات المعاصرة تحث على وضع خطة إعلامية عربية لمواجهة هذه الظاهرة، موضحة أن المواجهة لا بد أن تستند إلى خطة تتعلق بالطرق والوسائل الكفيلة للتقليل من طوفان المادة الإعلامية الأجنبية، فى التليفزيون العربى، ومحاولة منع ظاهرة البرامج غيرالواقعية التى لا ترتبط بقيم المجتمع وثقافته، مع أهمية تحصين الشباب سياسيا واجتماعيا وثقافيا وتربويا، وتعميق وعيه بمضامين الغزو وسلبياته، وتطوير وسائل إعلامه الوطنية ومضامينه، وإعطاء الشباب الفرصة للتعبير عن آرائهم وأفكارهم وتطلعاتهم، فى وسائل الإعلام، وإشراكهم فى صنع القرار الإعلامى، ومشاركتهم فى إنتاج برامجهم صناعة وكتابة وتنفيذًا.

كما تتكرر فى الدراسات ضرورة العودة واللجوء إلى التراث العربى الإسلامى على اعتبار أنه من أهم المصادر الثرية لمواجهة تحديات وإفرازات زمن العولمة، وعاملاً مساعدا لتشكيل تجانس ذهنى وروحى بين شباب الأمة اليوم..

وفى هذا يجب أن نتنبه هنا إلى أنه تثار من آن لآخر قضية البرامج التى تنتمى إلى أسلوب تليفزيون الواقع، ومنها ستار أكاديمى وعلى الهوا سوا

والرئيس و الأخ الأكبر.. إلخ - مما يثير جدلاً واسعًا فى الأوساط الاجتماعية والسياسية والعربية.

وكلنا يذكر هنا كيف أسهم ضغط مارسته المعارضة البحرينية أخيرًا فى وقف برنامج الرئيس الذى كانت تبثه محطة إم بى سى، وهو نسخة عربية عن برنامج أمريكى، أما برنامج على الهوا سوا فقد أخفق فيه فى الوصول إلى الهدف النهائى، وهو تزويج إحدى المشاركات بأحد المشاهدين، مما أدى إلى توقفه.

والمعروف أن ستار أكاديمى هو النسخة العربية لبرنامج فرنسى، هو الأكثر جدلاً بين تلك البرامج، حيث اعتبر المراقبون أنه تجاوز كل الخطوط الاجتماعية التى لم يستطع برنامج آخر تجاوزها، مما دفع عددًا من علماء الدين إلى إصدار فتاوى تحرم مشاهدته والمشاركة فيه عبر رسائل الهاتف.

وبعد فإن الأسئلة كثيرة، والملاحظات تفرض علينا نفسها، فهذا العصر عصر الأقمار الصناعية والصناعة الإعلامية، بيد أنه آن الأوان لنقترب أكثر من الصورة من أجل الوطن العربى ليس الوطن القطرى وحده.

من ناحيتنا نسعى اليوم إلى إقامة لقاء أو تجمع إعلامى ثقافى واع لنعيد النظر إلى الإعلام المصرى خاصة والعربى على وجه أخص، ثم لنعيد النظر فيه إلى قضية الإصلاح التى تشاع الآن على وجه الخصوص.

ترى، إلى أين نتجه مع ثقافة الصورة العربية وظلالها؟

الفضائيات العربية والدور الغائب

عجبت ويجب أن تعجب معى عزيزى القارئ لهذا التناقض الشائع فى حياتنا اليوم، بل قل هذه الثنائية التى تتراوح أمامنا أو ألوان الطيف التى تتعدد فيها نعرفه أو نعيش فيه فى الواقع العربى..

نقول التناقض، أو بشكل أدق، الدور الغائب عن إعلامنا العربى والفضائيات التى تحسب لنا وعلينا فى آن واحد.

ولكى يكون حديثى أكثر فهمًا، يمكن أن نشير لمشاهد نعرفها جميعًا تتناثر أمامنا من كل وسائل الإعلام والاتصالات فى عالم اليوم..

وإذا أردنا مثالاً واحدًا، يمكن أن نشير إلى هذه الفضائيات التى تزايدت أعدادها لتصل إلى حوالى مائتى قناة فضائية فضلاً عن القنوات الأرضية..

إن الفضائيات - وقل مثل هذا عن عدد من الصحف - ما زالت تشغل قارئها فى الغالب الأعم بما لا يلقى فى تيار الواقع العربى، فى وقت نعيش فى فترة من أسوأ فترات حياتنا..

وقد قدر لنا فى الندوة ـ أشرفت بإدارتها ونشرت مؤخرًا ـ أن أثرت قضية هذه الفضائيات، وفزعت فزعًا موجعًا مما يحدث لنا وحولنا من وسائل إعلامنا فى هذه الفترة الصعبة من تاريخنا..

والفزع هنا لم يكن من مظاهر هذه الفضائيات وما تقدمه، وإنما من الصورة المكررة السلبية والسائدة التى راح يكررها المتحاورون، وكأننا نشير إلى هذا لأول مرة، رغم أننا نعرف هذا ونعيشه منذ قرابة نصف القرن بالنسبة لوسائل الإعلام المكتوبة، وأقل من هذا بقليل بالنسبة لفضائياتنا وأثيرنا المنكوب بفهمنا ووعينا المضطرب..

إن الفضائيات العربية (العربية) لا تقوم بدورها المأمول فى زمن كان العكس هو المفروض أن يحدث لنا فيه الوعى بضرورة تأكيد الصوت الواحد أو الأصوات الكثيرة فى بوتقة واحدة..

ولكى نخرج من الإجمال إلى التفصيل نتمهل عند ظاهرة نلتقى بها كل يوم فى صحفنا- بالقدر الذى نلتقى به فى فضائنا الزاخر بالقنوات المهتزة

دائمًا بالكليبات العنيفة، بجانب الأحداث العنيفة الدامية هنا وهناك لنتمهل عند بعض العناوين قبل ان نعاود لما بعدها

خذ مثلاً هذه العناوين التى يمكن أن تصف فى مصفوفتين اثنتين فى فضائية أو جريدة واحدة:

المصفوفة الأولى يمكن أن نعثر عليها فى مثل هذه العناوين:

- معارك طاحنة فى المثلث.

-المجازر تدور فى الفلوجة وكركوك.

- القوات الأمريكية تسعى إلى تدمير جيش الصدر.

- المعارك المستمرة ما زالت تدور فى دارفور بوحشية.

- الجيش الإسرائيلى ما زال مطلق السراح فى مخيم بلاطة فى فلسطين.

- الجدار الفاصل مستمر فى حين أن قتل العزل واعتقالهم حوله وأمامه مازال مستمرًا وداميا..

ونترك المصفوفة الأولى تتداعى أحداثها وننتقل للأخرى فى نفس الصحيفة، بل ونعاود إليها فى نفس الفضائية، نقرأ:

- أنظار العرب تتجه كلها إلى محطة فضائية واحدة LBC تتابع محاورة هزلية.

- برنامج واحد يحصل على 35 مليون مشترك من جميع الدول بالأجهزة الحديثة: الميلودى ونجوم M.F وموبنيل..إلخ.

- الشباب العربى يتجهون إلى برنامج فضائى للبحث عن حلم الفانوس السحرى للمجد والشهرة.

- يعود الشاب المصرى من بيروت ليجد فى انتظاره 12 ألف معجب من الشباب..

الشاب يتحدث عن أحلامه و«القدوة» فى عصر العولمة التى أوصلته إلى 35 مليون دولار عاد بها بعد كفاح عريض إلى أرض الوطن.

ونستطيع أن نجاوز الثنائية بين الضربات الدموية ضد أهلنا فى العراق وفلسطين إلى الضربات العشوائية الخائبة بين أهلنا فى عدد من أقطار الوطن العربى، بدءًا من دول الخليج إلى أرض المغرب، مرورًا بمصر وبطلها الذى أثار الغضب بين الأقطار العربية وبشكل بدت فيه الحروب بين الفضائيات، وكأنها حروب بين الحكومات على أسباب لا تستطيع الأمم المتحدة أن ترصدها فى خانة الاعتداء بين الشعوب، أو يستطيع أى محلل سياسى حصيف أن يربط بينها وبين «مشروع الشرق الأوسط الكبير» الذى تدور حوله الندوات والمؤتمرات منذ فترة طويلة..

وهو ما نلتقى به كثيرًا- أيضا- فى صحفنا وندواتنا.

لقد أشار إلى هذا فى جانبه السلبى عدد من المشاركين، فقد أشار الجميع إلى الصور السريالية الدامية التى نراها فى فضائنا، فى حين أن الوعى «القومى» الغائب لم يتقدم أو يتم التنبه إليه..

وسوف نشير إلى عبارة طويلة أثارها البعض حين طالب بالحرف الواحد بضرورة البحث عن «القاسم المشترك» بين جميع الفضائيات، فالمشكلة هنا تكمن فى «التناقض» الموجود فى المنطقة العربية، فالغرب الأمريكى والإسرائيلى فى ناحية والشرق العربى فى ناحية أخرى، وهو تناقض يلقى فى صالح الغرب الأمريكى والإسرائيلى فى الشرق الاوسط، وهذا يجعل المنطقة كلها فى حالة من التشظى الغريب، إذ تبدو المنطقة العربية فى حالة شتات وفرقة كاملتين، وما أشار إليه أستاذ التربية - بدرجات - مع حفظ الألقاب- لينا الكيلانى وسهيلة الحسينى ومحيى الدين صالح وسامية خضر وعواطف عبد الرحمن.. وغيرهم كثيرون.

الفضائيات تكرس لغياب «القسمات المشتركة» بل إن «الوحدة فى إطار الاختلاف» نراها دومًا مفتقدة، ومن ثم، تنعكس فى وعينا وقدرتنا على مواجهة الحاضر..

لا قاسم مشترك تسعى هذه الفضائيات إذن إلى البحث عنه والعمل له..

كان على أن أؤكد، أن المبادرة الأمريكية الأخيرة تعمل فى إطار جغرافى يقع بين مراكش وبنجلاديش، فى حين أن المبادرات العربية، المتعددة، تسعى، وإن كانت متباينة، إلى تأكيد وجودها عبر الجامعة العربية التى لم تنجح - بالتبعية - فى مسعاها عبر الجامعة العربية أو خارجها فى توحيد مبادرات الإصلاح العربية، وهو القدر الذى لاحظنا فيه أن الفضائيات لم تجاوزه فى شىء إذن، ما قيل، أو يقال ليس جديدًا، وإنما الجديد أننا- وأعجب من هذا كثيرًا- رغم كل ما يحدث لنا.. مازلنا مشغولين أو كالمشغولين، بقضايا ساطعة وهمية فى قنواتنا الفضائية وغير الفضائية، فى صحفنا التى نعثر عليها فى أنحاء أقطار العرب «سمينة» وليست «ثمينة» فيما تقدمه من مادة إعلانية وإعلامية.

والجديد أن هذا كله يحدث، والغرب يعمل خلال الإعلام الغربى بجدية عبر القنوات المتعددة سواء ما نعرفه من قناة «فوكس نيوز موربورايشن» أو «إن بى سى» هناك أو «سوا» و«الحرة» هنا.

والمعروف أن هذه القناة الأخيرة تعد من أهم القنوات الغربية التى تعمل مع الإدارة الأمريكية بدأب شديد، من حيث خدمة الأهداف الغربية، وهى من الإمكانات والسعة بحيث يمكن، إذا تحدثنا عنها، أن نذكر أنها تضم قرابة ثلاثين قناة تنتشر على مساحات شاسعة فى الأرض الأمريكية.

الأكثر من هذا أنه كما ترتبط بالمعاهد البحثية الأمريكية (الأيديولوجية) كذلك فهى ترتبط مع المصالح الإمبريالية الأمريكية فى سعيها الدائم لتأكيد الدور الإيجابى فى غزو العراق وتأكيد للدور الإيجابى فى تأييد شارون وأهدافه فى الأرض العربية المحتلة..

وهو يلفتنا أكثر إلى هذه المراكز البحثية الكثيرة..

فالغرب يعمل جيدًا- ما زال - من خلال هذه المراكز البحثية الكثيرة التى تعمل بجانب الإدارة الأمريكية هناك، بما يزيد على الف باحث يمثلون نواة الاستشراق الجديد فى مراكز بحثية نعرف كيف تخرج منها الدراسات الضافية لتوجه فى خدمة الأهداف الإمبريالية، وهى مراكز بحثية زادت الآن فى الغرب خاصة، والغرب الأمريكى بوجه أخص، وهى تزخر بهؤلاء العلماء المتخصصين فى منطقتنا العربية والإسلامية، وترتبط بالبيت الأبيض وإداراته ودوائر المخابرات والبنتاجون والكونجرس بكثير من الروابط..

وإذا كان التاريخ القريب يسجل لنا هذه النماذج من صور الاستشراق التقليدى الذى عرفنا، والذى كان يمثل - فى شطر كبير منه- الخلفية الواجبة لتوطيد حركة الاستعمار، فضلاً عن الجانب التبشيرى منه، فإن ما يحدث اليوم، فى المراكز البحثية ومن تعاون وثيق مع الصحف وصناع القرار فى إدارة العم سام فضلا عن التضييق الشديد على الاصوات المنصفة فى الوسائل الإعلامية والمراكز الأكاديمية الأمريكية (وهو ما لاحظناه عقب رحيل إدوارد سعيد بوجه خاص).. تجعلنا نعجب من الفضائيات العربية التى تزيد - كما أشرنا - إلى مائتى قناة تحمل الكثير من وجهات النظر المتنافرة المتشاجرة فى زمن نحيا فيه أسوأ فترات تاريخنا العربى..

لا يكتفى الغرب بهذه المراكز البحثية النشطة، وإنما أضاف إليها الآن تلك الفضائيات التى تعمل جنبًا إلى جنب مع هذه المراكز لتعميق الدور الإمبريالى للغرب وتأكيده عبر صور «الاستشراق الجديد» النشط فى الغرب اليوم يحدث هذا كله، هنا.. فى حين أن جهدنا الفضائى وحتى الأرضى لا يريد أن يتنبه إلى المصير الذى يمكن أن نصل إليه فى حالة استمرار الحال كما هو عليه..

أليس كذلك؟

المركزية الثقافية

أولا :

مـا كدنا ننشير إلى قضية المركزية - مركزية العاصمة - وما قد يتبعها من تنشيط العاصمة وتهميش الأقاليم.. حتى توالت علينا رسائل كثيرة عبر حوارات عديدة بصوت عال عبر الأثير- الهاتف - أو الكلمة المكتوبة بالبريد العادى والبريد الإلكترونى-.. إلى غير ذلك من وسائل الاتصال، فقضية أن تكون المركزية - خاصة فى بلد كمصر - ترتبط بمركزية العاصمة التى كانت تأتى قبل سبعة آلاف عام من بيت الفرعون وما يتبعه من تهميش الأقاليم الأخرى البعيدة.. تظل قضية مهمة تحمل الكثير من حتمية التاريخ وواقع الجغرافيا..

إنها قضية الوجود الحضارى فى زمن جاوزتنا فيه الكثير من الأمم الأخرى بمسافات حضارية بعيدة..

إنها قضية المركزية التنويرية فى عصر العولمة، كانت القضية تتعلق بمركزية العاصمة الثقافية، وكان المثال يتحدد حول مجلة «تحديات ثقافية» للشاعر مهدى بندق، وهى مجلة تنطلق من الثغر.

ويلفت النظر هنا وقد ضربنا المثل بمجلة «تحديات ثقافية» التى تخرج من الشمال وتلقى - رغم إمكاناتها البسيطة - اهتمامًا كبيرا فى بقية الأطراف

يفسره كيف أن السلطة المركزية فى وزارة الثقافة تدعم المجلة، خاصة إذا تعلق الأمر بالجانب الأدبى منها، خاصة إذا تعلق الأمر بمركزية الوزارة....
وقد لاحظت أن أكثر التعليقات أو الردو د التى توالت لا تتجاهل تأثير مجلة «تحديات ثقافية» التى تنطلق من الثغر، لكنها تعبر منها إلى القضية المعلقة، عبر تساؤلات كثيرة تطرح كثيرًا:

- هل يمكن أن تكون المركزية الثقافية - بالفعل - وراء تميز مجلة واستمرارها؟

- ثم كيف يمكن أن تقوم هذه المركزية، فى هذه الحالة، بدورها الإيجابى؟

- ثم هل هذا يعنى أن تظل القاهرة هى المركزية فى حين تحتل الأقاليم دور الهامش البعيد وتكتفى به؟

- وهل يعنى هذا كله أن تظل للقاهرة قبضة الهيمنة على سواها من الأقاليم الأخرى؟

- وهل يعنى هذا كله أن مايقال على المجلة يقال على المؤسسات الثقافية والعمل الثقافى بشكل خاص فى بلد معروف بمركزيته الفاعلة الدالة بوجه خاص؟

كان أكثر المعلقين على هذا كله وزير الثقافة نفسه، ففى اتصال تليفونى معه راح فاروق حسنى يؤكد على أن هيمنة المركزية - التى تترجم هنا بوزارة الثقافة - لا تعدو أن تكون نوعًا من «الخدمات» الواجبة على وزارة الثقافة والتى تؤدى دورًا طبيعيا بغير أغراض أو أهداف، فكلما قامت وزارة الثقافة، بهذا الدور «الخدمى» الواعى فى المناخ الثقافى أدي دورا مأمولا ومنتظرا منها.. وزارة الثقافة تقوم هنا بالدور المنتظر وليس الملتبس بأهداف أخرى..

كما أنها لا تخضع (مع دورها المأمول) لأى ضغوط من أى نوع.. كما أن الوزارة - يضيف الوزير المبدع هنا-.. تقوم بما تقوم به بتقديم هذه «الخدمات» فى وقت لا بد فيه من التنبه فيه للنخبة المثقفة التى تقدم لها هذا الجهد، إن مصر زاخرة بالمثقفين الواعين، ومن ثم، فإن انصراف الوزارة إلى دورها فى هذا الصدد وبهذه الشروط، كفيل بتطور الدور الثقافى الذى لا يقف عند العاصمة لتكون المركز وتكتفى بالتأثير البعيد على الأقاليم التى تقوم بدور الأقاليم.

معنى هذا كله، أن المركزية الثقافية تنصرف من القاهرة إلى الإسكندرية إلى أى إقليم آخر لايقع جغرافيا فى إطار القاهرة أو فى فضائها البعيد بأية حال.

إن الذى تقوم به وزارة الثقافة هنا هو «دور» واجب، أو هو ما يكرره المسئول الأول عن الثقافة، «خدمات» واجبة وهو دور وهى خدمات تؤدى دورها المأمول منها، خاصة فى وجود هذه النخبة الواعية والنخبة لدينا فى طول البلاد وعرضها واعية إلى حد كبير.. وهو ما يدفع بوزارة الثقافة إلى التمنى أن يمتد دورها إلى أى إقليم يستحق ما تحصل عليه العاصمة..

وبرغم أن المركزية الثقافية ليست مرغوبًا فيها- يؤكد وزير الثقافة - فإن هذا الدور يمكن أن ينصرف إلى اقليم آخر يمكن أن تصل إليه «الخدمات» التى تقدمها فى الاساس وزارة الثقافة فى مجالها وعبر النخبة الواعية ووسط اوسع محيط شعبى يمكن ان يستلهم مايقدم له منه واليه.

إن لدينا نخبة من المبدعين الحقيقيين والمثقفين الواعين فى اقطار مصر كلها وما تسعى إليه المركزية هنا هو أنها تمد مظلتها إلى أى مكان فى مصر طالما توجد فيه النخبة الواعية التى يمكن أن تلعب دورها بعيدًا عن التعصب أو الشللية أو الانتهازية فى التعبير والتغيير.. إنها تمد مظلتها إلى الهامش البعيد كما- بالضبط- مركز الدائرة..

نقول، ونردد - يردد المسئول الأول عن الثقافة فى مصر الآن - نحن نحاول فى القاهرة القيام بدور مجيد لكننا نسعى ليكون أى إقليم آخر هو القاهرة ولا نكتفى بالمركز دون المراكز الأخرى التى لا تتحول إلى هوامش أبدًا طالما وصلنا اليها..

بدا وزير الثقافة ـ إذن ـ واعيا لدور المركزية الثقافية من حيث علاقة المركز بالأطراف، كما توارت فى تعبيراته الكثير مما يقال من هذه المركزية الثقافية التى يمكن أن تتحول إلى ثقافة السلطة، لم تكن القضية لديه ثقافة السلطة أو سلطة الثقافة بقدر ما كانت إمكانية الوصول إلى الأطراف البعيدة «بالخدمات» التى تلغى الحواجز بين العاصمة والهوامش فتصبح- فى حالة توافر الوصول إلى أى منطقة فى المحروسة - كلها منطقة ثقافة مركزية تمتد من أول البلاد إلى آخرها.

القضية إذن تحمل وعيا يرتبط بالمركزية الثقافية، من حيث انها تمتد إلى طول البلاد وعرضها، وتعتد بالنخبة الواعية التى تدرك أن المركزية هى العمل عبر العصر، حيث يجب تجديد «الخطاب» الثقافى مما شابه فإذا بنا نتعثر فى أفكار بالية وبعدد - وأن يكن قليلاً- من النخبة ممن تعمل فى إطار «الشلة» ـــ لا تزال ـــ وتحتكر العمل بانتهازية المثقف الذى ضل دوره فى هذا الزمن الصعب من تاريخنا العربى ولم تكن ردود الأفعال المتوالية لتبعد عن هذا المعنى فقد أشاد أكثر من مثقف بهذه المركزية الشاملة - إذا جاز التعبير-..
وكان من هؤلاء د. مجدى يوسف الذى راح يشير إلى ما أثاره المقال السابق، مما هو متعلق بصميم همومنا الثقافية والاجتماعية: مثل مسألة المركزية فى مصر من جانب - مركزية العاصمة بالنسبة للأقاليم- باعتبارها تابعة للتكوين الجغرافى الأقتصادى للمحروسة منذ قديم الأزل كما بين ذلك بانتفاضة الراحل جمال حمدان، مما يترتب عليه استئثار العاصمة بمعظم

الخدمات وترك الفتات للأقاليم. ففى العاصمة تتمركز الإدارة الحكومية والاستثمارات بأنواعها والأنشطة الثقافية إلخ، بينما لا تحظى الأقاليم إلا بنذر قليل منها وهو ما صار يقضي بدوره إلى هجرة العقول والقوى العاملة بوجه عام من للأقاليم إلى القاهرة والاتجاه إلى نفى المركزية فى مجال الثقافة والفكر من الجانب المقابل، تمهيدًا لتعديلها الذى نحلم به فى سائر مجالات الحياة والخدمات العامة.

ويلاحظ أستاذ الأدب المقارن أننا لمسنا فى السنوات الأخيرة - بالفعل - تحولاً جديرًا بالتسجيل فى هذا المجال الأخير تمثل فى الإستثمار الثقافى ليشمل العاصمة الثانية لمصر: الإسكندرية، بعد أن ظلت محرومة منه لفترة طويلة دامت منذ الخمسينيات حتى إقامة مكتبة الإسكندرية منذ أعوام قليلة خلت، وتنشيط مركز الإبداع فى الثغر بها دفع دماء الفكر والفن فى شرايينه.. وهو ما نتمنى أن يحدث فى بقية أرجاء مصر فبعد أن كانت «فلسفة» الثقافة الجماهيرية فى المرحلة الناصرية تنطوى على تصدير «الثقافة للأقاليم» صارت الإسكندرية منارة للثقافة والفكر المستنير فى المحروسة. ولعل من مظاهر هذا الزخم الفكرى الذى صارت تمتعنا به الإسكندرية مجلة «تحديات ثقافية» التى بها إسهامات فكرية طموح..

أليس هذا المعنى لمركزية العاصمة يظل هو التحدى الحقيقى لمقولة مركزية العاصمة، وهى التى سجلها جغرافيا حمدان ودعا إلى تجاوزها فى آن، ينتهى التعقيب ولا ينتهى ما يتركه فى الوجدان من ملاحظات مهمة فى هذا الصدد، إحداها أن مثل هذا الدور للمركزية الثقافية يمضى فى إطار مؤتمر الإسكندرية الذى عقد أخيرا خاصة فى «الوثيقة» التى صدرت فيه ومنها ضرورة إصلاح المؤسسات الثقافية وتفعيلها عن طريق دعمها ماليا ومعنويا، ثم ضرورة دعم العمل الثقافى على المستوى القومى.. إلى آخر الأولويات الثقافية التى أشارت إليها الوثيقة...

فالمركزية الثقافية - بوضوح شديد - تكون فى الوعى بما يجب أن تكون عليه إحدى أهم أدوات التنوير: المجلة فى عصر عولمة المعلومات وسيادة الصورة..

وهو وعى تصبح فيه العاصمة كالأقاليم فضاء واحدًا واعيا لخطورة العصر وضرورة الانتباه لمايحدث فيه فى بداية الألفية الثالثة..

هذه هى الملاحظة الأولى، أما الملاحظة الثانية فهى ما تقوم به الدولة ممثلة فى الوزارة بالفعل لإعطاء الأقاليم فرصة المشاركة فى صناعة السياسة الثقافية من خلال الأخذ بالتوصيات والدراسات التى يقوم بها المثقفون المعايشون للبيئات المجتمعية والثقافية هناك، ويعيها المثقفون المعايشون للبيئات المحورية المركزية الثقافية هنا فى العاصمة، خاصة، مع ما يسود الآن من التركيز على الإصلاح وتأكيد آليات التغيير فى دولة عصرية يجب أن تبقى قوية فى هذا الزمنى مع الأخذ فى الاعتبار عنايتها «المركزية الثقافية» بإحياء الإبداع بجميع أنواعه عن طريق نشره فى الأطراف من خلال إصدارات نالت الكثير من الاحترام لدى القراء على مستوى القطر المصرى خاصة والوطن العربى عامة.

وهى فى هذا كله تسعى إلى التواصل مع المثقفين فى الأطراف لإقامة علاقات فاعلة مع المركز العاصمة فى صورة أشكال تأخذ طابع الخدمية أولاً وأخيرًا بالدرجة الأولى.. فى بداية الألفية الثالثة.

أما الملاحظة الأخيرة فتتحدد بما يلفت النظر فى أن أكثر الردود والحوارات التى دارت تكرر فيها ما إرتبط شرطيا بتحويل المركزية الثقافية إلى مركزية إيجابية، هذا الإرتباط ارتبط بمفهوم الخدمات فقد لوحظ أن الوزير ردد أكثر من مرة أن دور وزارة الثقافة هو تقديم الخدمات لإحياء

الوعى الثقافى، وهو ما ردده أكثر من كاتب ومحاور وقارئ هنا بشكل أو بآخر من تأكيد أن الخدمات تظل هى المركزية الثقافية بالمعنى الإيجابى.

وفى رأينا، أن هذا ما نجحت فيه وزارة الثقافة إلى حد بعيد.

ثانيًا

كدنا نرجئ فلسفة المركزية الثقافية التى سجلنا لها هنا إلى مركزية أخرى، هى، مركزية الثقافة الفضائية لولا ما يتوالى علينا من ردود أفعال متباينة..

فما زالت أصداء القضية التى أثيرت على هذه الصفحة لأسبوعين تتوالى، وتتصاعد تداعياتها.. أعنى قضية مقرطة الثقافة وتوسيع المركز (العاصمة القاهرية) لتشمل الأطراف (الأقاليم)، وهى المهمة التى أخذها على عاتقه الوزير فاروق حسنى. ذلك الرجل الذى بنى فلسفته على مبدأ واحد، هو.. ألا يرضخ للموروث الإيكولوجى والذى أشار إليه جمال حمدان (القاهرة رأس كبير تحمله أطراف هزيلة) فكانت سياسة وزارته تسعى إلى تصحيح هذا الخلل تنمية تتسق مع الرأس الكبير، فتقويه ولا تضعفه.

تصحيح هذا الخلل بتنمية الأطراف تتسق مع الرأس الكبير، تقويه ولا تضعفه بأية حال، وما من شك أن صعوبات جمة قد واجهت هذه السياسة التحديثية، وعلى رأس هذه الصعوبات عملية التوازن الدقيق بين ثقافة السلطة وسلطة المثقف كما أطلق عليها البعض فى تقرير الوزير ـ وكما أشرنا فى العدد الماضى ـ من أن التناقض هنا وهمى، فثقافة الوزارة ليست سلطة بل خدمة، وأما سلطة المثقف فلا تفيد أبدًا، اللهم إلا فى مجتمع ذى فلسفة شمولية (لنذكر جدانوف فى عهد ستالين، على سبيل المثال) إنما المثقف فى المجتمع الحر لا يعنى الا بالتنوير وتحديث الأفكار والمفاهيم من خلال الحوار المتكافئ بين الكاتب والقارئ، بين صاحب القرار والمشاركين فيه من النخب والجماهير.

فى هذا السياق قلنا إن مجلة (تحديات ثقافية) برئاسة تحرير الشاعر مهدى بندق لم تنجح إلا لأنها تبنت هذا الخط الثقافى النبيل، وقلنا إن وزارة الثقافة لم تلتفت إليها بقوة إلا لأن الوزارة - بمختلف أجهزتها - مستعدة لدعم كل جهد يبذل فى الأطراف، شريطة أن يكون جهدًا مبذولاً لصالح الوطن فى مجمله وليس من أجل مصالح كلية محدودة بإقليمها الجغرافى المحدود.

فى هذا السياق وردت إلينا كذلك رسالة مهمة، كاتبها عالم اجتماعى وأنثروبولوجى ذو قدر كبير هو د. أحمد أبو زيد يحلل فيها أسباب نجاح واستمرار مجلة «تحديات ثقافية» حين توقف عند غيرها من المجلات الأدبية الراقية..

ولعلنا جميعًا نذكر مقالة للشاعر الكبير فاروق شوشة بالأهرام أيضًا يشرح فيها كيف أصدر مهدى بندق المجلة بجهد جديد وعلى حساب أوليات خاصة جدًّا فى حياته، لنعد إلى رسالة المفكر العربى الكبير ونقرأ:

أثار مقالكم عن مجلة تحديات ثقافية، وموقف وزارة الثقافة من المجلات الثقافية التى تصدر فى الأقاليم كثيرًا من كوامن الشجن لدى المهتمين بالوضع الثقافى فى مصر بعامة، وفى الأقاليم بخاصة، والدور الذى يمكن أن تقوم به هذه المجلات فى تنمية الوعى الثقافى وارتياد ميادين ثقافية، ربما يهتم بها الكتّاب والمفكرون والمبدعون فى العاصمة.

والواقع أن مدينة الإسكندرية شهدت خلال العقود القليلة الماضية ظهور عدد من المجلات الثقافية التى كانت تصدر بالجهود الذاتية والتمويل الخاص.. وهو بالضرورة تمويل محدود.. ورغم ارتفاع مستوى عمل المجلات مثل مجلة الكلمة ومجلة أمواج، فإنها لم تستطع الصمود أمام ارتفاع التكلفة والعجز عن التوزيع على نطاق واسع فعدم وجود مصادر تمويلية مساعدة مثل الإعلانات ولذا كان مصيرها الطبيعى هو التوقف..

ومن هنا نستطرد إلى ما يجب أن ننبه إليه وربما كانت مجلة «تحديات ثقافية» التى أشرتم إليها والتى يشرف على إصدارها مهدى بندق، تتميز عن كل المجلات السابقة بتنوع الموضوعات وارتياد مجالات الفكر الحديث والجمع بين الكتابات الإبداعية والمقالات الاكاديمية أو شبه الأكاديمية والأعمال الثقافية العامة ذات المستوى الرفيع، كما أنها لا تقتصر على النشر لأدباء ومفكرى وفنانى الإسكندرية وإنما يسهم فى الكتابة فيها أعلام بارزون فى مجال الفكر والثقافة من أمثال صلاح فضل وجابر عصفور والسيد يسين وإدوارد الخراط وفاروق شوشة ومحمود أمين العالم.. وغيرهم كثيرون من أصحاب الأقلام المحترمة والفكر العميق المستنير.

إلى جانب أصحاب الأقلام الشابة والواعدة من مثقفى الإسكندرية، مثل أشرف منصور أو الذين تجاوزوا سن الشباب ولكن لا تزال كتاباتهم تنبض بالحيوية الدافقة من أمثال فوزى الإخناوى ومنتصر القفاش والسيد الزيات وأحمد فضل شبلول ود. جلال شمس الدين وغيرهم كثيرون أيضا..

وهذه كلها أمور وعناصر تساعد على النجاح بغير شك، ومع ذلك فإن الذين يعرفون هذه المجلة والدور الذى تلعبه فى نشر الثقافة الرفيعة يتساءلون وأنا معهم فى إشفاق، عن مدى قدرة هذه المجلة الراقية على الصمود فى وجه التحديات الحالية الناجمة عن ارتفاع أسعار المواد الأساسية اللازمة لإصدار مجلة، وأعتقد أن من واجب وزارة الثقافة وعلى رأسها وزير فنان مثقف أن تعطى اهتمامًا خاصا لهذه المجلة، وفى مجال التمويل بالذات، حتى تواصل رسالتها الثقافية إلى جانب إصدارات الوزارة ذاتها ولا يجب أن ننسى فى هذا الصدد تلك الجهود الرائعة التى تقوم بها مكتبة الإسكندرية فى إيجاد وعى ثقافى عام يتجاوز حدود المدينة العريقة.

بل إن مكتبة الإسكندرية فى الآونة الأخيرة تقوم بدور رائد على المستوى العالمى لا يمكن إنكاره بأية حال، ومراقبة ما تقوم به من نشاط يعيدنا إلى هذا الجهد الكبير الذى تتعدى به المركزية العاصمة إلى الثغر كمثال لتجاوز الرأس الكبير إلى بقية الأطراف البعيدة..

د. أحمد أبوزيد

وتنتهى رسالة الكاتب الكبير، ولا تنتهى معها حيرة المثقف والقارئ العربى.

فإذا كان وزير الثقافة حاول تأكيد «مركزية الثقافة» بالمعنى الذى يمتد فيه التأثير من المركز إلى الأقطاب البعيدة وإذا كانت «الخدمات» هى ديدن الوزير ووعيه.. فإن مجلة واحدة يتعدد لها مثل هذا النجاح لا تكفى لتوزيع ثقافة النخبة إلى الجماهير على مدى بعيد.

ومن ثم، فمن اللازم التأكيد على ضرورة الوقوف وراء إصدارات أخرى، تمثل«تحديات ثقافية» أخرى للواقع وترديدات متوالية أخرى لما يجب أن يكون عليه الوطن فى هذه الفترة الصعبة من تاريخنا.

لا يجب أن نتشوق إلى إصدار ناجح واحد وحسب وإنما نتشوف إلى ما وراءه فيما يجب أن تكون عليه الحياة الثقافية بالمعنى الذى نشير إليه حين نقول مركزية ثقافية..

إنها المركزية الثقافية التى يجب أن تنبه معها إلى أن ثمة رأسًا واحدًا لا يكفى لصحة الجسد وتماسك الأطراف، خاصة وقد وراحت كثير من الأصوات تحيى وزارة الثقافة، وفى الوقت نفسه نوعده مع كثير من الرسائل التى تتوالى علينا إلى تبنى التحديات التى تعرض علينا والتوصية بها إلى ما يجب أن (يكون) إلى ما هو «كائن» بالفعل.

إنه الدور المنتظر من الوعى بهذه المركزية والحث عليها، وهو الدور الذى ننتظره دائما فى عصر الإصلاح الذى يدعو إليه البعض متأخرًا من مراكش إلى بنجلاديش.

دور يدعو إليه البعض خلال الحرة وأخواتها المرئى والمقروء وندعو إليه نحن من خلال تحديات ثقافية على نفس المستوى المرئى والمقروء»..

ندعو إليه نحن من القلب إلى الأطراف البعيدة قبل أن تتجمد الأطراف ويتيبس الجسد كله..

ندعو إليه قبل أن نصل إلى مركزية أخرى، ثقافية فضائية نسعى إلى أن تجاوز هذه المركزية إلى بقية الأقطار العربية.

وهو ما نلتقى به المرة القادمة.

المركزية الثقافية والفضائيات

ثالثًا

نعود نعرض لمرة أخرى للمركزية الثقافية ودورها الحيوى عبر وزارة الثقافة، لولا أن فرضت علينا مركزية أخرى، هى، مركزية الثقافة المصرية عبر الفضاء فى المنطقة العربية، خاصة وقد أقمنا للفضائيات العربية ندوة، وشغلنا بحوارات كثيرة قبل الندوة وبعدها..

فضلاً عن أن الفضائيات العربية تلعب الآن دورا لم يتحدد اتجاهه بالقدر الكافى، كما لم يتجدد «الخطاب» العربى الواحد فيه إزاء ما نتعرض له جميعًا.

والآن، لنعبر إلى ثقافة الصورة قبل أن نعاود الرجوع ثانية إلى غيرها، مما يثيرها من قصور الفضائيات العربية على كثرتها فى الوعى العربى المتماسك.. خاصة وأن الفضائيات العربية التى تحمل «خطابا» عربيا واحدًا واعيا تفتقد،

اللهم فى بعض القنوات التى تحمل هوية عربية بالرمز وليس بالواقع العربى فى عصر التكتلات الغربية التى تتخذ منَّا موقفًا موحدًا فى وقت ما زالت الرؤية عندنا تصل إلى مائتى رؤية (أليس لدينا قرابة 200 قناة فضائية)..

ولنعد إلى الأسئلة المحورية:

أين المركزية الفضائية الآن ؟

وبشكل آخر:

أين المركزية الفضائية المصرية؟

وبشكل أكثر وضوحًا:

أين المركزية الثقافية فى الفضائيات التى تصدر من مصر، والتى يمكن أن تلعب الدور الذى كانت تلعبه مصر فى سالف الدهر والأوان؟

الأكثر من هذا، يمكن أن نطرح السؤال المحورى هنا، فنستبدل بدور مركزية الثقافة المصرية دور مركزية الثقافة العربية..؟

أين مركزية الثقافية العربية فى مصر - كما كانت ؟

نسأل عن مركزية الثقافة العربية - كما يجب أن تكون - الآن فى عصر الفضائيات العربية أو الناطقة بلسان عربى فصيحفى هذه المنطقة من العالم أسئلة كثيرة طرحت علينا الحقبة الماضية، وما زالت تطرح علينا إبان مذابح غزة والأرض المحتلة ومسالخ الفلوجة والنجف وكربلاء وصولا إلى حصول بعض أنشط رجال الأعمال عندنا على ترخيص أو أكثر لبث قناة تليفزيونية فى أرض قناة الـ «نهرين»..

أين المركزية الفضائية، العربية؟

وتتكاثر الأسئلة فى هذه الفترة الصعبة من تاريخنا..

وتتراكم الأسئلة الحيرى ونحن لا نفتقد من زمن بعيد العديد من الأصوات الحائرة - حتى لا نقول الحاقدة - التى تصدر من أنحاء «الوطن الأكبر»، وهى تنكر على مصر دور الريادة التى كانت، بل طالعتنا بعض الصحف فى الأيام الماضية، وهى تتحدث باستنكار عن دور مصر الثقافى الذى كان سائدًا، أو الذى أضحى - كالسراب - شبه سائد، وهى كلها أصوات تنكر - ولا تعجب - الدور المركزى لمصر العربية، والإنكار هنا رديف الرفض والإمعان فيه.. أو قل رديف الافتراق فى زمن يجب أن يحل فيه الاتفاق إزاء ما تتعرض له المنطقة اليوم..

من السهل أن نتحدث عن أن مصر دولة مركزية، والمركزية الثقافية - التى كنا نتباهى بها دائما- مازالت قائمة، غير أنه من الصعب أن نتحدث عن مركزية ثقافية فى مصر فى عصر السماوات المفتوحة، وحيث زادت القنوات الفضائية لدينا الآن لتقترب من مائتى قناة. تتناثر فى الأرض العربية سواء من ألأرض العربية من قطر كالجزيرة - على سبيل المثال - أو أرض غير عربية - كالحرة..

وقد لاحظت على المستوى الشخصى فى ندوة «الإعلام.. والفضائيات العربية» أخيرا أن عددًا كبيرًا كان حاضرًا، وإن عددًا كبيرًا كان مشاركًا فى الحوار، وأن عددا كبيرًا لم يتفق - فى حواره وجدله المستمر - على أن لدينا قناة أو قنوات فضائية عربية خالصة يمكن أن تقدم لنا (خطابًا) عربيا خالصًا، يمثل أحد تحديات الواقع الردىء الذى يحاصرنا من كل جانب..

وكما يقال عن عدم وجود فضائية عربية (عربية) فى التوجهات، كذلك، اعترض البعض على بعض ما قيل إن لدينا قنوات متخصصة، فقد عقبت لينا كيلانى (وهى كاتبة سورية) على من قال بتخصص بعض القنوات قائلة:

فليست لدينا قنوات عربية فضائية أو «أرضية متخصصة!!..». ليست لدينا فضائيات عربية متخصصة ذات هوية واضحة أو مصداقية، فالفضائيات العربية أغلبها متداخلة البرامج والطروحات ومتناقضة الأفكار بل كثيرًا ما كنت أردد من آن لآخر أمام الجميع عنوان الندوة.. «الفضائيات العربية»، فنحن نتحدث عن فضائيات ذات هوية واحدة وليست هويات متعددة، وأدعو الجميع لنتذكر هذا ونعود إلى «الوعى الممكن» للفضائيات العربية..

فإلى جانب غياب الفضائية العربية الخالصة، التى لها اتجاه عربى أو عروبى بحكم الحتمية المفزعة التى نلتقى بها جماعات وفرادى، لم نعثر على فضائية مركزية يمكن أن تخاطب هؤلاء القاطنين فى هذه المنطقة العربية التى أطلق عليها الشرق الأوسط أو الشرق الأوسط الأكبر، وإنما هى قنوات متباينة، وما يمكن أن يلفت إلى خطاب هذه القناة أو تلك الضجة العنيفة التى تقوم بها دون هوية عربية واضحة أو مصداقية كما نريد نحن سكان هذه المنطقة.

الأكثر من هذا أن كل قناة فضائية لها توجهات معينة تذهب بها إلى هذا أو ذاك، دون التنبه إلى الحد الأقصى للهدف الذى يجب أن نتفق عليه نحن ساكنى هذه المنطقة، التى جاءت فى مشروع الشرق الأوسط الأكبر من مراكش إلى بنجلاديش..

رحت أصغى وأنا أردد بينى وبين نفسى: وهل هناك حقًّا تخطيط «عربى» أو رؤية عربية لما يحدث لنا أو حولنا فى هذه الفضائيات؟

وحين وجهت الانتقادات لبعض المسئولين فى القاعة ارتفع صوت إبراهيم العقباوى الأمين العام لاتحاد الإذاعة والتليفزيون المصرى، ونحن نؤثر أن نعيد وجهة نظره لأنه أصر عليها معلقًا على كل هذه القنوات.

- ليس هناك عمل فى الدنيا يمكن أن يقوم على عدم تخطيط أو بدون دراسة.. فنحن نحدد خطة لكل قناة ولدينا بحوث سنوية داخل مصر والمنطقة العربية وآخر بحث قمنا به شمل مصر والسعودية والإمارات وتونس، وبالتالى كنا نتعرف على احتياجات الجمهور المستهدف ورأيه فى هذه المناطق...

وعاد صوت إبراهيم العقباوى ليعلن بيننا أن هناك تعاونًا بين الإعلام المصرى والإعلام العربى، وحين أحيط بأسئلة كثيرة من نوع القضايا السياسية بل والشباب راحت د. عواطف عبد الرحمن تعيد السؤال المحورى حول مركزية الثقافة:

-.. ولكن أين الثقافة، أين التعاون فى مجال الثقافة العربية.. ؟ أين.. ؟

عاد صوت الأستاذ العقباوى ليقول إنه:

سيتم التعاون فى هذا المجال بناء على الاجتماع المشترك بين وزراء الإعلام ووزراء الثقافة فى يونيو القادم لبحث الموضوعات..

وكان على أن أسأل سؤالاً حائرًا لم أجد إجابة عنه: هل الجامعة العربية تقوم بدورها حقًا فى رسم إستراتيجية موحدة.. ؟

- وهل يقوم الإعلاميون من الشباب العربى والمصرى بوجه خاص بالتعاون مع «الميديا» العربية بتنويعاتها المختلفة ـ التلفاز والإنترنت.. وما يستجد من ثورات جديدة؟

- وما هو دور الإعلام المصرى - فى إطار رؤية عربية - فى الرد على العنف التكنولوجي والفضائى المغاير لنا القادم من الغرب؟

- ثم - وفى نفس الإطار- أين هو هذا الدور العربى فى الرد على عنف الصورة الذى نلاحظه فى السنوات الأخيرة، والقادم من مناطق عربية أثيرة على قلوبنا جميعًا ؟

وفى هذا المجال لا بد وأن نضيف:

وهل عولمة الإعلام المصرى تكفى على ما هى عليه الآن لتأكيد مركزية عربية قائمة على الوعى أى المصير الواحد المشترك؟

نقول هذا وفى وعينا أن مسابقة «الروبكون» التى تقام للعام الثالث على التوالى تحت رعاية الاتحاد المصرى قد أحدثت وروجت لثقافة المعلوماتية الجديدة والصمود فى الحرب الإلكترونية خاصة تلك التى يحارب بها الإسرائيليون «خلال الروبوتات» الإنسان والمواطن الفلسطينى؟

كان علينا ألا ننتظر الإجابة أمام هذا الحشد الهائل للفضائيات العربية. لم أنتظر الإجابة، فإن عدد الفضائيات العربية التى تصل إلى مائتين ليست لها حتى الآن - خلال جامعة أو قمة أو منظمة أو خوف من المستقبل - «استراتيجية» موحدة، أو شبه إستراتيجية موحدة، ودعونا لا نذكر هوية هذه القنوات التى تزرع فى مناطق معينة يتحدد لها أهداف معينة.. ودعونا ننتظر إجابة واحدة لتساؤلات عديدة..

لم يتردد أحد فى التأكيد على غياب المركزية العربية خاصة المركزية الثقافية، بل إن نجيب ساويرس، أحد أهم رجال الأعمال، أبدى ارتياحه بالحصول على ترخيص لبث قناة بالعراق، وهو يؤكد على غياب هذه القنوات الفضائية العربية التى يمكن أن تلعب دورًا إيجابيا فى الواقع العربى، وأن راح يؤكد بأنه يمكن أن نلعب هذا الدور العربى فى زمن العراق الذى يتغير يومًا بعد يوم، والذى تتحالف فيه وضده القوى «الحرة» مع أهداف العم سام فى عراق ينتمى إلى عهد النيوليبرالية الجديد.

والواقع أننا يمكن أن نجد فى قناة «نهرين» وعيا يسهم فى اندفاع تيارات تغذى الوعى القومى العربى فى غيبة المركزية الثقافية العربية، وبعيدًا عما تثيره هذه القناة الآن، فإن رأينا الشخصى يمكن أن يندرج فى خانة أن قناة

من مصر، مهما يكن الواقع الذى تعمل فيه والتحديات التى تواجهها، والملابسات التى تتعرض لها.. يمكن أن تلعب دورًا إيجابيا، خاصة، أن الفضائيات العالمية (والشركات متعددة الجنسيات) تسعى للاستيلاء على مقدراتنا الوطنية فى غيبة رأسمالية عربية متعاونة فى الحد الأدنى للتعامل مع القوى الجديدة الرأسمالية البازغة مع عصر «العولمة» وأصحابه الجدد..

وبعيدًا عن الخلافات والاختلافات حول هذه القناة، فمن المهم أن نترك الفرصة لها لتعمل، بالشكل الذى حدده صاحب «نهرين» فى هذه الندوة وخارجها..

وبعد، فما زالت الفضائيات العربية تلعب دورًا كبيرًا حتى الآن فى كثير من الأحداث، وفى إعادة تشابك الظاهرة، وفوق هذا وذاك.. فى غيبة تعاون عربى خلاق يلقى فى تيار التنبه إلى ما يحدث حولنا والعمل معًا.

الهوية الأمريكية.. والمستشرقون الجدد!

أولاً

ربما كان أكثر الدوافع إلى كتابة هذه السطور هنا هو التأمل فى كتاب هنتنجتون الجديد، من نحن؟ تحديات الهوية الوطنية الأمريكية، وهو كتاب يشير إلى توجهه المشبوه فى كتابه السابق (صدام الحضارات) توجهًا مضاعفًا يؤكد ما قصد إليه من قبل، وهو توجه أريد به تأكيد خطاب بعينه لإيجاد عدو جديد بعد سقوط العدو السابق (الاتحاد السوفيتى) مع سور برلين فى نهايات القرن الماضى.. فهو يحاول أن يؤكد فى كتابه الأخير أن العداء للإسلام والحضارة الإسلامية قد يساعد بشكل كبير فى تحقيق التفاف الأمريكيين المنشود حول هويتهم الوطنية فى المستقبل المنظور، وهو ما يريد أن يؤكده بشكل غير مباشر إن سقوط العدو السابق إنما استبدل به عدو جديد هو الإسلام (الإرهاب) كما تردد الأدبيات الأمريكية فى مراكز الأبحاث علاوة على مريدى الادارة الأمريكية والعاملين فيها من العلماء والكتّاب، ممن يمكن أن نطلق عليهم (المستشرقين الجدد) أو أولئك «الخبراء» الذين راحوا يستبدلون بوجه المستشرق التقليدى المعروف بوجه (الخبير) الواضح الواقع فى دائرة «الإستراتيجية» الأمريكية برضاه، بل والعامل بجد ودأب من أجل تحقيق هذه الإستراتيجية التى أعلن عنها بالفعل دون مواربة من قبل.

لا شك أن كاتب هذه السطور عمد إلى استخدام مصطلح «المتشرقين الجدد» على اعتبار أنه مرادفًا وتفسيرا لمصطلح آخر ذكرناه لأكثر من مرة من قبل هو «الاستشراق الجديد» فبينما عمد التعريف الأول إلى سمة الجمع فى الدلالة، عمد الآخر فى استبدال بتعريفًا أو بعنوانًا آخر يشير إلى الدلالة العامة أكثر من الوصف الجمعى.. وفى حين آثرنا أن نذكر تعريف «المستشرقين الجدد» ليكون على وزن «اليمينيين الجدد» وهى النخبة التى تلعب عبر فئاتها فى شكل مراكز الأبحاث دورًا شوفونيًّا استعماريا حيويا فى تحريك خيوط الإستراتيجية (الإمبريالية) لدى العم سام (وهو ما خصصنا له كتابًا نشر بعنوان "المستشرقون الجدد، دراسة فى المراكز البحثية الغربية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 2007).

ومع ذلك أو رغم ذلك، فقد آثرنا أن نعود إلى التعريف الأخير (الاستشراق الجديد) ليكون أكثر شمولاً وأكثر دقة فى التعبير عما يحدث الآن فى التأكيد على تطبيق هذه الاستشراقية، إذا كان ولا بد أن نشير إلى أن هناك ـ ما زالت ـ دراسات استشراقية تسعى إلى معرفة الآخر.. وفى الوقت الذى لا نرى فيه مثل هذا المعنى (الاستشراق الجديد)، فإن المعنى السابق يمكن أن يكون أكثر شمولاً فى التعريف بكل المبادرات والمشروعات التى تقدمها الولايات المتحدة الأمريكية، بدءًا من الأشهر الأولى التى أعقبت اعتداء (هكذا يسمونه) 11 سبتمبر وصولاً إلى اجتماعات سى إيلاند بجورجيا لتأكيد المشروع الأخير (الشرق الأوسط الأكبر والأوسع وصولاً إلى غيره حتى اليوم..).

وعلى هذا النحو، سوف تكون الإشارة إلى كتاب هنتنجتون الأخير فى السياق نفسه وتأكيدًا له، وهو ما نحاول أن نفسره أكثر فى هذه السطور عبر إعادة عرض هذا الكتاب الذى صدر أخيرًا لواحد من أئمة الاستشراق الجديد الذين عرفوا فى التسعينيات من أمثال فوكوياما وغيره.

ومنذ البداية يمكن أن نشير إلى بعض ما جاء فى الكتاب من هذه السيناريوهات الأربعة التى حددهم لمستقبل الهوية الأمريكية، تمهيدًا للحديث عن الخطر الجديد الذى يهدد هذه الهوية.

فإنه يرى أن التحديات السابقة يمكن أن تؤدى إلى واحد من تبعات أربعة سلبية وخطيرة على الهوية الأمريكية فى المستقبل.

إنه يرى الخطر يأتى بوضوح شديد من العقيدة الإسلامية.

إن مستقبل الهوية الامريكية يهدد بالإسلام (الإرهاب) بما يعجب منه المرء.

ويتساءل المرء قبل الاستمرار فى التعرف على «خطاب» الخبير الجديد فى الإستراتيجية الأمريكية النشيطة، كيف..؟

وفى مقابل هذه التهديدات والسيناريوهات يطرح هنتينجتون رؤية بديلة لإعادة بناء الهوية الأمريكية، تقوم على استشراف بعض التغيرات الجذرية الايجابية الطارئة على المجتمع الأمريكى فى الفترة الأخيرة، والتى من شأن تأكيدها عودة الروح للهوية الوطنية الأمريكية.

ماذا يعنى الخبير الجديد،؟ إنه يرصد هنا تحولات تلقى - فى السياق الأخير - فى تيار الإرهاب = (الإسلام). وعبورًا فوق تفسيرات تؤكد دور النخبة فى المراكز البحثية الأمريكية وخطرها الذى سنصل اليه المرة القادمة، فإنه يرى هنا أن هناك عودة عامة للدين فى أمريكا انعكست على الروايات الأمريكية وظهرت فى الشركات والمؤسسات الاقتصادية، كما أثرت على الحياة السياسية، مشيرًا إلى الحضور الكبير للقضايا الدينية والمتدينين فى إدارة الرئيس الأمريكى الحالى جورج دبليو بوش.

ويبشر هنتنجتون بأن العودة للمسيحية ـ والتى تعد إحدى الركائز

الأساسية للهوية الأمريكية ـ تمثل عاملاً مهمًا فى دعم الهوية الأمريكية ونشرها خلال الفترة الراهنة.

ومع أن هذا العامل الأخير لا يهمنا كثيرًا ولا نريد الاقتراب من مناقشاته ـ فإن العالم الآخر، الذى يعرض إليه بمواربة فاضحة تعود لتؤكد حضور هذا العدو الجديد، العدو الذى يتمثل فى الإسلام كما يبلور ويقدم بذكاء وتكثيف شديدين فى الإعلام الأمريكى خاصة أن الصحوة الدينية ـ وفقا لتحليل هنتجتون ـ تصب مباشرة فى الدور المساعد الذى يمكن أن يلعبه الدين على الساحة الدولية، خاصة فى تعريف عدو أمريكا الجديد وهو الدين الإسلامى.

إن هنتنجتون يرى أن عداء بن لادن لأمريكا هو عداء دينى.

وأن الأمريكيين لا يرون الإسلام على أنه عدو لهم ولكن الإسلاميين المسلحين، المتدينين منهم والعلمانيين، يرون أمريكا وشعبها ودينها وحضارتها كأعداء للإسلام.

وهو يصل من هذا التركيب اللفظى واللغوى إلى نتيجة مؤداها أن البديل الوحيد للأمريكيين هو أن ينظروا لهؤلاء الإسلاميين المسلحين بأسلوب متشابه.

فما هذا الأسلوب؟

إنه ـ يؤكد ـ فى وصف نفوذ الإسلاميين المسلحين، ويقول إنهم كوَّنوا شبكة دولية لها خلايا عبر العالم وأنهم يدخلون الانتخابات فى بعض الدول ويسعون لتجنيد مسلمى الغرب ويتخذون المساجد كقواعد وغطاء لهم.

إن الإسلاميين المسلحين ـ يضيف صاحب صدام الحضارات ـ يختلفون عن السوفيت فى أنه لا توجد دولة واحدة تضمهم، كما أنهم لا يسعون لتقديم بديل سياسى واقتصادى عالمى للغرب كما فعل السوفيت، وذلك لأن هدفهم الأساسى هو تدمير الغرب.

هل نعيد قراءة العبارة الأخيرة؟

هل الإسلام الحقيقى ـ وليس المفتعل فى المراكز البحثية الخاصة ـ هو الذى يسعى لتدمير الغرب والغرب الأمريكى خاصة؟

ولا يلبث هنتنجتون فى توسيع تعريفه للعدو الإسلامى أكثر فأكثر حين يقول فى وضوح أكثر:

ـ إن المسلمين دخلوا فى العقود الأخيرة حروبًا طالت البروتستانت والكاثوليك ومسلمين آخرين وهندوسًا ويهودًا وبوذيين وصينيين.

ـ وإن المسلمين حاربوا فى كوسوفا والبوسنة والشيشان وكشمير وفلسطين والفلبين.

ـ وإن مشاعر المسلمين السلبية تجاه أمريكا زادت فى التسعينيات.

ـ وإن الشعوب الإسلامية لم تتعاطف مع الأمريكيين بعد الحادى عشر من سبتمبر.

ـ وإن عداوة الشعوب الاسلامية لأمريكا عميقة وليست بسبب إسرائيل فهى مدفونة فى الحقد على الثروة الأمريكية والسيطرة الأمريكية والعداء للثقافة الأمريكية فى شقيها العلمانى والدينى.

ـ وإن ـ وهو يقترب من تأكيد فكرته وبلورتها ـ هذا التحليل يصل إلى توقع دخول أمريكا حروبا مع دول وجماعات مسلمة فى السنوات القادمة، مما يرشح الإسلام بشكل واضح ليلعب دور العدو الأساسى والكبير الذى يوحد الأمريكيين ضده.

إن الاستنتاج الأخير يصل إليه بشكل شخصى.

وهو يؤكده من آن لآخر بشكل سريع أو متأن مما يقترب به من العقل الغربى خاصة والأمريكى بوجه أخص هل هذا معقول؟

إننا لا نملك من الوصول بطريقتنا إلى طريق واحد يجمع بين ما يريد هنتنجتون تأكيده سواء فى كتابه فى نهاية الثمانينيات ـ بمقالاته الأولى ـ أو

كتاباته فى النصف الأول من عقد القرن الواحد والعشرين بهذا الكتاب الذى بين أيدينا مرورًا بالكتاب (الأم) وهو صدام (وليس «صراع» كما ترجم خطأ) الحضارات، هذا الكتاب يريد أن يؤكد به - عبر تحليلات واضحة وغائمة - على أن العدو الجديد هو الإسلام، وأن اسمه الحقيقى ليس فى العقيدة وإنما فى الصفة التى يجب أن يعد لها كل الأعداء وأن يمضى المواطن الغربى فى طريقه للنيل منها، فهو يستبدل بالعقيدة «الإرهاب» أو يصرح بهما على أنهما معنى واحد لأكثر من مرادف وتعريف.

أليس هذا الخطر هو ما يهدد الآن هوية المواطن الأمريكى التى هى أساس حياته أو بقائه؟!

أليس الإسلام هو أحد المصادر، بل المصدر الوحيد الذى يمثل أهم تحديات الحضارة الغربية بشكل عام وحياة المواطن الغربى (الأمريكى) هنا بشكل خاص؟!!

إنه رمز آخر من رموز الاستشراق الجديد، أو المستشرقين الجدد الذين يمضمون الآن فى سياق المحافظين الجدد..

وهل هناك فارق بين المستشرقين الجدد والمحافظين الجدد ؟

نسأل ونحن نعى دلالة المصطلحات وحركة التاريخ و(إستراتيجية) الغرب الأمريكى بعد الغرب الأوروبى..

الهوية الأمريكية.. والمستشرقون الجدد.

ثانيًا

كدنا نعود ثانية إلى كتاب هنتنجتون عن الهوية الأمريكية فى سياق المستشرقين الجدد، لولا أن فرض علينا الواقع التمهل أكثر عند هذا الكتاب وعند هذا الخطاب لهنتنجتون...

وها نحن نعود مسرعين إلى كتاب هنتجنون، الذى تنبه إليه الكثيرون أخيرًا ومن أهمهم الكاتب علاء بيومى (مدير الشئون العربية بـ كير)، والذى استفدنا كثيرًا بعرضه لكتاب المؤلف الأمريكى، (وقد أشار إليه فى مؤسسة كير، التى لا بد من العود لنشاطها الحيوى الهادف فضلاً عن وموقعها المتميز لما تحتويه.

وهو جهد لا بد من الإشارة إليه، فضلاً عن الإشادة به، فى هذا السياق.

بعد الاعتراف بواجب الشكرو حق السبق للتعريف بكتاب هنتنجتون الأخير لصاحب كير، لا بد من العود إلى أحد المستشرقين الجدد وأهمهم وهو صموئيل هنتنجتون، الذى تلعب كتاباته منذ التسعينيات دورًا مهمًا مع هذه الفئة أو النخبة، التى تشكل مراكز البحوث الأمريكية Thinktanks، وهى مراكز لا بد من إعادة التنبه إليها فى هذا السياق لأهميتها، فهى تمضى فى الفترة الأخيرة ضمن سياق واحد ولها دور واحد فى صناعة «الاستراتيجية» الأمريكية، من أهم رموزها فى الفترة الأخيرة.. كما لاحظ دونالد ايلسون حيث يلجأ إليها صانعو القرارات ومشرعو الكونجرس والإدارة الأمريكية، من أجل الحصول على ما يؤكد خططهم فى سياق ما بعد11 سبتمبر، حيث أدت عسكرة العولمة إلى واقع جديد لا بد من التعامل معه بوعى يؤكده هذا الخبير، الذى يحرص وتحرص معه المؤسسة السياسية على أن يكون أكثر انخراطًا فى منظومة النخبة التى توجه السياسة ولا بأس أن يكون بعضهم فى منصب رسمى فى الوزارة أو الفيدرالية.. إلى غير ذلك.

وقد كان هنتنجتون أحد أولئك المستشرقين الجدد من أمثال فوكوياما، ومارتن إنديك، وبايس، وكرايمر وغيرهم، وهم يؤكدون التحديات التى تواجه الهوية الأمريكية والتنبه إلى الخطر الأرهابى ويؤكدونه الآن، ولا

يكفون عن ترديد ثلاثية مستعادة: مواجهة الإرهاب، ونزع أسلحة الدمار الشامل، ثم تغيير التنظيمات السياسية ومن أهمها الديموقراطية.

والإرهاب هنا يظل أهم عناصر منظومة العم سام الذى لا يكف عن رد الفعل باسمها.

أن هذا الإرهاب هنا يأتى من الشرق، وأن الحفاظ على الهوية الأمريكية من ارهاب الشرق الإسلامى خاصة، يكون بتأكيد سيناريو السيطرة على الهويات الأخرى، وفى مقدمتها الهوية الاسلامية وباستبدال تلك الهوية وهو ما يمكن أن نجده الآن منتشرا فى الإعلام الغربى ضد هذا «الإرهاب»..

وعلى هذا النحو، سوف يكون علينا الإشارة إلى كتاب هنتجنتون الأخير فى نفس السياق نفسه وتأكيدا له، وأكثر ما يلاحظ هنا أنه فى كتابه السابق (صدام الحضارات) راح يلخص أسباب حروب المسلمين (لاحظ تسمية حروب المسلمين) المباشرة فى أربعة أسباب، ثم راح يعيد إنتاجهم فى كتابه الجديد عن تحديات الهوية الأمريكية (لاحظ أيضًا تسمية: تحديات).

وهو لا بد معه من مرجعية تعيد لنا اختلاق الخطر الذى يحيق بالهوية الأمريكية، واختلاط العناصر التى تؤدى كلها ـ لدى عناصر أولئك المستشرقين الجدد ـ إلى الاستجابة للتحديات الأمريكية بالخروج إلى مناطق الإرهاب والتعامل معها..

إن هنتجتون راح يؤكد فى كتابه السابق (صدام الحضارات) أن مما يجب التنبه إليه فى الغرب، أربعة أسباب وراء الموقف العربى الإسلامى، وهى بالترتيب.

- انبعاث الوعى الإسلامى فى العقود الأخيرة كرد فعل تجاه التحضر والتحديث الغربى.

- وجود إحساس قوى مشترك من الحسد والعدوانية تجاه الغرب وثروته وقوته وثقافته من العالم الإسلامى.

ـ الارهاب الإسلامى يعود إلى الانقسامات القبلية والدينية والعرقية والسياسية والثقافية داخل العالم الإسلامى التى تثير العنف بين المسلمين، كما تعزز هذه الانقسامات العنف بين المسلمين وغير المسلمين.

ـ تصادف الانبعاث الإسلامى مع معدلات ولادة مرتفعة فى معظم الدول الاسلامية، وهو ما أدى إلى زيادة حجم وعدد شريحة الشباب الذين يهاجرون للغرب وينضمون إلى منظمات وشبكات إرهابية!! (تظل علامات التعجب من عندنا).

وعلى هذا النحو، راح يبرر هذا الصدام الذى سينتهى بالصدام مع هذا الإرهاب الإسلامى الذى يجب التنبه إليه..

وإذا كان الصدام يؤدى ـ عنده ـ إلى هذه النتيجة التى لم يكف عنها منذ سقوط سور برلين 1989 بمقالته المشهورة ثم كتابه الملحوظ حولصدام الحضارات، والتى راح يحث بها على هذه «الضربة الاستباقية» التى حدثت ـ بالفعل ـ وما زالت تحدث.. فإنه راح فى كتابه الأخير يجسد «تحديات الهوية الأمريكية» بالنحو الذى كان يعد، له كما رصد أن هتنجتون، كما لاحظ الكاتب علاء بيومى، يرى أن هذه التحديات التى تصبح يواجهها العالم الغربى، الآن ترصد على النحو التالى:

ـ فقدان الهوية الأمريكية وتحول أمريكا إلى مجتمع متعدد الثقافات والأديان، مع الحفاظ على القيم السياسية الأساسية، وهذا السيناريو يفضله كثير من الليبراليين الأمريكيين ولكنه سيناريو مثالى يصعب تحقيقه.

ـ تحول أمريكا إلى بلد ثنائى الهوية إنجليزى ـ إسبانى بفعل زيادة أعداد ونفوذ الهجرات اللاتينية الأمريكية.

ـ ثورة الأمريكيين البيض لقمع الهويات الأخرى.

ويرى هنتنجتون أن هذا السيناريو هو احتمال قائم ويدرس إمكانات وقوعه ودوافعه بالتفصيل خلال الفصل قبل الأخير من كتابه.

ـ إعادة تأكيد الهوية الأمريكية من قبل الجميع والنظر لأمريكا كبلد مسيحى يعيش به أقليات أخرى تتبع القيم الأنجلو ـ بروتستانتية، والتراث الأوروبى والعقيدة السياسية الأمريكية كأساس لوحدة جميع الأمريكيين.

وعلى هذا النحو، فإنه يقدم محددات يقصد بها التنبيه إلى الخطر الآتى من الشرق، تحفيزًا على درس امكانات مواجهة هذا الخطر، منتهيا إلى أن تحديات الهوية الأمريكية إنما تكون بالتنبه لهذا الإرهاب الآتى، والذى يجب التواصل مع قاعدة التصدى له بالعنف.

إن نظرة خاطفة على مراكز الفكر الغربى الذى تلعب ـ عبر خبرائها ـ هذا الدور، سوف نلاحظ أن أهم هذه المراكز على الإطلاق هو مركز أو معهد بروكمز ثم مجلس العلاقات الخارجية ومؤسسة هيرتاج وأمريكان إنتربرايز، وغيرها من المعاهد أو المراكز التى تلعب دور النخبة أو الخبراء فى التأثير فى القرار الأمريكى.

إن المستشرقين الجدد هم الذين يقومون الآن بنقل تحليلاتهم، بل ودوافعهم الممتزجة بالتحليل، إلى صانعى السياسات أمام جهات عديدة، فى الكونجرس الأمريكى والأعضاء التنفيذيين بالوزارات السيادية، ثم قبل هذا وبعده، بين يدى الإدارة الأمريكية بهدف التصدى للأرهاب، بينما الهدف الحقيقى هو تأكيد الإمبريالية الجديدة عبر مشروع الشرق الأوسط الأكبر والأوسع وأهم عناصره الدعوة للديموقراطية وحقوق الإنسان.. وما إلى ذلك. غير أن دور مراكز البحث فى صنع السياسة الأمريكية هو موضوع المرة القادمة.

ثالثًا

ما زلنا عند هذه الظاهرة الجديدة التى شهدت الحقبة الأخيرة أهم تطوراتها. وهذه الظاهرة تتمثل فى تلك النخبة التى يطلق عليها «مراكز البحوث الأمريكية» تلك استبدلت بالنخبة فيها من المستشرقين التقليديين- مع تباين ميولهم - تلك النخبة التى تؤثر فى جهة اتخاذ القرارات داخل الولايات المتحدة الأمريكية.

ورغم أن هناك جهات أخرى تسعى لتلعب نفسه الدور فإن هذه المراكز البحثية - التى يطلق عليها حينًا دبابات الفكر أو سماسرة الفكر فى الأدبيات الغربية - تقوم بدور حيوى فيه.. حيث تتعدد الرؤى والتوجهات ويتجدد الهدف الذى تعمل من أجله والوسائل التى تتعدد لكنها تتحدد - أيضا - فى الرؤية التى تدفع بها إلى صاحب القرار فتقوم بهذا الدور الفعال الذى يحاول صياغة كل القرارات وصبغتها بالصبغة التى يراد منها اليوم النيل من مقدراتنا فى هذه المنطقة التى نعيش فيها.. هذه كلها أصبحت من البدهيات بعد انتهاء الحرب الباردة خاصة ثم بعد 11 سبتمبر على وجه أخص، ثم بعد غزو العراق على وجه الخصوص ومع ذلك فإنها تحتاج إلى إعادة نظر وإعادة تأكيد لما يحدث لنا وحولنا دون أن نتنبه على الوجه الكامل لما يراد بنا وكيف..

وكيلا يكون كلامنا هنا عامًّا فسوف نعود للاقتراب أكثر من هذه النخبة وتلك المراكز التى تلعب ادوارًا متباينة ضد مقدراتنا.. وهى تبدو أكثر رسوخًا فى الدور الذى عبه الآن، ورغم أن الدراسات المعاصرة عن هذه الفئة قليلة.. فإنها فى طور التطور أو أقصى درجات التطور مع وصول

الإمبريالية الأمريكية إلى أقصى مدى لها، بل أكثر لفتا للنظرفى هذه المجلات أو النشرات الأمريكية التى تصدر عن وزارة الخارجية الأميركية ونجد إشارات لها فى عديد من الصحف الأمريكية أو المجلات الأمريكية منها الإلكترونية أو الورقية، التى تصرح بوضوح شديد حيث أصبحنا أمام تأكيد للظاهرة وتحليل لها من داخل المراكز الأمريكية، إذ نجد أن المصادر السياسية الامريكية نفسها تقرر امامنا ذلك.. وقد عرفت بشكل أقل لدى عدد من الباحثين العرب منهم د. عبد الغنى عماد وعاطف الغمرى....

لقد أصبح واضحًا أن صانعى القرار ومهندسيه ومروجيه أيديولوجيا وإستراتيجيا يتحددون فى اثنين:

- مجموعة من المبشرين من اليمين الدينى المحافظ المعروفين بالإنجيليين الجدد، وهؤلاء يقومون بأدلجة العداء والحرب ضد العالم وبالترويج والتسويق لصدام الحضارات، وتحديدًا ضد العالم الإسلامى الذى أصبح يمثل فى منطوقهم «محور الشر» حيث يتم وفق طروحاتهم أبلسة المسلمين وتعميم الصور النمطية عن العربى الإرهابى الكاره والحاقد على نمط الحياة الغربية. يستخدم هؤلاء منطق بن لادن بصورة مقلوبة فيعيدون إنتاج العلاقة بالإنجيل والتوراة بما يشمل حتى النص الشعرى والأسطورى المتضمن فيهما، ويعمدون إلى إسقاط هذه النصوص والمفاهيم على الواقع المعاصر، خاصة فيما يتعلق بمفاهيم مثل وعد الله والشعب المختار ومسألة العودة.

- ومجموعة أخرى تتمثل فى تيار المحافظين الجدد الذى نجح فى استيعاب الإدارة الحالية، والذى يقوم بمهمة البرمجة ووضع السياسات والإستراتيجيات العامة. ووراء ذلك تقبع مؤسسات ضخمة تعنى بالفكر الإستراتيجى وبتحويله إلى خطط وخرائط وبرامج وأولويات يطلق عليها

ThinkTanks أى دبابات الفكر، وهذه التسمية التى تمزج الفكر بفلسفة القوة لم تأت مصادفة إنها تعبر عن التحالف بين الفكر والسلاح فى الولايات المتحدة. هذه المؤسسات الإستراتيجية وبيوت الخبرة السياسية تمثل قوة ضاغطة وفاعلة تعمل بنشاط قل مثيله فى العالم، وهى تُمول وتتمتع بميزانيات ضخمة من كبريات الشركات الأمريكية المعولة.

من هذه الشركات العملاقة الممولة لمركز الدراسات والأبحاث الإستراتيجية، والتى يقارب إنتاجها ما يساوى 25 فى المائة من الإنتاج العالمى، نذكر على سبيل المثال أن خمسة منها: جنرال موتورز - ووال مارت، وإكسون موبيل، وفورد وديملركرايسلر، يتجاوز ناتجها القومى 182 دولة فى العالم. بل إن شركة أكسون يفوق دخلها دول الأويك مجتمعة، وشركة جنرال موتورز يساوى دخلها دخل الدانمرك، وشركة بكتيل للمقاولات يساوى دخلها إسبانيا، وشركة شل يساوى دخلها فنزويلا. هذه الشركات وغيرها هى طليعة القوى الصانعة للعولة وهى الأسخى تبرعًاوتمويلاً لمرشحى الرئاسة الأمريكية ولمراكز الأبحاث وبيوت الخبرة السياسية والإستراتيجية مثل مؤسسة التراث (أنشئت منذ 30 سنة) ومركز مانهاتن للدراسات (أنشئ منذ 25 سنة)، ومؤسسة المشروع الأمريكى (أنشئ منذ 60 سنة)، ومركز هوفر (أنشئ منذ 25 سنة)، ومؤسسة المشاريع الأمريكية..AEI، ومركز سياسة الأمن، والمؤسسة اليهودية لشئون الأمن القومى JINSA، وقد أصبح أعضاء فى هذه المؤسسات نجوم الفضائيات وصانعى القرار فى الإدارة ومنهم كوندوليزا رايس وبول وولفويتز وريتشارد بيرل ودوغلاس فايث وريتشارد أرميتاج وديفيد ورمسر، ودونالد رامسفيلد وديك تشينى.

يمكن القول إن هذه المؤسسات هى صانعة رؤساء الجمهوريات وواضعة البرامج والسياسات لكل الإدارات المتعاقبة، وخلافها هو تعبير

مباشر عن خلاف المصالح التي يعبر كل منها عنه تبعًا للجهات الممولة. هذه المؤسسات هى ابنة التحالف الرأسمالى الصناعى - العسكرى.

عام1961 ألقى داويت أيزنهاور خطاب الوداع بصفته رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية، كان فى هذا الخطاب قنبلة سياسية بكل معنى الكلمة، إذ احتوى تحذيرًا للمجتمع الأمريكى من وحش كاسر ينمو فى أحشائه. يقول بالحرف: «إن مواقع القرار الأمريكى يجب حمايتها من هذا التحالف العسكرى - الصناعى الرأسمالى وإلا ستكون العواقب كارثية؛ لأننا بذلك نضع سلطة القرار فى أيد غير مسئولة؛ لأنها غير مفوضة، وبالتالى لا يصح أن تؤتمن عليه» ويتابع محذرًا: «أود أن ألفت النظر إلى أنه إذا وقع القرار الأمريكى رهينة لمثل هذا التحالف الصناعى - العسكرى وأطرافه فإن الخطر سوف يصيب حرياتنا وممارساتنا الديموقراطية، كما أنه قد يصل إلى حيث يملك حجب الحقائق عن المواطنين الأمريكيين، وبالتالى الخلط بين أمن الشعب الأمريكى وحرياته من جهة وبين أهداف أطراف هذا التحالف ومصالحهم».

ومنذ أشهر قليلة مضت أى بعد ما يقارب أربعين عامًا على خطاب أيزنهاور صدرت «الإيكونوميست» وفيها افتتاحية بعنوان «هجمة دبابات الفكر» وفيها راحت تشير إلى هذا الجيش الخطر من المفكرين الذين احترفوا تهييج القوة الأمريكية واستثارتها حتى تندفع أبعد، كل يوم، على طريق الحرب.

وتتابع «الإيكونوميست» فى افتتاحيتها: «أن أحدًا لم يعد فى مقدوره أن يناقش أن هذه المراكز أصبحت بذاتها حكومة الظل فى أمريكا، بل وتأكد أنها الحكومة الخفية الحقيقية التى تصوغ القرار السياسى وتكتبه ثم تترك مهمة التوقيع عليه للرئيس ومعاونيه الكبار فى الإدارة».

ويلاحظ عاطف الغمرى هنا أن هذه المراكز لم تأت طفرة مفاجئة وإنما عرفت منذ بدايات القرن الماضى، غير أن تأثيرها السياسى السلبى خاصة على المنطقة العربية بدا أكثر وضوحًا فى الحقبة الأخيرة، فقد أصبح لها كيانات كثيرة عرفت عبر التطور التاريخى حتى وصلت إلى الفترة التى نعيش فيها، فأصبح لها كيانات فاعلة فى صناعة السياسة الخارجية الأمريكية وراح يتصدر هذه المراكز الآن الكثير منها: «معهد بروكنجز ومجلس العلاقات الخارجية ومؤسسة هيرتاج وأمريكان إنتربرايز وهدسون إنستتيوت ومركز بيكر للسياسة العامة ومؤسسة راند ومعهد الشرق الأوسط ومعهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى ومركز الدراسات الإستراتيجية والدولية ومعهد هوفر ومشروع للقرن العشرين..».

وثمة بدهية هنا لا بد من التمهل عندها وهى أن أحداث سبتمبر لعبت دورًا رئيسيا لمثل هذه المراكز دورها وتأثيرها فيما مثلته من أفكار جهرت بها عبر ابحاث أصبحت أكثر تركيزًا على إنتاج أفكار وتحليلات من شأنها أن تؤدى إلى تطوير بل وإعادة مراجعة العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامى، فإذا بنا أمام مكاشفات علنية بضرورة التنبه إلى عدة فاعليات ومصطلحات راحت تلقى فى تيار الإستراتيجية المضادة لنا، كأن يزيد الحديث عن الإرهاب ويتم الربط بينه وبين حماية الحريات، ويتم - فى الوقت نفسه - تجاهل الصراع العربى الإسرائيلى.. وما إلى ذلك من الأفكار التى راحت تُعاد أمامنا بتكرار سقيم فى مبادرات من مثل مبادرة الشرق الأوسط (الأكبر) ثم الأوسع.. وما يتبعه من زعم تهديد الهوية الأمريكية كما لاحظ علاء كريم وكما أشرنا من قبل إلى ذلك كما بدأنا فى التعرف على قيم راحت تُفرض علينا عبر هذه المشروعات وفى مقدمتها قيمة الديموقراطية.

وهو ما نتأمل عنده أكثر..

السامية.. تحسس رأسك!!

هل أنا حقًّا فى حاجة لتحسس رأسى..

سألت نفسى وأنا أستعيد حروف صحف الغرب صحيفة وول ستريت جورنال أو مجلة ناشينوال ريفيو اليمينية المحافظة، أو أحد تقارير معهد بحوث أعلام الشرق الأوسط الصهيونى MEMRI... أو غير ذلك من هذه الصحف والمركز التى تدين بالولاء أو التمويل لأصحاب هذا القانون الذى أعلنه الرئيس بوش قبل إعلان نتيجة انتخابه بإيام..

ولم لا، والقانون فى مجمله، يحتوى على إجراءات تنال أى إنسان - أى إنسان - يحاول أن يقول رأيه مجرد أن يقول رأيه فى أمر ما قد يتعارض - ولو بالمصادفة - مع الصهاينة - التابعين، القابعين داخل إسرائيل أو داخل الإدارة الأمريكية.

ولم لا، وهذا القانون فى مجمله، يحتوى على إجراءات تنال من أى إنسان فى بلاد الشرق الأوسط أو بلاد واق الواق!.. فى أى مكان يمكن الإنسان فيه أن يعبر عن رأيه فيما يحدث حوله دون أن يكون معاديا أو مؤيدًا لهذا الرأى أو ذاك..

رحت أستعيد تاريخ هذه المعاهد والمراكز التى تنتشر فى بلاد العم سام وخارجها، فالقانون ليس جديدًا فى أفكاره وربما فقط فى صياغته التى أمر بها الرئيس الأمريكى فى بدايات هذا الشهر.

رحت أستعيد صورًا بعضها جارح لمشاعرنا نحن كعرب وبعضها طارح لأفكار وإجراءات نجح فى اغلاق بعض مراكزنا العلمية بصفاقة شديدة.. لنر هذه الصور قبل العود إلى رأسى مرة أخرى..

أتذكر الآن هذا الحوار الذى دار فى برنامج دون إيموس، والذى أذيع فى الثانى عشر من نوفمبر الحالى وتضمن تغطية مباشرة لمراسم تشييع جنازة

الرئيس الفلسطينى الراحل ياسر عرفات فى الأراضى الفلسطينية، وخلال البرنامج دار الحوار التالى بين المذيع دون إيموس وضيوفه عنوان أبدى من الصفاقة للعرب ولرموزهم مايفوق أى صورة من صور المعاداة التى يتحدث عنها القانون، فخلال البرنامج (الذى تلقت كير المنظمة الإسلامية فى واشنطن عدة شكاوى عن محتوى البرنامج وابدى المسئول الأول عنها علاء بيومى وعيا فائقًا) رحنا نسمع حوارًا يفوق بكثير أى لوم أو عتاب أو سن قوانين لمعاقبة أصحابها على غرار قانون «معاداة السامية» هذا..

ولعنف ما قيل وصفاقته أضطر- بمرارة - أن استعيده للقارئ العربى هنا ليرى كم يحل الظلم بنا والعدوان الكريه، فى حين ينجح سادة العالم الآن ومعهم رجالهم فى سن قانون لحماية الصهاينة فى ارض عربية وليسمح لى القارئ الكريم وليغفر لى - مرة أخرى - أن أنقل له هذا الحوار من شبكة تليفزيون MSNBC الأمريكية المعروفة، وهو على النحو التالى أثناء تغطية مباشرة لمراسم تشييع جنازة الرئيس الفلسطينى الراحل ياسر عرفات فى الأراضى الفلسطينية، فخلال البرنامج دار الحوار التالى بين المذيع دون إيموس وضيوفه:

دون إيموس: إنهم (الفلسطينين) يأكلون القاذورات وزوجته الخنزيرة الممتلئة تعيش فى باريس.

أحد ضيوف البرنامج: لقد خضعوا جميعًا لعملية غسيل دماغ هذا ما فى الأمر. إنهم أغبياء فى البداية ولكنهم مغسولو الأدمغة الآن. حيوانات نتنة. يجب أن تسقط القنابل هنا لتقتلهم جميعًا فى هذه اللحظة.

إيموس: المشكلة هى أن لدينا (المراسلة) إندريا ميتشل هناك ولا نريد أن يحدث أى مكروه لها.

أحد ضيوف البرنامج: يجب عليها أن تبتعد.. ثم قم بإلقاء القنبلة واقتل الجميع...

أحد ضيوف البرنامج: انظر لهذا. حيوانات. حيوانات.

....

وهذا لا نجده فى الشاشة الزرقاء فقط وإنما يتناثر على الشاشة البيضاء أيضًا وفى الصحف وفى المجالس النيابية وفى الندوات المتناثرة هنا وهناك ضدنا، ثم إنه لا يمر يوم دون أن نقرأ لأحد حاخامات دولة إسرائيل (السامية!!!!) أوصافا أقل ما يقال عنها إنها جارحة لمشاعر العرب أو معادية بشكل غير طبيعى..

ومن يتابع تصريحات الحاخامات الإسرائيليين أو المتعصبين، وما أكثرهم، يلحظ هذه الوحشية التى يحاكم من أجلها ويتهم أصحابها بأنهم هم المعادون للسامية وليس كما يتطوع القانون ليفهمنا إياه..

صورة أخرى عرفناها قبلها أقل عنفًا فى الإعلان وأكثر عنفًا وعنتًا فى الواقع نجدها فى قرار المنظمة الصهيونية فى التعرض «لمركز ثقافى» تابع لجامعة الدول العربية لا نجد فى محاضرته ونشاطه ما يقترب مما يفعله الصهاينة وأتباعهم اليوم، فحين ننتقل من الشاشة البيضاء بل والإعلام الغربى كله الآن إلى هذه المنظمة الصهيونية ميمرى نجد أنها تعرضت وبصفاقة لهذا المركز الثقافى فى الإمارات - مركز زايد - لأنه كان محايدًا فى استضافة الكثير ممن أثروا الواقع بأفكارهم من جيمس بيكر إلى تيرى ميسان الذى زعم بصنع سيناريو 11 سبتمبر عبر تصورات تقترب من اليقينية ؟؟ إلخ.

كانت التهمة المتهافتة والمريبة ضد المركز العربى جاهزة دائمًا: معاداة السامية.

لقد استمرت هذه الحملات التى نظمتها جهات صهيونية على رأسها معهد بحوث إعلام الشرق الأوسط المعروف اختصارًا باسم «ميمرى» وهو فى واشنطن ويتخذ من إسرائيل مقرًّا لأحد مكاتبه ويرأسه الكولونيل ايجال كارمون مسئول الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية المتقاعد والمستشار السابق لكل من شامير ورابين، كما يعمل بالمعهد عدد من الموظفين المتقاعدين من القوات المسلحة أو المخابرات الإسرائيلية..

نقول: استمرت الحملة مركزة على مركز زايد تتهمه بمعاداة الولايات المتحدة وتشجيع اللاسامية «والترويج لنظرية المؤامرة» و«إنكار الهولوكوست» ما إلى ذلك حتى انتهى الأمر بإغلاق «مركز زايد للتنسيق والمتابعة»، ولم تنته صفاقات المعهد الصهيونى بحجة أنه مركز أبحاث مقره أبوظبى بعد تعرضه إلى انتقادات غربية بأنه يروج لمعاداة السامية.

معاداة السامية دائمًا...

والاحتجاجات الفجة المنظمة تعمل دائمًا.. والصور المعادية لنا كعرب لا تنتهى.. بفجاجة وعداء لا مثيل لهما فى التاريخ كله..

هل نحن محتاجون - كما يفعل الكثير من كتابنا الفضلاء - بعد ذلك إلى إعادة شرح المصطلح الذى يستخدم ضدنا بخبث ودهاء: الساميون Semits..؟

هل نحن محتاجون - حقًّا - لنردد مع المصادر التاريخية أن التسمية تشمل شعوبا تضم - على المستوى التاريخى - شبه الجزيرة العربية والشام وبلاد الرافدين.. وفى الوقت الحالى يمثلهم العرب أو أن - بتعبير د. المسيرى: يعد العرب أكثر الجماعات السامية قربا مما يمكن تسميته «الخطاب الحضارى السامى الأصلى». كما أن اللغة العربية أقرب اللغات الحية إلى السامية الأصلية، ومع هذا ينصرف المصطلح (معاداة السامية) إلى اليهود، يهود

التاريخ وليس صهاينة الحاضر الذين أتوا من بلاد الخزر وروسيا والحبشة وبولندا.. إلخ.

وهل يجدى ما نقول باسم التاريخ والعلم والوثيقة والأثر والعقل؟.. أم أنه لا فائدة وعلى كل منا أن يتحسس رأسه؟!

فنحن فى عصر الصهاينة الذين استولوا على العقل الإنجيلى وعلى العقل الإنسانى جملة وراحوا باسم (اليهود) يتحدثون ويعملون على إصدار قوانين ضد الآخرين الأغيار (الجويم)، كما يسمون أعداءهم المحكوم عليهم بالموت دائمًا..

لا أخدع القارئ، لقد تلفت حولى ورحت كلمات عبد الصبور وأنا أتحسس رأسى!!

من أحلام 11 سبتمبر!!

ياله من حلم غريب؟!!

إن 11 سبتمبر يعود ليطل علينا من كل اتجاه: الشبكات الدولية والأقمار الصناعية بين أجهزة المخابرات الغربية ووسائل (الميديا) الحديثة، بين الصحف وفوق الجدران.. وهو ما يذكرنى بالحلم الذى يتكرر لدىّ عدة مرات منذ11 سبتمبر الأول1..2، وها هو يعود ليتكرر عندى هذه الأيام لأصحو عليه كل صباح..

وأتوقف بالإذن من القارئ الكريم بالشكل الذى رأيته ـ أى الحلم ـ بعيدًا عن كسل هذه الوسائل التى قدمت إلينا والمعلومات التى وصلتنا فى عصر لا نملك فيه الكثير.

وأسارع بالقول هنا بذكر بدهية أننا أصبحنا فى عصر أصبح فيه من يمتلك المعلومات يصبح أكثر قدرة على توصيل ما يريد ـ بغض النظر عن حقيقته ـ وما يفعل.

فلنتمهل عند الحلم الذى يختلط بالواقع ويرتد إليه ثانية هذه الأيام.

لم أشك يوما.. وهنا تبدأ مشاهد الحلم العلم...

رأيت فيما يرى النائم أن ما حدث فى11 سبتمبر وسمى بالانفجار أو العاصفة أو الهجـوم.. ليس أكثر من مهزلة ليس لنا بها أية علاقة، أقصد ليس لنا بها نحن العرب أو ـ حتى ـ من يعيش فى منطقة الشرق الأوسط أية علاقة.

وما قيل ونشر وأعد ببراعة فائقة وإعداد جيد إنما كان وراءه عقل غربى عبر (إستراتيجية) مسبقة ألصقت بين لادن ـ وبالتبعية ـ العرب ـ والمسلمين بهدف واحد، هو تهيأة المناخ لتنفيذ هذه تهيئة المهزلة، والإسراع بها، خاصة، فى الجانب الذى ستستمر فيه محاربة الإرهاب (وهو مصطلح أعد وأعد له جيدًا..) بدءًا من كابول وامتدادًا إلى الجنوب فى أرض فلسطين وصعودًا ـ فيما بعد ـ إلى العراق، وهو ما يعد له جيدا الآن هبوطًا إلى جنوب السودان وحلايب وأخواتها.. وصولا إلى آفاق وأهداف أخرى لا تعرف إلا فى الإستراتيجية الغربية.

أقول ـ وأنا أغيب فى تلافيف الحلم - لم أشك لحظة واحدة فى هذا المخطط (بعيدًا عن نظرية المؤامرة..)، ولم نكن فى حاجة ـ فى مثل هذه الظروف القائمة المهينة ـ أن يخرج منا من يتحدث عن «إرهاب» بن لادن، وكأن انفجار سبتمبر وراءه بالفعل الإرهاب الإسلامى، وإن لم نعدم إشارات بن لادن الواضحة فى أنه كان ـ وجماعته ـ وراء ما حدث، وأنه ـ امتدادًا للخبل الذى عرفناه ـ يبارك (الطلائع) التى أرسلها للقيام بهذا العمل..!!

ومن ناحية أخرى، فان «بن لادن» إذا كان فعل ما فعل (وهذا قائم فقط فى الإستراتيجية الأمريكية..) لهدف يعلمه الله.. ماكان ليهتم بأن يحضر

آلات التصوير أو يحتفى بالمقابلات المتلفزة التى أكد عليها البيت الأبيض حينئذ، حين أشار إلى اكتشاف أشرطة فيديو تظهر ناشطين فى تنظيم القاعدة تؤكد النيات السيئة لشبكة بن لادن، وهو ما وجدنا تفصيلات له كثيرة فى شبكة السى. إن. إن. والسى. بى. إس.

وهو ما وجدناه لدى أكثر من شبكة أو قاعدة فضائية يعلن كشف أسرار عن بن لادن تركها وراءه بسذاجة خصيصًا ليكتشفها جهاز المخابرات الأمريكى والبيت الأبيض، ويرينا كيف أن (القاعدة) ما زالت تكيد لأكبر إمبراطورية للشر فى عالمنا المعاصر!! (وعلامات التعجب لا تتوقف).

أقول ـ وأردد ألف مرة ـ لم يمر فى خيالى مرة واحدة، ولو على سبيل الاحتمال ـ أن أيا من جماعتنا (من المسلمين أو العرب) يمكن أن يكون وراء ما حدث فى مانهاتن..

وكيف يمكن أن يكون أحد من هنا وراء ما حدث هناك؟

لا أريد أن أناقش «الفعل» لأنه ـ وببساطة، لم يكن لنا يد فيه، ولم نستطع ـ حتى ولو أردنا ـ أن نقوم به.

وكان أكثر ما تألمت له ليس غياب الوعى لدى من يعترف أو يؤمن على إرهاب العرب والإسلام.. فقد بدونا أمة من الهنود السمر يدبر لنا بليل ما يريده الآخرون، ولكن آلمنى هذه التداعيات التى عرفتها (عرفناها) إبان الاجتياح الإسرائيلى الجبان للمدن الفلسطينية، بما عرفناه من المذابح والاجتياح والإذلال والمهانة ليس داخل فلسطين وحسب، وإنما داخل أبو غريب الذى اتسعت أبوابه وحيطانه إلى حدود العالم العربى والإسلامى.. أقول، لم أصدق يومًا شيئًا مما قيل، وبالتالى، ما ترتب عليه ضدنا.

وكل يوم يمر بنا فى هذا الشهر نجد إشارات موضوعة بعناية كبيرة من الغرب تؤكد أن بن لادن وعلاقاته بصدام وغيره من الرموز العربية والإسلامية وراء ما حدث..

بل اقترب أكثر من هذه الملهاة الباكية أو المأساة الضاحكة فيما رأيت، وما زلت أرى وأسمع وأعرف.

ولم أكن ـ بالتبعية ـ لأندهش حين صرح المسئولون من الأمريكيين ما قاموا به لمعرفة الفاعل فى 11 سبتمبر لم يسفر عن شيء وأنهم.. ونحن ننقل بالحرف من تقارير أمريكية وأيضا من وكالة لوس أنجليس تايمز، ربما لن يعرفوا مطلقًا بعضًا من أهم التفاصيل التى انطوى عليها الهجوم.

وأضاف مدير مكتب المباحث الفيدرالى الأمريكى (اف. بى. أى) روبرت مولر أن منفذى هجمات مانهاتن أذكى بكثير من جهاز استخباراته، وينص خطاب هذا الاثنين بالحرف الواحد:

لم يترك الخاطفون أى دليل مكتوب. وفى تحقيقاتنا لم نعثر على ورقة واحدة. سواء هنا فى الولايات المتحدة الأمريكية أو فى أفغانستان، تتحدث عن أية جزئية من مخطط 11 سبتمبر.. وأن المنفذين كانوا محترفين ولم يتركوا وراءهم أى أثر، وقريب من هذا هذه الرسالة التى كانت قد بثت على شبكة الإنترنت، تشير إلى أنها لزعيم القاعدة بن لادن يدعو فيها الشعب الافغانى إلى متابعة الجهاد ضد القوات الأمريكية، بل ويتكهن وهو يخاطب الأمريكيين بسقوط إمبراطوريتهم (.. وإمبراطوريتكم فى طريقها إلى الزوال، كما حدث من قبل مع الروس والإنجليز والتتار) هكذا..

ثم يمكن أن نتابع (كل) هذه التحقيقات التى حدثت مع شخصيات كثيرة وصل عددها إلى الآلاف جاءوا من الشرق، أو نتابع هذه القوانين

التى صدرت بالعشرات ـ فى الغرب ـ التى تشدد على القائمين فى أمريكا من ذوى الأصول الشرقية خاصة، والعربية بوجه أخص.. ولا يمر يوم إلا وتنقل الصحف الأمريكية أو مكتب التحقيق الفيدرالى الأمريكى إشارة إلى تورط عرب من المجاهدين!! فى انفجار سبتمبر خبرًا أو أكثر للقبض على هذا العربى أو ذاك.

وسط هذا كله رحت أحدث نفسى بصوت عال لم يخرج عن سكون الحالم:

وهل هى مصادفة أن تصل درجات التبرير لضرب العراق أن يزعم رامسفيلد قبل أيام أن العراق يتعاون مع القاعدة أو أن عناصر من القاعدة لجأت إلى العراق؟ أو أن كبير إرهابيى 11 سبتمبر محمد عطا قابل عميلا للمخابرات الأمريكية فى براغ..؟ وهل من المصادفة ـ سؤال حائر آخر ـ أن يظهر عدد من الكتب وعدد من الكتابات تتخبط لكنها ـ فى أغلبها ـ لا تحسم الأمر إلا لصالح العم الأمريكى؟

وأتذكر وأنا لم أخرج من أضغاث الحلم أن هناك عددًا من الكتب وعددًا من التقارير العالمية التى صدرت فى الغرب الأوروبى، والتى يؤكد أصحابها أن ما حدث فى 11 سبتمبر لا يعدو أن يكون نوعًا من الخديعة التى صنعتها أجهزة المخابرات الأمريكية وصورتها قبل أن تجد «الميديا» الغربية مستعدة لها تمامًا، وربما كان أهمها ذلك الكتاب الذى يشير عنوانه إلى ما يريد التأكيد عليه حين تزعم حكومة العم سام أن ما حدث كان إرهابا دبره الغير، وهو الكتاب الذى صدر فى فرنسا باسم «الفضيحة»، بل أمامنا كتب أخرى كثيرة ظهرت فى العواصم الغربية تشير إلى مثل هذا فى الانفجار المزعوم.

الكتاب الطريف عنوانه الأول «فشل» متسائلاً فى دلالة فى عنوانه الثانى: (كيف أدت أخطاء المخابرات الأمريكية إلى 11 سبتمبر) مبديا فيه صاحبه ـ بيل جيرتز بصحيفة واشنطن بوست ـ شكوكه فى إيران من أنها كانت على علاقة بتنظيم القاعدة، مؤكدًا فى السياق الأخير أن الجمهورية الإسلامية فى طهران متورطة فى الهجوم على مانهاتن!!

والآن، هل خرجنا من الحلم أم نعود إليه مرة أخرى؟!

الرقابة.. والشبكة الدولية

أولاً

لم تعد الرقابة تمثل قيدًا على النص المكتوب بوسائل ورقية.. بل تجاوزتها إلى وسائل رقمية فى الفضاء البرينى الذى تمثله الشبكة الإلكترونية الآن. ولم تعد الرقابة تمثل - فقط - عددًا من الحكومات العربية وإنما تجاوزتها إلى القوى العالمية، خاصة فى الزمن الجديد الذى نتعرف فيه بدهشة فائقة ــ ما زلنا ــ على عسكرة العولمة التى لحقت كل قطر فى العالم، وتماهت ــ بفعل القدرات البرمجية العالية ــ مع دعوات «نهاية التاريخ» ووصول الرأسمالية الغربية إلى قمة الإمبريالية. وبعد أن كان الكاتب (أو المبدع) العربى يطرق طرقًا عديدة للإبداع والانفلات من عملية الرقابة التقليدية، أصبحنا الآن ــ خاصة بعد11 سبتمبر ــ أمام العنت الذى يصنعه التقدم التكنولوجى الفائق، فأضيف إلى محاصرة النص ــ عبر الطرق التقليدية ــ إلى مصادرة حق الكاتب فى التعبير عما يريد. لم تعد القضية ــ إذن ــ قضية رقابة داخلية، وإنما أضيف إليها رقابة خارجية تملك من الوسائل التقنية الكثير، وتسعى بها تملك بجنون القوة إلى محاولة إخضاع مقدرات الأمة العربية. وعلى هذا النحو، سقطت مساحات شاسعة من القهر الرقابى الذى يتخذ أشكالاً شتى من الرقابة التى لم نعد لنعرفها الآن، بعد أن أصبحنا فى قائمة

الدول المتراجعة عن العصر التكنولوجى الجديد، بل الراضية بما فيه مما كشف أكثر ـ من الجانب الآخر ـ عن قبضة الغرب الأمريكى خاصة وطموح «الامبراطورية» الذى لم يعد يعرف عبارات نلوكها كل يوم مثل «حوار الحضارات».

وعلى هذا النحو، فنحن مضطرون للدخول إلى هذا العالم ـ حدود حرية التعبير ـ فى فضاء الشبكة العالمية للإنترنت.

بيد أن الطريق إلى هذه النماذج يحتم علينا المرور من الطريق العربى قبل أن نكتشف أننا فى الفضاء العالمى..

رغم أن مؤسسات الرقابة وآلياتها سادت كثيرًا فى العالم منذ زمن بعيد، فإنها عرفت عندنا فى العالم العربى أكثر خاصة حين اقترنت بالشبكة الدولية، ويصبح الخطر الخارجى يرتبها بالخطر الخارجى ويمثل إشكالية مهمة لا بد من التنبه إليها أكثر فى محاولة الهيمنة على وسائل الاتصال والمعلومات.

وعلى الرغم من أن رقابة الإنترنت شهدت تطورات كثيرة طيلة التسعينيات فى الغرب، خاصة، فإنها بدأت أكثر لفتًا للنظر بعد عاصفة مانهاتن 11 سبتمبر 2001، حيث ظهر عنصر جديد إلى العيان لم يكن منظورًا من قبل هو.. **الأمن**. وشرعت الإدارة الأمريكية فى سن تشريعات شتى تتيح تدخلاً واسعًا لأجهزة الأمن فى الشبكة الإلكترونية. وتصاعدت أصوات محذرة داخل أمريكا، ثم خارجها، تشير إلى أن هذا المنحى يهدد الحريات على الشبكة. والمعلوم أن أجواء الحرية، وحتى الانفلات، لعبت دورًا قويا فى رواج الإنترنت. ووصل الأمر إلى حد النظر إلى الأمن، وخصوصًا المعلوماتى، سلعة جديدة.

وفى أحد الأعوام الأولى فى الألفية الثالثة، صدر قانون التنبيه الشامل الذى وسع نطاق الرقابة الأمنية على الإنترنت. وفى أمريكا، سارت كل هذه الأمور فى جو من النقاش والاعتراض. وشهد الكونجرس نقاشات حامية عن هذه المواضيع. وكانت نبرة الاعتراض خارج المؤسسة السياسية الأمريكية أشد حدة. ويمكن القول إن هذا الأمر إيجابى إذا ما قورن بما حصل فى بلد مثل الصين. فعلى الرغم من أجواء الانفتاح السياسى، أبدت المؤسسة الحاكمة قلقًا متزايدًا على مدى الحرية الذى تتيحه الانترنت لمواطنيها. وسرعان ما ترجم الأمر إلى إجراءات إغلاق مواقع. وذهب ضحية هذا القمع، مواقع شركات عالمية مثل جوجل والتافيستا وغيرهما. والمعلوم أن جوجل، مثلا، هو محرك بحث Search Engine على الإنترنت. ويعطى على كل سؤال مجموعات كبيرة من الردود من مصادر متنوعة، وينطبق الوصف نفسه على التافيستا، أحد أقدم محركات البحث على الشبكة. ويبدو أن هذا التنوع لم يرق لعقلية ترى أنها وحدها المخولة بإعطاء الرأى والشرح والتفسير، كما فى الصين.

وتكرر التضييق نفسه فى بلاد مثل فيتنام. ولم تكن البلاد العربية بمنأى من التشدد فى خنق الحريات على الإنترنت. وفى تحقيق أجرته الحياة خلال العام الماضى، ظهر أن بلدانًا عربية عدة تعانى من تضييق على الحريات الإلكترونية فيها. وساهم استمرار نشاط الفيروسات على الشبكة فى تنفير الجمهور منها. وعلى الرغم من انخفاض هذه الظاهرة نسبيا فى السنة الماضية، إلا أن ما ظهر من أنواعها كانت له صفات مقلقة. ومثلاً فإن فيروس الجنرال كليتز يجول بحرية على الشبكة ويحدث خسائر وإن كانت محدودة. وتمكن الخبراء بسرعة من مجابهة فيروس سلامر، لكنهم صعقوا للسرعة التى ينتشر بها.

وقدر أحد التقارير أن سلامر دار حول العالم فى عشر دقائق. وهى سرعة قياسية فى سجل الفيروسات الإلكترونية. وأدى التوتر فى شبه القارة الهندية إلى حرب صامتة بين شبيبة المعلوماتية فى البلدين الذريين الهند وباكستان. والمعلوم أن لدى البلدين نخبًا متمرسة فى المجال المعلوماتى.

والمعروف أن بعض التقارير الدولية أشار أيضًا إلى وجود نقاط ضعف فى برامج الحماية من الفيروسات والاختراقات، مما يزيد صعوبة الهم الأمنى، ويعزز من ناحية أخرى من الرقابة.

وعلى أية حال، لا تزال الولايات المتحدة فى قمة هرم هجمات المعلوماتية. وتصدر من بلاد العم سام ما نسبته 73 فى المائة من الهجمات الإلكترونية على الإنترنت. وتليها أوروبا بنسبة 28 فى المائة فقط. كما أن القوى الصهيونية فى إسرائيل التى تتعامل بشكل وثيق مع الولايات المتحدة فى هذا السبيل تمثل خطرًا كبيرًا فى مضمار الرقابة هنا..

والمعروف أن شبح الرقابة يتحدد فى أشكال شتى، سواء فى الرقابة المباشرة أو استخدام عملية حجب الوثيقة أو البيان أو تلمس الهاكرز أو استخدام ما يعرف بالحائط النارى.

وهو ما يسرع بنا للقول هنا إن الرقابة الخارجية التى عانت منها الشعوب الغربية، إنما كانت تعانى منها الشعوب العربية أيضًا.. فإذا كان يفسر ذلك فى الخارج بتوظيف أية وسيلة من أجل إعادة الاستعمار القديم إلى يد العم سام، فإن الحكومات العربية تسعى فى الداخل للسيطرة على وسائل الاتصال الخارجية التى تحول ألا تتدفق إلى هذا الداخل أية معلومات، وفى الوقت نفسه لسيطرة على الداخل لضمان الرقابة الصارمة على ما يمكن أن يوجد قلاقل تحول بينها وبين الاستمرار فى السيطرة على الشعوب العربية..

ولدينا عدد غير قليل من الأقطار العربية التى لا ترغب فى حصول شعوبها على المعلومات، وتعمل للحد من تدفق المعلومات إلى بلادهم، سواء بالقوة أو باستخدام وسائل أكثر اعتدالاً، وكانت تستخدم فى ذلك وسائل كثيرة لإحكام الرقابة، كما تؤكد المصادر.

وقررت بعض الدول أن تحسم هذا الجدل من أساسه فمنعت إدخال خدمات الإنترنت أصلاً مثلما فعلت السعودية وليبيا ــ مثلاً ــ ولكن بعد فترة قليلة اتضح أن هذا الأسلوب يقف ضد المصالح العامة على طول الخط بحرمان الهيئات والأفراد من التعامل مع أهم منجز تكنولوجى ظهر فى القرن العشرين، وسمحت السعودية بدخول الإنترنت منذ بداية العام (1998) وإن كانت هذه الخطوة جاءت متأخرة تماما بعدما استقرت معظم الدول العربية فى التعامل مع هذه الخدمة، ويكفى فى هذا السياق أن نذكر بعض الأرقام ذات الدلالة الخاصة منها أن الدول العربية من أكثر مناطق العالم زيادة فى معدلات استخدام الإنترنت، حيث تصل هذه الزيادة إلى نسبة تتراوح بين 150 و250 بالمائة، كما تذكر أحدث دراسة أن عدد المستخدمين بلغ حوالى مليون مشترك (مع ملاحظة إمكانية استخدام أكثر من شخص للحساب نفسه، مما يرفع النسبة التقريبية لمستخدمى الإنترنت فى العالم العربى إلى حوالى 3 ملايين مشترك يزيدون كل يوم).

وبالنسبة للرقابة والسيطرة اتخذت معظم الدول العربية (باستثناء مصر ولبنان ودول المغرب العربى) إجراءات تكنولوجية لمنع وصول المشتركين إلى العديد من المواقع التى ترى أنها لا تناسبهم (وفى الطريق تحجب العديد من مواقع حقوق الإنسان والمعارضة وغيرها)، هذه التكنولوجيا تعتمد على ما يسمى «بحائط النار» أو «جهاز التحكم البروكسى»، وهذه التقنية تجبر

جميع المتعاملين مع الشبكة على المرور عبر فلاتر البروكسى قبل الوصول إلى الشبكة، وتوجد قاعدة بيانات ضخمة بأسماء المواقع الممنوعة يتم تحديثها بشكل دورى ودائم.

ورغم أن هذا النظام يبدو فعّالاً من الناحية النظرية بشكل تعتقد معه الحكومات العربية أنها أدت الغرض المطلوب بحماية قيم المجتمع، إلا أن الواقع العملى يقول إن الالتفاف حول هذه القيود ودخول المواقع الممنوعة يمكن أن يتم بسهولة شديدة، خاصة إذا توافرت المعارف التكنولوجية اللازمة ــ وهى متوافرة بالفعل ــ خاصة مع وجود عشرات المواقع تشرح أسهل وأبسط الطرق لتجاوز رقابة البروكسى.

ورغم الإشارة بشكل مستمر إلى العديد من مظاهر الرقابة على الشبكة، فإن عديدًا من الأقطار العربية حتى اليوم ما زالت تستخدم الأساليب المتعددة لتحول بين شعوبها وما يقدمه الإعلام الغربى، رغم أن أصحاب هذا الإعلام يطبقون على الحكومات العربية، خاصة، بعد غزو العراق..

إننا ما زلنا نستخدم فى بعض الأقطار العربية مراقبة الموجات الكهربائية التى تنقل عبر الهواء، وحيث تتيح لقاطنى المنازل وصلات الكابل التى تقدم برامج الفضائيات الدولية، والتى يتم استقبالها من خلال هوائى الاستقبال الذى تملكه الدولة، وهذا يعنى أن كل البرامج تخضع للحكومة قبل أن تصل إلى المشتركين.

هذه مجرد أمثلة ما زالت تستخدم هنا وهناك، وكان العالم سيتوقف فيما يقدم على ما يحوله بينه وبين الشعوب.

ثانيًا

رأينا فيما سبق ـ بحزن شديد ـ كيف أن عددًا من الأقطار لدينا حتى اليوم مازالت تستخدم الأساليب المتعددة لتحول بين شعوبها وما يقدمه الإعلام الغربى.. وعلى هذا النحو نستطيع أن نردد مع البعض أن (سيكانزمات الرقابة) على شبكة الإنترنت العالمية ما زالت تعانى معوقات كثيرة منها الهيمنة الحكومية وتبنى وسائل معينة تحول بين حرية الإعلام والمواطن العادى، كما أننا ما زلنا فى حالة مستمرة من تبرير القيم الأخلاقية أو الجنسية فى العلن وتغيير القيم السياسية فى الخفاء، فضلاً عن غياب حرية التعبير بشكل واضح وهو ما نراه من آن لآخر من استمرار هذه المجلة على الشبكة أو ترك هذه الرواية أو تلك القصة أو هذا العمل العلمى الذى يتعارض مع قيم النظام، فضلاً عن أن سيادة الإنجليزية التى تحول بيننا وبين التعامل مع الفكر الغربى المعاصر مهما يكن.

وتأكيد أو تيسير المركزية Centralization فإن لتكنولوجيا الاتصال والمعلومات تأثيرًا معاكسًا؛ لأنها تعمل على تحقيق لامركزية السلطة Decetralizationofpower ونشأة اقتصاد الخدمات: الإنترنت وتليفزيون الأقمار الصناعية ونمو التعليم على مستوى جماهيرى.. إلى غير ذلك من التشريعات والقوانين التى ما زالت تترك الحبل على الغارب لوسيلة المراقبة، خاصة إذا تعلق الأمر كما سنرى بالسياسة..

غير أن ما يهمنا هنا فى المقام الأول هو رصد بعض الصور أو النماذج للمراقبة على الشبكة وسوف يكون هذا الرصد متواصلاً مع الرأى الذى يؤكد توخى الغرب خاصة، استحكام دائرة الرقابة فى الوقت نفسه الذى لا

تخفف بعض المركزيات عندنا من قبضتها فى أغلب الأقطار العربية، وهو ما نتمهل معه أكثر عند رصد حدود الرقابة على الشبكة.

إن متابعة العديد من الصور التى تهدد حرية التعبير فى الإبداع العربى، سواء على شكل فردى أو مؤسسى، ترينا أن حرية الرقابة ليست مطلقة، خاصة حين يتعلق الأمر بالخارج وبالعامل الأمنى.

كما أن هذه الممارسات تتنوع بين تزييف النص بشكل مباشر أو استخدام الفيروسات أو الهاكرز أو إحكام الحائط النارى أو عمليات التجسس كما سنرى.. ومن يراقب هذه الهجمات سوف يلاحظ أنها أدوات شتى وتنطلق من بلدان عربية وإسلامية شتى، كما أنها تأتينا من القارتين الأمريكية والأوروبية، خاصة تلك التى تدعم الوجود الصهيونى وتعمل معه..

ومع أن هذه الصور تتعدد فى صور لا تنتهى ضدنا فسوف نختار منها أمثلة محددة لنرى الدرجة القصوى الشائهة لحرية الرقابة التى تمارس ضدنا وسوف نتمهل عند مثل أو صورة منها فى اقتحام موقع فلسطينى.

ويكون علينا أن نرصد لحدود الرقابة عبر عديد من الصور سواء الداخلية منها او الخارجية لكنها تتعلق فى السياق الأخير بالإبداع العربى فى الشبكة.. وعبورًا فوق تعريفات كثيرة للرقابة فى شكلها السلبى سوف نشير إلى أن أهم صورها هنا هو التخريب أو التخريب المعلوماتى Information Sabbatage. والتخريب هنا يتخذ أكثر من شكل..

فهو يتمثل مرة - فى إلغاء المواقع بشكل عام مدمرًا محتوياتها الأصلية المتمثلة فى الوثائق أو الكتابات العلمية أو الصور.. إلى غير ذلك ويستبدل بها أما أشكالاً عامة من الجمل أو الكلمات التى ليست لها أية علاقة بالموضوع الأول..

وهذا يتم كثيرًا هذه الأيام وقد التقيت به بشكل شخصى فى عديد من المواقع التى حاولت فيها الوصول إلى موقع مؤسسى خاص بالقيم المهمة علمية كانت أو ثقافية، وعلى مستوى المؤسسات الضخمة.. فإذا بى أعثر على أشياء عامة فى غيبة الموقف الذى كان يشغل منذ ساعات بنظريات أو نصوص غاية فى الأهمية..

وكثيرًا ما كنت ألتقى بهذا التخريب حين أحاول أن أستخدم محركات بحث، فإذا بى فى البحث عن قيمة أو قضية أمام صفحات كثيرة فى المادة التى تقدم Result Listing تتشابه فى شكلها العام، وأحيانا أخرى كنت أجد بدلاً من هذه المادة صفحات بيضاء لا تحمل أى مضمون أو أسماء قوائم النتائج التى أشرنا إليها..

وحين أتجه مرة أخرى إلى استخدام شريحة تخزين تحتوى على الأوامر الأساسية لتهيئة الجهاز خلال عملية التشغيل المعروفة booting فإذا بالأوامر لا تمنحنى مواقف أو قضايا أبحث عنها فقد اتخذت معها وسائل «المراقبة» أساليب تحول بينى وبينها..

إن المراقبة هنا تتخذ شكلاً مباشرًا عنيفًا فى التعامل مع المادة التى وضعت خصيصًا للإفادة منها.

غير أن المراقبة فى أحيان أخرى تسعى إلى أساليب أكثر عنفًا حين تقوم بإلغاء الموقع تمامًا لتترك مكانه العنوان فقط عنوان المادة التى أُلغيت، وجدنا هذا فى بعض المجلات التى خصصت أعدادها عن «الرقابة» فى أكثر من قطر عربى فكان موقع هذه المجلة قد تلاشى تمامًا..

وجدت هذا فى العديد من الأعداد الخاصة عن القضية العربية

الإسرائيلية التى تصدر من أمريكا أو أوروبا أو حتى من بعض الأقطار العربية فأجد نفس النتيجة: تلاشى المادة التى أبحث عنها..

إن هذا النوع الآخر من التخريب يقع فى إطار الهاكرز أو حركات التجسس.. وما إلى ذلك التى يكون وراءه الحكومات المعادية (كالمخابراتية والفيدرالية)، وبالتالى يتم التحكم فى الملفات أو القوائم الموجودة..

ليس معنى هذا أن الحكومات المعادية فقط هى التى تقوم بهذا وإنما يمكن أن تكون بعض الحكومات العربية هى التى تقوم بتخريب أو تعطيل هذا الموقع أو ذاك ثم السعى لاقتفاء أثره ومحاولة القبض عليه..

بيد أننا سنرجع ذلك فيما بعد ونتمهل عند صورة من صور الرقابة المفزعة لدى الطرف الآخر المعادى، وهو هنا ـ على سبيل المثال ـ الطرف الإسرائيلى ضد الأطفال الفلسطينيين.

وهو ما يحتاج لاستطراد أكثر

وربما كان أبلغ مثال على هذا هو الشكل الآخر من أشكال عنف الرقابة المتمثل فى الهجوم التخريبى ضد الجهاز المركزى للإحصاء الفلسطينى فى التقرير الإحصائى الخامس، حول التقارير المحايدة عن اغتيال الأطفال الفلسطينيين أبناء الانتفاضة الأخيرة على الإسرائيليين أو ضد الإسرائيليين..

لقد استخدمت الرقابة المعادية أسلوب إعادة كتابة عناوين URL فى عديد من المواقف للتمويه على صاحب الموقع..

لقد قامت القوة المعادية - وهى صهيونية هنا - باستخدام سلاح الرقابة بشكل مريع وبشع..

إن الرقابة هنا لا تقوم بتدمير المعلومات أو إبادتها، وإنها تقوم بشكل يشوه المعلومة التي تقدم وإتلاف ما فيها مما يحدث بعد قراءتها للمرة الثانية الإحساس بالنقيض..

وعلى هذا النحو تقوم المراقبة الخادعة هنا بالهجوم عبر المراقبة، كما سنرى فى التقرير العربى وتسجيل ما جاء فيه جيدًا ثم تقوم بالاستفادة مما تقدمه الشبكة Online بإدخال ما يريد ادخاله من كلمات أو حذف ما يريد حذفه من عبارات وأرقام بوجه خاص - ليقوم بالتلاعب بالمعلومات والإحصاءات الواردة، مما يمكنه من تغيير الخطاب العام الذى يقدم سواء على المستوى المحلى أو العالمى..

وبين أيدينا أمثلة عديدة لمدى العبث المتعمد لتقارير محايدة من الهيئات الدولية عما حاق بالأطفال الفلسطينيين فى كثير من المواقع سواء فى المدرسة أو فى الطريق إلى المدرسة أو فى البيوت.. الخ.

وعبورًا عن العمليات الفنية التى يسهل القيام بها الكثير من أصحاب المراقبة، فإنه يمكن التلاعب - لا إتلاف فقط - المادة التى تقدم، مما تصبح معه إما غير صالحة للتصديق وإما غير مفهومة على الإطلاق كما نرى هنا.

والعودة إلى أصل التقرير (وهو بين أيدينا..) والتقرير المزيف نرى إلى أى حد سعى المراقب الصهيونى إلى استهداف الطفل الفلسطينى الذى لم يتوقف عند الواقع فقط، فتكون أكثر ضحايا الانتفاضة من الأطفال وإنما امتدت يده إلى الشبكة الدولية..

إن العود الآن لعديد من صفحات المواقع على الشبكة العالمية يرينا فى عصر الإرهاب الغربى لا العربى إلى أى مدى يحدث القتل والإرهاب والتعذيب للطفل الفلسطينى والإنسان الفلسطينى الذى يسمى اليوم

(بالتخريبى أو الناشط!!)، فإذا بنا نجد المواقع مليئة بالقشط وتغييب الأرقام وإخفاء الحقائق..

الواقع هنا يتجاوز الفعل على الأرض إلى الفعل على الشبكة العالمية (العالمية)..

ولا نستطيع هنا غير تقديم هذا التقرير بصورته التى وجدناها فى كثير من المواقع لنضعها بين أيدى القارئ والمشاهد للشبكة العنكبوتية (ونكرر أنها بين أيدينا) لمن يريد أن يرى كيف تغلو أجهزة الرقابة الصهيونية فى إتلاف التقارير المحايدة الدولية التى تكتب أو تنشر عن مدى معاناة الطفل الفلسطينى تحت ربقة الاحتلال الصهيونى..؟

بقيت أحزان أخرى نلتقى بها فى عام آخر.

سيناريو الإصلاح والجائزة الكبرى

.... ها قد أضيف الآن إلى المخاطر على الديموقراطية عامل آخر، كان الخطر الأول يتمثل فى الاستبداد الداخلى - كما رأينا، فى الدعابة - بيد أننا الآن نشهد تجسيد العامل الخارجى بل تفاقمه أيضًا.

وكلنا نذكر كيف أصبحت مصر فى نهاية القرن التاسع عشر هى«الجائزة» الكبرى للعم بول. ثم هى تصور الآن على أنها ستكون فى القرن والعشرين «الجائزة» الكبرى للعم سام بعد تداعى أقطار الشرق الأوسط أمامه!!!.. ومن يتابع الكتابات التى تخرج من الإدارة الأمريكية أو مراكزها البحث فيها يلحظ - بوضوح شديد - ترديد مقولة إنه إذا كانت العراق هو التكتيك الجديد والسعودية هى الإستراتيجية اللازمة، فإن مصر - هكذا صرح ونشر وكتب - ستكون الجائزة الكبرى..

نقول هذا، ونحن نتلفت فنجد أن الدعوى للديموقراطية الآن مرتبطة أشد الارتباط بالعامل الخارجى أو (ذريعة) له...

ونجد أن العمل للديموقراطية من الغرب يمر بتمويل جمعيات وتحضير شخصيات وتعطيل حوافز اقتصادية ترهن بطاعة مصر، لقد أضيف إلى العامل الداخلى الذى شغلنا به لسنوات بضرورة العمل للديموقراطية والعمل لها هذا العامل الخارجى (الطارئ) الذى أصبح يتحدث عن الديموقراطية وحقوق الإنسان فى إطار مشروعاته الإصلاحية وليس فى إطار الضرورة الداخلية..

ليس معنى هذا أن آلية الانتقال الديموقراطى ظلت مفتوحة عربيًّا من الإخفاق السياسى والإنسانى فضلاً عن نذر الحرب الأهلية التى تحول دون ذلك أو غياب الثقافة السياسية للديموقراطية، وإنما أصبح يضاف إلى هذا كله الخطر الخارجى إننا نستطيع التعرف على الديموقراطية بالمعنى السياسى حين نعود إلى مفرداتها، غير أن الأمر يختلف حين نتذكر أنه ما دام الخطر الخارجى يتربص بنا، ويسعى إلى تطبيق المصطلح بشكل يفرض بجدية، فإن ذلك أكثر ما يحول بيننا وبين تصور (مستقبل) خارجى لهذا المصطلح بعيدًا عن النية المبيتة ضدنا...

إن التنبه للخطر الخارجى - ونحن نتأمل قبلها الخطر الداخلى ولا نقلل - لا بد من العمل له..

إننا نستطيع أن نتحدث طويلاً عن عناصر الديموقراطية وأهمية تطبيقها، وضرورة إعادة آلياتها الإسلامية فى إطار تعريفها الغربى، غير أن هذا الوجه الخارجى الذى أحبط النهضات العربية خاصة، والمصرية على وجه أخص، وهو تحديدا الخطر الخارجى..

إذا كانت إسرائيل ما زالت تسعى إلى العنف فى التعامل مع قضايانا، وإذا كان فئة المحافظين الجدد أو اليمين المحافظ فى الولايات المتحدة، فضلا عن مراكز الرموز الصهيونية Thank Tanks تسعى لتطويق الواقع السياسى العربى بأطواق كثيرة، فكيف إذن تصور مستقبل الديموقراطية بشكل طبيعى؟

وليسمح لى القارئ الكريم أن نترك العامل الداخلى فى التعامل مع مفردات الديموقراطية وقد بدأناها مبكرا إلى العامل الخارجى الذى أصبح يفرض بالحاح من سى ايلاند الآن بعنف فى فترات ضعف الأمة العربية والتدخل الخارجى.. هو العامل الذى يحول كثيرا دون تصور مستقبل ديموقراطى وهو ما نحاول العود إليه بشكل ما:

إذن كيف سيتركنا الآخر - رغم شعاراته ومشاريعه وإصلاحاته ـ لتحقيق الديموقراطية والمجتمع المدنى (انظر ـ على سبيل المثال ـ ما جاء فى مشروع الشرق الأوسط الكبير أو الأكبر فى الربط بين الديموقراطية والمجتمع المدنى) التى هى من أهم العوامل لتنبه للخطر الخارجى والعمل له عبر توفر الحد الادنى لنظام ديموقراطى فى الداخل..؟

- كيف سيتركنا الآخر من محاولة الدفاع عن الذات، وفى الوقت نفسه يحول بين تحقيق الحلم، ونحن نعرف أن الغرب - وإسرائيل - يسعى دائمًا إلى تخثر أى حلم حضارى عربى وتحوله إلى كابوس؟

والسؤال الأهم فى هذا كله هو:

- كيف سيتركنا الآخر، بينما يزرع الشوك فى طريقنا إلى المستقبل، وأبرز مثال الآن هو: هذا القانون «معاداة السامية»، فلا يمكن أن نفصل مثل هذه القرارات والقوانين الصادرة فى الغرب لنا أو ضدنا (مثل هذا القانون) عن

التدرج أو السعى لبناء مستقبل سياسى يسعى فيه الإصلاح العربى لتأكيد قيمة الديموقراطية، وهو ما يصل بنا إلى تأثير هذا القانون - كمثال دال على غيره - فى تأثيره على مستقبل الديموقراطية العربية، وبوضوح أكثر، أن مشروعًا مثل (الشرق الأوسط الكبير) أو (..الأكبر) تشارك فيه أكثر الدول إنحيازا لإسرائيل مثل الولايات المتحدة الأمريكية التى تضع نصب عينيها هدفين مهمين (أحدهما الانحياز السافر لإسرائيل، والهدف الآخر النفط..)

وعلى هذا النحو، فإن ما يقدم لمصر من مساعدات سوف يتأثر كثيرا بالطريق التى تأخذها مصر، نفس الطريق التى تريده الولايات المتحدة، ومن يراجع ميزانى.2--5 التى رصدتها الخارجية الأمريكية، سوف نلاحظ أنها رصدت لمصر - على سبيل المثال - فى الجانب الإقتصادى ما يساوى 1.3 مليون دولار تحت بند المساعدات الاقتصادية (فى حين انخفضت المساعدات العسكرية 535 بمقدار 76 مليون دولار)، وقالت المذكرة التى اعتمدت هذا المبلغ إنها - أى المساعدات الاقتصادية - ستوجه لضمان الإصلاحات السياسية، وفى مقدمتها الديموقراطية «نحن رصدنا اعتمادات كبيرة لمشاريع الديموقراطية وظالم الحكم..!!»..

وما قيل عن ربط المساعدات الأمريكية لمصر لتنفيذ الأهداف الأمريكية خاصة السياسية وجمعياتها، كما قيل لمصر أو الأردن، وهو ما قيل عن السعودية أو اليمن..إلخ.

وباختصار، لا نقلل من الخطر الخارجى ولكن ننبه - على العكس من غلاة مثقفينا - من أن العامل الخارجى - منذ محمد على - ما زال يمثل خطرًا

لا يجب التهاون له أو معه. حين يتطور تكتيك الغرب عبر أقطارنا العربية لتهتبل إمبراطورية كبرى فى نهاية القرن التاسع عشر الفرصة لتحصل على الجائزة الكبرى (مصر) ثم لتهتبل إمبريالية كبرى فى بداية القرن الواحد والعشرين لتحصل - كما يعلن بالفعل - بدون مواربة للوصول إلى الجائزة الكبرى..

أو حين تصبح مصر هى «الجائزة» الكبرى لإكمال سيناريو آخر بدأ - كما رأينا فى المرات السابقة - من وادى النيل (السودان) وما زال..

العود إلى تاريخنا العربى، خاصة الإسلامى منه، يرينا أن الديموقراطية لم تكن كائنًا غريبًا عنا، وإن تغيرت الآليات واختلفت الأوليات)، غير أن حادث 11 سبتمبر وما أعقبه من المناداة بالإصلاح فى المنطقة التى تمتد من مراكش إلى بنجلاديش، وما تخلله من مشروعات ومبادرات غربية كانت أكثر الدوافع التى أحسسنا بها فجأة أن إعلامنا وندواتنا وإداراتنا السياسية اشتعلت فجأة بالحديث عن الإصلاح خاصة والديموقراطية بوجه أخص إن مستقبل الديموقراطية كان يطرح بشكل معلن وخفى (وخاصة على المستوى الرسمى) بشكل غير مسبوق..

وعلى هذا النحو، كان المستقبل أكثر ما يشغلنا فى بحثنا عن هذه القيم فى الحاضر، وبالتبعية فى الماضى لدى الجماعات الدينية خاصة، وفى السياق الأخير كان كل ما يثار يلقى فى تيار المستقبل..

1) انظر على سبيل المثال المؤتمر الذى عقُد بالقاهرة بعنوان (أولويات الإصلاح فى العالم العربى) يمكن رصد كتابات ولقاءات وندوات لا حصر لها منذ بدايات القرن الواحد والعشرين حول هذا.

ويسألونك عن الإرهاب

دهشت أن يسألنى البعض فى إحدى الندوات فى الفترة الأخيرة عن الإرهاب، ما هو الإرهاب ياسيدى؟ هل هو.. وراح السائل يسأل فى حيرة أمام ما نسمعه من متفجرات هنا وهناك، وأمام ما نقرأه من إرهاب الأصوليين أو السلفيين (إرهاب الدولة).

وفى الوقت نفسه، كان قد لفت نظرى رد الفاتيكان بعنف الفترة الأخيرة، وبحزم على الانتقادات الإسرائيلية حين راح يردد ـ بعد بيات طويل فى روما ـ أنه من المستحيل إدانة المقاومة الفلسطينية، والسماح (للعنف) الإسرائيلى ضد أهل غزة.

ووجدت نفسى أستعيد ـ دون أن أشعر ـ دهشة السائل، والإجابة التى بدت بدهية بالنسبة إليه رغم أنه بدا وكأنه ينتظر إجابة.

ورغم أن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة بدهيات أو كالبدهيات، فقد وجدت نفسى مضطرا ـ للعود إلى مثل هذه البدهيات التى لم تتنبه إليها الأجيال الجديدة الغائبة أو المغيبة فى أشياء كثيرة فى عصر العولمة السعيد، وبعد أن تحولت العولمة إلى عسكرة العولمة، ثم راحت مشروعات العولمة تتحدث كثيرًا عن الحرية والديمقراطية و(تمكين النساء)، كما عرفنا وقرأنا فى سى إيلاند.

عدت أجيب عن السؤال البدهى:

- ما هو الإرهاب؟

وهو ـ بالقطع ـ عن العنف الذى قصده بابا روما، والذى أثار ضده القوى التى تتهم كل من ينتقد مواقفها بمعاداة السامية.

لقد استقر العرف الدولى على أن الإرهاب شكل من أشكال العنف، ومن ثم، فإن العنف الذى قصده البابا هنا هو العنف السياسى (الإرهاب)، خاصة أن فى السياسة مجالات عنيفة أحيانًا، والحرب نفسها عنف سياسى، تمارسها الدول ـ كما تلاحظ الموسوعة العربية ج1 ـ ولما كانت الحرب امتدادًا للسياسة بوجه ما، فإن الإرهاب السياسى، وهو فعل عنفى، هو امتداد لها أيضًا بوجه آخر.

وهو هو الفعل الذى تقوم به إسرائيل دون شك فى الأرض العربية المحتلة اليوم ـ بل هو الإرهاب الذى تقوم به على مدى أكثر من نصف قرن، حتى إنه يمكن أن يقال إن الكيان الصهيونى ارتبط فى تطوره بأعمال الإرهاب والقتل التى مارسها ضد أهلنا فى فلسطين.

وعلى هذا النحو، إذا كان مقياس الحكم على الحرب من حيث شرعيتها، أو عدوانيتها، ومن حيث كونها عادلة أو ظالمة، يعتمد على هذه الحرب وأسبابها، فمن المنطق أن يكون الحكم على الإرهاب السياسى مرتبطًا بالهدف من العملية الإرهابية.

ومن هنا تصبح العمليات السياسية مرتبطة بأهدافها.

وإذا كانت الأمم المتحدة قاومت الاستعمار ومظاهره فى عداد الجرائم، وأكدت أن للشعوب المستعمرة حقها الطبيعى فى النضال، فمن الصعب أن نصل إلى طبيعة هذه الأعمال التى يطلق عليها «الإرهاب»، ومن الطبيعى أن نطلق على أصحابها إرهابيين.

فهم يمارسون الإرهاب إذا كانوا يعملون فرادى.

وهم أصحاب «الإرهاب الدولى» Intermational Terrorism، وقد أصبح مصطلحًا عالميا، خاصة إذا كانوا يعملون عبر دولة محتلة أو مستعمرة

وتتعامل بكل أشكال العنف والتهجير والتدمير مع السكان مع أهل البلاد.

أضف إلى ذلك أنه على رغم أن العمليات الإرهابية التى انتشرت كالفطر فى العالم من إسبانيا إلى لندن إلى شرم الشيخ، والبقية تأتى، فإن لفظ الإرهاب ما زال يحتاج إلى إعادة نظر (أغرق فيها كتّابنا ومحللونا السياسيون وهم كثيرون...) فأصبحنا ـ خاصة منذ عاصفة مانهاتن إلى تفجيرات شرم الشيخ، مرورا بانفجارات مدريد، ولندن، وبيروت، والعراق ـ أمام سيل من الكتّاب والمحللين وجنرالات الفضائيات كلها تتحدث عن الإرهاب دون أن تقترب فى كثير من أصحابه، وتشير إلى الإرهابيين دون أن تشير.

وأصبحنا أمام من يتحدث عن الإرهاب الذى يقوم بالانفجارات فى عديد من الدول، فى حين أننا لم نلحظ ـ وهى ملاحظة قائمة للتأمل ـ داخل إسرائيل نفسها، مما دفعنا أكثر لنحاول الإجابة البدهية للسؤال الذى ما زال يطرح حتى الآن، بيد أننا نحاول العود إلى السؤال: ما هو الإرهاب عبر ما عرفناه فى نصف القرن الأخير، خاصة فيما يطلق عليه «إرهاب الدولة» فى الكتابات المعاصرة لننظر إلى هذه الأمثلة ونحن نحاول أن نجيب عن السؤال:

ألا يذكرنا الإرهاب بمجزرة «قوس قزح»، حيث قامت المروحيات والدبابات الإسرائيلية بإطلاق الصواريخ والقذائف على منازل المواطنين فى حى السلطان برفح، مما أدى إلى استشهاد هذا العدد الكبير من المواطنين إضافة إلى إصابة العشرات والتى وصفت بعضها بالخطيرة.

وألحق القصف أضرارًا فادحة بمنازل المواطنين ومحطة الكهرباء، فى الوقت الذى منعت فيه قوات الاحتلال سيارات الإسعاف من التحرك

لإنقاذ الجرحى والمصابين أو حتى نقل الشهداء فيما ترك بعض الشهداء ينزفون حتى الموت، بينما اضطر بعض الأطباء لتحويل منازلهم إلى نقاط لتقديم الإسعافات الأولية.

وقد فقدت بعض العائلات الفلسطينية أكثر من شهيد فى هذه المجزرة، فقد استشهد الطفلان الشقيقان أحمد وأسماء محمد على المغير، وإسماعيل البلعاوى، ونجله إبراهيم البلعاوى فى الغارة التى استهدفت مسجد بلال ابن رباح.

ألا يذكرنا الإرهاب بالهجوم على قرية عربية صغيرة تسمى دير ياسين قرب القدس، عدد القتلى فى هذه المذبحة البربرية وفق جاك رينير (المندوب الرئيسى للصليب الأحمر الدولى)، يقدر بثلاثمائة شخص، وقد أضاف: لقد ذبح بدون أى سبب عسكرى أو استفزاز من أى نوع رجال ونساء عجائز وأطفال حديثو المولد قتلوا بشكل وحشى بالقنابل والسكاكين على يد القوات اليهودية الأرجون، تحت سيطرة رؤسائهم.

ألا يذكرنا الإرهاب بهذه الغارة الجوية على مقر منظمة التحرير الفلسطينية فى تونس 1985، مما أدى إلى استشهاد أكثر من سبعين مدنيا فلسطينيا وتونسيا، وأحدثت خرابًا كبيرًا؟

ثم ألا يذكرنا ما تم من اغتيال بدم بارد ومع سبق الإصرار المواطنة يسرى صوالحة من بلدة كفر راعى والتى كانت فى طريق عودتها إلى منزلها، حيث انهمرت رصاصات السادية الاحتلالية على السيارة التى كانت تستقلها عند مفترق الشهداء، بينما الآخرون فى السيارة اجتازوا الموت بأعجوبة.

ومنذ أيام قليلة قفز جندى كان يضع على رأسه قلنسوة اليهود فى حافلة للركاب، وراح يطلق النار على سائق العربة وركابها من الفلسطينيين بشكل كثيف وعشوائى فأصيب الركاب وأكثرهم أطفال، وزيادة فى الإرهاب راحت المروحيات تحلق فوق البلدة التى حدثت بها المجزرة من متعصب يهودى أسرع زملاؤه الإرهابيين من الجنود لحمايته.

وبعد، هل ما زال بيننا من يسأل حتى الآن عن الإرهاب ؟!!

نحن والغرب والتكنولوجيا : ما العمل؟

أولاً

من يتابع ما يحدث فى العالم الآن على المستوى التكنولوجى يلحظ أنه فى جانب، فإن العالم الغربى خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية يتقدم بسرعة مذهلة، بل وتسن الولايات المتحدة القوانين لتظل فى مقدمة الركب فى حين أن كثيرًا من أقطارنا العربية لا تقف فى منطقة متقدمة من هذا العالم الذى تمثل فيه التكنولوجيا وتداعياتها إشارة إلى التقدم، ومن ثم التفوق على الغير. الأكثر من هذا أننا فى حين نحاول اللحاق بما يشهده العالم من تكنولوجيا معاصرة تحاول بعض الأقطار الكبرى سن القوانين التى تعمل فى اتجاهين :

- سن قوانين تحول دون سوء استخدام الإنترنت فى الداخل
- التفوق على غيرها من الأقطار الأخرى فى الخارج..

ففى الداخل تم التقدم فى الولايات المتحدة الأمريكية بجهود فى هذا الصدد..

تم التقدم بمشروع قانون الرقابة على الإنترنت لعام 1995، وتمت مناقشته، فى الكونجرس الأمريكى.

ووفقًا لهذا القانون، فإن الفرد يعد منتهكًا للقانون إذا أرفق بصفحة الويب اختبار خلو من المواد الممنوعة دون التأكد من عجز الأطفال عن الوصول إلى هذه الصفحة.

وكذلك إذا اعتدى شخص على آخر باللفظ على الدردشة، فإنه بذلك ينتهك القانون الجديد.

أما فى الخارج، فإن التقدم الذى تحرص عليه الولايات المتحدة ظهر جليا فى الابتكارات التى تحرص عليها والتمسك بالريادة فى هذا المجال، كما شهدنا فى مؤتمر جنيف 2003، حين حرصت أن يكون لها الأولوية فى مجال تكنولوجيا الاتصالات بشكل عام..

وهو ما يفرض علينا أن نسأل :

- ما العمل؟

وكيف يكون صوت من لا صوت له فى تعبير البعض؟

ما هو مستقبل تأثير التكنولوجيا الغربية على النص العربى أو الواقع العربى فى صيرورة لا تبدو فيها أننا نسعى بوعى وجدية للحاق بما تسعى إليه (الإمبريالية) العصرية؟

يمكن أن نوجز ذلك فى عدة ملاحظات، أهما ضرورة الوعى بالتعاون العربى فى هذا المجال، وهذا التعاون العربى لا بد أن يتم على هذا النحو :

- لا بد من التعاون بين الأقطار العربية أمام الرقابة أو العنف المعلوماتى الذى يمارس ضدنا، إذ نستطيع فى حالة عقد المؤتمرات الفاعلة تحت إشراف الأمم المتحدة أو خارجها من وضع «استراتيجية» عمل على تنمية المعرفة لتطوير القوة العربية.. لا بد من التنبه للتعاون فى هذا الحقل للوصول إلى خطاب علمى يمكننا من المواجهة فى هذا العالم..

فكما لا بد من التنبه - على المستوى الشخصي - إلى خطورة أساليب الرقابة - ضمن إستراتيجية الرقابة الغربية، كذلك لا بد من التنبه - على المستوى العربى- إلى خطورة الأساليب الكثيرة التى تسعى للنيل منا، فالخدمات المعلوماتية كما هى مرتبطة بالأفراد هى أيضًا مرتبطة بالدول، خاصة أن مركزية الشبكة تقبع فى الغرب الأمريكى..

ولدينا أمثلة كثيرة من أساليب الاختراق التى تتمثل فى البرامج الغربية التى تغوص فى نظم التشغيل العربية فى الشبكة، حيث يختبئ الكثير منها خلف ملفات عادية فى نظام ويندوز..

إن التعاون العربى الفاعل عبر الشبكة أهم ما يجب التنبه إليه هنا - فى الوطن العربى.. والآن - فى بداية الألفية الثالثة..

(2)

سبق وأن أشرنا إلى أن العالم الغربى خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية يتقدم بسرعة مذهلة، بل وتسن دولة كالولايات المتحدة الأمريكية القوانين لتظل فى مقدمة الركب، فى حين أن كثيرًا من أقطارنا العربية لا تقف فى منطقة متقدمة من هذا العالم الذى تمثل فيه التكنولوجيا وتداعياتها إشارة إلى التقدم، ومن ثم التفوق على الغير..

أشرنا إلى هذا وأفضنا فيه..

بل وأشرنا إلى السؤال المهم للخروج من هذا المأزق الذى يحول بيننا - فى الوطن العربى - واللحاق بالدول الكبرى، خاصة فى مجال التكنولوجيا التى تحدث بيننا وبين الغرب هذه "الفجوة الرقمية " التى تحول بيننا وبين التقدم..

هذا السؤال : ما العمل؟

وإذا كانت الإجابة الأولى عن هذا السؤال ضرورة التعاون العربى، فإن الإجابة الأخرى، التى لا بد من التنبه إليها هنا تظل أننا ونحن فى الطريق إلى التعاون العربى والتأكيد عليه بالعمل المشترك وحث الحكومات العربية على التعاون الخلاق فى المدن الذكية ووضع إستراتيجية مشتركه.. وما إلى ذلك، فإن هناك طريقًا آخر لا بد من التنبه إليه هو التعاون العربى مع العالم الغربى..

لا بد من الخروج إلى العالم لنتنبه إلى ما يدور حولنا

يجب التنبه جيدًا إلى ضرورة اللحاق بالدول الكبرى لا يكون بشكل منفرد، وإنما يكون بالوحدة بين أقطارنا العربية ـ تكنولوجيا - والوعى عبر هذه الوحدة بالتعاون مع الخارج التعاون العربى ـ الدولى كما أشرنا..

وعلى هذا النحو، فإن التعاون الدولى لا بد أن يتنبه فيه إلى عدة ملاحظات مهمة منها:

-لا بد من الاشتراك فى المؤتمرات العالمية التى تواجه الرقابة باسم الأمن القومى National Security، فنضيف إلى الوعى العربى الوعى الدولى، بما يمكن أن نتفق فيه على تشريعات جديدة على الشبكة تحول بين أن نصبح ضحية ضعيفة فى عصر الإرهاب بعد 11 سبتمبر خاصة بمسميات شتى..

وأبلغ مثال على هذا التنبه إلى الاشتراك فى مؤتمر جنيف 2003 الذى سيعقد مرة ثانية فى تونس فى نهاية عام 2005 للنظر فى وطأة شركات الرقابة الغربية علينا وعنادها.

إن شركات الرقابة فى الغرب أصبحت قوى غاشمة تسعى للسيطرة على الكرة الأرضية كلها، ومن هنا، فإن التنبه إلى دول العالم الأخرى والعمل معها يمكن ـ مع تواصل نمو المعرفة ـ من الوعى بقوة أمام هذه القوة المعلوماتية (الإمبريالية) الغاشمة.

لا بد من التعاون الدولى كما قال أحد رجال الأعمال العرب فى اجتماع الأمم المتحدة بأن على العالم أن يكون ممتنًّا للعم سام على اختراع الإنترنت، إلا أنه قد حان الوقت لأن يكون لبقية بلدان العالم صوت ودور أكبر فى إدارة الإنترنت، وأعلن أنه يعتزم من طرفه أن يقدم اقتراحًا للولايات المتحدة الأمريكية أو لأى مؤتمر عالمى جديدة يكون من شأنه التنبه إلى التعاون بيننا وبين الغرب..

التعاون الدولى بما لا يضعف أقطارنا العربية، وبما يعمل على أن نلحق بالدول الغربية فى هذا المضمار قبل أن تزيد هوة التخلف أو تتسع الهوة الرقمية بين الوطن العربى وهذا المجتمع الدولى.

إنه التعاون العربى الدولى.

هذا الكتاب

رصدٌ بشكلٍ مّا للشرق العربى بين القرنيْن العشرين والحادى والعشرين، راحَ يصعد من نهايات القرن العشرين إلى بدايات القرن الحادى والعشرين، إذ يرصد عقدًا من الزمان فى مفترق الطرق، عبر كتابات منتظمة واعية راصدة لحركة الواقع الحاضر، الذى هو حصاد للماضى وتَشوُّف للمستقبل، عبر خطى الماضى والحاضر فى حركة زمنية أقرب إلى "المضارع المستمر" الذى نعثر عليه فى غير الأفعال العربية.

وعلى هذا، فالفترة الزمنية لهذا الكتاب ترصد سنوات بداية قرن ونِهاية قرن جديد.. وهو ما يقترب بنا من حقيقة مهمة، هى أن ما كُتب هنا يمثل وعيًا بالحاضر يقترب من "الشهادة".. الشهادة على أقنعة هذا الزمن ورموزه، والمعانى المعادة بين العوربة والعولمة، والمعانى الدالة فى أقصى دلالاتها عن موقف المثقف العربى ورموزه التى تبدو بالشكل السلبى والإيجابى.

د. مصطفى عبد الغنى



